تفسير جزء

الذاريات

إعداد

سرحان بن غزاي العتيبـــي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واقتفى أثره وعمل بسنته إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً أما بعد

فهذا أوان الشروع في تفسير جزء الذاريات يوم السبت الموافق (٢٧ / ١ / ١٤٤٣هـ) سائلين المولى الكريم أن يلهمنا الرشاد ويوفقنا للسداد ويجعلنا عالمين عاملين معلمين إنه جواد كريم .

تفسير سورة الذاريات

سورة الذاريات مكية وآياتها ستون

قال بن كثير : ثبت من غير وجهٍ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آيةٍ في كتاب الله ولا عن سنةٍ عن رسول الله إلا أنبأتكم بذلك . فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ ﴾ قال: الريح . قال ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ ﴾ قال: السحاب. قال ﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ ﴾ قال: السفن. قال ﴿ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ ﴾ قال: الملائكة . وقد روي في ذلك حديث مرفوع ، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن هانئ حدثنا سعيد بن سلام العطار حدثنا أبو بكر بن أبي سَبْرَة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: جاء صَبِيغ التميمي إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الذاريات ذروا فقال: هي الرياح ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن المقسمات أمرا قال: هي الملائكة ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. قال: فأخبرني عن الجاريات يسرا قال: هي السفن ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ما قلته. ثم أمر به فضرب مائة وَجُعِلَ في بيت ، فلما برأ دعا به وضربه مائة أخرى ، وحمله على قَتَب ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : امنع الناس من مجالسته. فلم يزل كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف بالأيمان الغليظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً. فكتب في ذلك إلى عمر ، فكتب عمر: ما اخاله إلا صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس . قال أبو بكر البزار: فأبو بكر بن أبي سبرة لين ، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث . قلت: فهذا الحديث ضعيفٌ رفعه ، وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر ، فإن قصة صَبِيغ بن عسل مشهورة مع عمر ، وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تعنتاً وعنادا . انتهى

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ ﴾ يقسم تعالى بالرياح التي تثير التراب وغيره كالعشب بعد يبسه فتقلعه من مكانه وتفرقه في الأرض كقوله تعالى ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ

ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾سورة الكهف عن عمر وعلي بن أبي طالب وبن عباس ومجاهد : هي الرياح . وقيل هن النساء لأنهن يذرين الأولاد . قال القرطبي : وخص النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذارياً لأمرين: أحدهما لأنهن أوعية دون الرجال ، فلاجتماع الذروين فيهن خصصن بالذكر. الثاني/ أن الذرو فيهن أطول زماناً ، وهن بالمباشرة أقرب عهدا .انتهى.

﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ ﴾ يقسم سبحانه وتعالى بالسحاب التي تحمل حملاً ثقيلاً وهو الماء ، كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ ﴾سورة الرعد وذلك من أعاجيب صنع الخالق فكيف لسحابٍ هو هواء كالضباب يحمل ماءً كثيراً ، والماء ثقيل الحمل كما هو معلوم لمن جرب حمل أوعية الماء . فكيف والسحاب يحمل ما تسيل به الأودية العظيمة ، وربما حصل بسببه الغرق من كثرة الماء الذي يحمله .

عن عمر وعلي بن أبي طالب وبن عباس ومجاهد ﴿ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ ﴾ هي السحاب . وقيل : هن النساء ثقلن بالحمل ذكره القرطبي . قال : والوِقر بكسر الواو ثقل الحمل على ظهرٍ أو في بطن ، وأما الوَقر بالفتح فهو ثقل الاذن .انتهى

﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾ يقسم تعالى بالسفن التي تجري على الماء بيسر . عن عمر وعلي بن أبي طالب وبن عباس ومجاهد : هي السفن .

والارتباط بين الآيات الثلاث ظاهر فإن الرياح هي التي تسوق السحاب وتلقحه كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾سورة الأعراف وقال تعالى ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾سورة الحجر وهي التي تجري بالسفن في الماء فلم يكن ثمة مكائن وإنما هي الرياح التي تحرك السفن كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾سورة يونس

وقيل ﴿ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾ هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها ، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى إلى ما هو أعلى منه فالرياح فوقها السحاب ، والنجوم فوق ذلك ، والمقسمات أمراً الملائكة فوق ذلك . ذكره بن كثير .

﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ الملائكة تقسم ما يأمرها الله به على المخلوقات من الأرزاق ونحو ذلك وتأنيثها على الجمع أي الجماعات المقسمات . عن عمر وعلي بن أبي طالب وبن عباس ومجاهد : هي الملائكة .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ ﴾ جواب القسم : ما يعدكم الله به من البعث والنشور وسائر أمور القيامة فهي صدق لا كذب فيه . قال مجاهد : إن يوم القيامة لكائن . قال الطبري : إن الذي توعدون أيها الناس من قيام الساعة وبعث الموتى من قبورهم لصادق ، يقول : لكائن حقّ يقين .انتهى

﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ أي إن الحساب والجزاء واقعٌ عليكم لا محالة . قال مجاهد : الحساب . وقال قتادة : ذلك يوم القيامة يوم يدين الله العباد بأعمالهم . قال بن زيد : لكائن .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ ﴾ اختلف السلف فيها على أقوال :

القول الأول : ذات الخَلْق الحسن . وهو مرويٌ عن علي بن أبي طالب وبن عباس والحسن وعكرمة : قال عكرمة : ألم تر الحائك إذا نسج الثوب فأجاد نسجه قيل : والله أجاد ما حبكه .انتهى. قال ابن الاعرابي: كل شيءٍ أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته .انتهى . وما زال في لفظ العامة : حبكت الشيء ، أي أتقنته وأحسنت صنعته فهو محبوك . وعن بن عباسٍ : ذات البهاء والجمال. وعنه وعن سعيد بن جبير : حسنها واستواؤها . وعنهما مع الحسن والضحاك : ذات الزينة . وعن الحسن : ذات النجوم . وقال مجاهد : المتقن البنيان . والمعنى واحد .

والقول الثاني : ذات الشدة والمحبوك الشديد الخلق . وهو قول بن زيد : وقال خصيف : ذات الصفاقة . يعني الغلظة .

والقول الثالث : ذات الطرائق . وهو قول الضحاك : قال : يقال لما تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح حبك. وقال الفراء: الحبك تكسر كل شيء ، كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة ، والماء القائم إذا مرت به الريح ، ودرع الحديد لها حبك والشعرة الجعدة تكسرها حبك ، وفي حديث الدجال (أن شعره حبك) ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها .انتهى يعني السماء لبعدها لا يرون تجعدها . وقيل : هي طرائق الضوء ترى في السماء في غياب القمر ، وهي ما تسمى بالمجرة .

والراجح حمل المعنى على الجميع لأنه من اختلاف التنوع لا التضاد ومعلومٌ في قواعد التفسير أنه إذا احتمل اللفظ أكثر من معنى وليس بينها تضاد ولا مخالفة للشرع فإنه يحمل على الجميع .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ ﴾ في القران وفي النبي صلى الله عليه وسلم . قال قتادة : مصدقٌ بهذا القرآن ومكذب . وقال بن زيد : يتخرّصون يقولون : هذا سحر ويقولون : هذا أساطير ، فبأي قولهم يؤخذ . وقال بن جريج : أهل الشرك يختلف عليهم الباطل. وقيل عبدة الأوثان يقرون بربوبية الله وينكرون ألوهيته .

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾ يُصْرَفُ عن الإيمان بالقرآن وبالنبي صلى الله عليه وسلم من صُرِف . قال بن عباس : يضل عنه من ضل . وقال الحسن : يصرف عنه من صرف . وقال بن جرير : يصرف عن الإيمان بهذا القرآن من صرف ، ويدفع عنه من يُدْفع ، فيُحْرَمه .انتهى. وقيل : يصرف عن ذلك الاختلاف من عصمه الله . والأول أولى لأن السياق سياق ذمٍ لا مدح.

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ لعن الخراصون الذين يقولون على الله وعلى كتبه ورسله بالظنون والأوهام . قال بن عباس : لعن المرتابون . وعنه : الكهان . وقال مجاهد : يخرصون الكذب . وقال الحسن : الكذابون . وقال قتادة : المكذبون . وعنه : أهل الغرة والظنون . وقال بن الأنباري : جمع خارص والخرص الكذب والخراص الكذاب . وقال بن جرير : لُعِن المتكهنون الذين يتخرَصون الكذب والباطل فيتظنونه . وقال بن زيد : القوم الذين كانوا يتخرَصون الكذب على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، قالت طائفة : إنما هو ساحر والذي جاء به سحر. وقالت طائفة : إنما هو شاعر والذي جاء به شعر . وقالت طائفه : إنما هو كاهن والذي جاء به كهانة . وقالت طائفة ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ يتخرَصون على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الذين هم منغمسين في الغفلة واللهو حتى غطت على قلوبهم وعقولهم فلم يبصروا الحق . قال القرطبي : الغمرة ما ستر الشيء وغطاه ، ومنه نهر غمر أي يغمر من دخله ومنه غمرات الموت. ساهون أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة . انتهى. وقال مجاهد : قلبه في كنانة . يعني في غطاء . وقال قتادة : في عمىً وشبهة . وقال بن زيد : ساهون عما أتاهم وعما نزل عليهم ، وعما أمرهم الله تبارك وتعالى وقرأ قول الله جلّ ثناؤه ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ ... الآية وقال : ألا ترى الشيء إذا أخذته ثم غمرته في الماء . وقال بن جرير : الذين هم في غمرة الضلالة وغَلَبتها عليهم متمادون ، وعن الحقّ الذي بعث الله به محمدا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ساهون ، قد لَهُوا عنه .انتهى.

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ يسئلون متى يوم الجزاء والحساب ، استبعاداً لوقوعه . حتى إذا بعثهم الله وعلموا أن ما وعدوا حق قالوا ﴿ يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ من آية (٢٠) سورة الصافات

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ قال بن عباسٍ وعكرمة وقتادة : يعذبون . وقال مجاهد وعكرمة وبن زيد : يحرقون . وقال الضحاك : يطبخون . والمعنى واحد . قال مجاهد : يعذبون عليها ويحرقون كما يفتن الذهب في النار . وقال عكرمة : يعذّبون في النار يحرقون فيها ، ألم تر أن الذهب إذا ألقي في النار قيل فتن .

وعن الضحاك : يكذبون .كقوله تعالى﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

سورة الأنعام لكن الآية بعدها تؤيد القول الأول . قال الطبري : وأولى القولين بالصواب قول من قال : يعذّبون بالإحراق. لأن الفتنة أصلها الاختبار ، وإنما يقال : فتنت الذهب بالنار : إذا طبختها بها لتعرف جودتها ، فكذلك قوله ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ يحرقون بها كما يحرق الذهب بها .انتهى.

﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ عن أبي الجوزاء وقتادة : ذوقوا عذابكم . وعن بن جريج : ذوقوا حريقكم . والمعنى واحد .

﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ في الدنيا استهزاءً واستبعاداً لوقوعه .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾ إن الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره واجتناب نواهيه هم في الدار الآخرة في بساتين وعيون ماء يتنعمون فيها . ثم بين صفات المتقين الذين يحصلون على هذا الأجر العظيم والنعيم المقيم فقال ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي يعملون بما أمرهم الله به . قال بن عباسٍ : الفرائض .﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ قال بن عباس : قبل أن تنزل الفرائض يعملون . وقال الضحاك ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من النعيم في الجنة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ يعني قبل دخولهم الجنة يعني في الدنيا محسنين . ورجحه بن كثير قال : لأن ﴿ ءَاخِذِينَ ﴾ حال من قوله ﴿ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾ فالمتقون في حال كونهم في الجنات والعيون آخذون ما آتاهم ربهم أي: من النعيم والسرور والغبطة .﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ في الدار الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ كقوله ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾سورة الحاقة . انتهى.

ثم بين المولى أنواعاً من عمل المحسنين في الدنيا فقال ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ والهجوع النوم .

وقد اختلف السلف في معنى هذه الآية على أقوال :

الأول / كانوا يقومون الليل لا ينامون فيه إلا قليلاً فعن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه قال : هجعوا قليلاً ثم مدوها إلى السحر . وقال الحسن : كابدوا قيام الليل . وقال : لا ينامون منه إلا قليلاً . وقال أيضاً : نَشِطُوا فَمَدُّوا إِلَى السَّحَرِ. وقال الأحنف بن قيس : كانوا لا ينامون إلا قليلا . وقال إبراهيم : ما ينامون .

والثاني / كانوا يصلون قليلاً من الليل لا ينامونه كله . قال بن عباس : ما تأتي عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا لا يصلون فيها . وعن أنسٍ : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وعن أبي العالية قال : لا ينامون عن العشاء الآخرة . وقال مطرف بن عبد الله : كانوا قل ليلةٍ لا يصيبون منها . وقال محمد بن علي : لا ينامون حتى يصلوا العتمة .انتهى

وعن بن عباسٍ قال : قليلاً ما كانوا ينامون . وهذه تحتمل القولين . وقال مجاهد : كانوا لا ينامون الليل كله . وهو أيضاً يحتمل الأمرين ويحتمل معنىً ثالثاً أنهم لا ينامون الليل مطلقاً لكن تفسير الآية بهذا لا يصح لأن ذكر القليل في الآية ينفيه فيحتمل أن يكون النوم هو القليل ويحتمل أن يكون القيام هو القليل . ولا يمكن نفي القليل لكن على تفسير سعيد بن أبي الحسن فالقليل هو عدد الليالي التي يهجعون فيها .فإنه قال : قل ليلة أتت عليهم هجعوها . يعني ينامون ليلةً ويقومون ليالي.

والثالث / أنها منسوخة فعن عطاء قال : ذلك إذ أمروا بقيام الليل وكان أبو ذر يعتمد على العصا فمكثوا شهرين ثم نزلت الرخصة .

والرابع / وهو قول الضحاك أن القليل يعود على الناس لا على الليل فقال : كانوا قليلاً من الناس الذين يفعلون ذلك إذ ذاك. وعنه : المحسنون كانوا قليلاً هذه مفصولة ثم استأنف فقال ﴿ مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾

ورجح بن جرير الأول فقال : وأولى الأقوال بالصحة قول من قال : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم لأن الله تبارك وتعالى وصفهم بذلك مدحاً لهم وثناءً عليهم به فوصفهم بكثرة العمل وسهر الليل ومكابدته فيما يقربهم منه ويرضيه عنهم أولى وأشبه من وصفهم من قلة العمل وكثرة النوم .انتهى

﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ أي وقت السحر وهو آخر الليل يستغفرون قيل أي يصلون وقيل يستغفرون الاستغفار المعروف وهو قول : استغفر الله . ونحو ذلك . قال الحسن : صلوا فلما كان السحر استغفروا . قال بعض الصالحين : قضوا أكثر ليلهم في صلاةٍ وعبادة فلما أقبل الفجر استغفروا لله من تقصيرهم في عبادته .

﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ قال بن عباسٍ وإبراهيم ومجاهد : حقاً سوى الزكاة . قال بن عباسٍ : يصل بها رحماً أو يقري بها ضيفاً أو يعين بها محروما . وقال إبراهيم : كانوا يرون في أموالهم حقاً سوى الزكاة . وقد تقدم الكلام في سورة المعارج عن خلافهم في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾فقال قتادة وبن سيرين هي الزكاة المفروضة . وقال بن عمر وبن عباسٍ ومجاهد والشعبي وإبراهيم : في المال حقٌ سوى الزكاة .

وقد رجح القرطبي أنها الزكاة المفروضة لأنها هي المعلومة وما سواها فبقدر الحاجة . وقال الطبراني : يعني الزكاةَ المفروضةَ لأن ما لا يكون مَفرُوضاً لا يكون مَعْلُوماً .انتهى. فإن قيل فليس في سورة الذاريات لفظة (معلوم) وهي التي رجح الطبراني والقرطبي بسببها أنها الزكاة ؟ فيقال يحمل المطلق فيها على المقيد في سورة المعارج لتوحد المبذول إليه هذا المال وهما (السائل والمحروم) وأما قولهم : في المال حقٌ سوى الزكاة فهو معلومٌ بأدلةٍ أخر وليس بهاتين الآيتين والعلم عند الله تعالى .

وهذا أوان الشروع في بحث هذه المسألة

اختلف العلماء : هل في المال حقٌ سوى الزكاة ؟

القول الأول / ليس في المال حقٌ سوى الزكاة ونسبه القاضي عياض إلى الجمهور وكذلك النووي والشوكاني وغيرهم .

واستدلوا بما يلي :

أولاً / عن طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ رضي الله عنه قال : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ، فَقَالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ : لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: وَصِيَامُ رَمَضَانَ قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ قَالَ : لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ قَالَ وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الزَّكَاةَ قَالَ هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ : لاَ ، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ . قَالَ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللَّهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ . قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ. متفق عليه

ووجه الدلالة قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا إلا أن تطوع) فدل على أن ما سوى الزكاة يعتبر تطوعاً . وكذلك قول الأعرابي : لا أزيد على هذا . ورد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (أفلح إن صدق) يدل على أن ما سوى الزكاة ليس بواجب ، ولو كان في المال حق سوى الزكاة لما وصفه بالفلاح ولبينه النبي صلى الله عليه وسلم لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .

ثانياً / ما رواه الترمذي عن أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك) ورواه الحاكم وقال: صحيح وأقره الذهبي: ولكن قال ابن حجر في التلخيص ص١٧٧: إسناده ضعيف. وضعفه الألباني

ووجه الدلالة أن من قضى ما عليه في ماله لم يكن عليه حقٌ آخر فيه ، ولا يُطالب بإخراج شيء آخر على سبيل الوجوب.

ثالثاً / ما أخرجه الحاكم عن جابر مرفوعًا (إذا أديت زكاة مالك فقد أذهبت عنك شره) رواه ابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وافقه الذهبي وقال الحافظ في الفتح : رجح أبو زرعة والبيهقي وغيرهما وقفه كما عند البزار. أهـــ . وقال الألباني : إسناده ضعيف ابن جريج وأبو الزبير هما مدلسان وقد عنعنا وهو مخرج في الضعيفة (٢٢١٨)

ووجه الدلالة أن لو كان في المال حقٌ سوى الزكاة لما انتفى عن صاحبه الشر بمجرد إخراج الزكاة لأنه سيحاسب على تلك الحقوق ويعاقب بتركها .

رابعاً / عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : كُنْتُ أَلْبَسُ أَوْضَاحًا مِنْ ذَهَبٍ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَنْزٌ هُوَ ؟ فَقَالَ (مَا بَلَغَ أَنْ تُؤَدَّى زَكَاتُهُ فَزُكِّيَ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ) رواه أبو داود والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي وحسنه الألباني انظر حديث رقم (٥٥٨٢) في صحيح الجامع

ووجه الدلالة أن لو كان في المال حقٌ غير الزكاة لكان كنزاً ولما سلم صاحبه من الوعيد .

خامساً / حديث (ليس في المال حقٌ سوى الزكاة) رواه بن ماجة وضعفه أهل العلم بل رأوا أن فيه تصحيفاً من النساخ وأن لفظ الحديث (في المال حقٌ سوى الزكاة) كما هو عند الترمذي وقد ذكر العلامة أحمد شاكر وغيره ذلك لسببين : الأول / أن بن كثير نسب الحديث الأخير إلى الترمذي وبن ماجه جميعاً . والثاني / لأن الطبري رواه من نفس طريق يحيى بن آدم التي رواه منها ابن ماجه ونصه (إن في المال لحقًا سوى الزكاة) . والأخير وإن كان أصح لفظاً لكنه أيضاً ضعيف مرفوعاً . قال الألباني : وجملة القول أن الحديث بلفظيه ضعيف ، والصحيح أنه من قول الشعبي . انتهى

القول الثاني / في المال حقٌ سوى الزكاة من فك الأسير وإطعام المضطر وصلة القرابة والمواساة في العسر وإكرام الضيف ونحو ذلك جاء ذلك عن عمر وعليّ وأبي ذر وعائشة وابن عمر وأبي هريرة وابن عباس والحسن بن عليّ وفاطمة بنت قيس من الصحابة رضي الله عنهم . وهو قول الشعبي ومجاهد وطاووس وعطاء والحسن ومسروق وغيرهم من التابعين . واستدلوا بما يلي :

أولاً / قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ سورة البقرة فقد جعلت الآية من أركان البر وعناصره إيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .... إلخ ثم عطفت على ذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والعطف يقتضي المغايرة ، فدل على أن ذلك الإيتاء غير إيتاء الزكاة . لأن ذلك لو كان مالاً واحدًا لم يكن لتكريره معنى وهذا يتره عنه القران .

وأجيب بما يلي :

١- أن المراد في المال الأول الحث على التطوع لا الفريضة ثم ذكرت الفريضة بعد ذلك للجمع بين الحث على الفريضة والنافلة فمن أدى الفريضة فقد أدى الواجب ومن أتبعها النافلة فقد ترقى في المنازل العلية وَجُبِرَ له النقص في الفريضة .

٢- أن المال الأول هو الزكاة . والعطف لا يقتضي المغايرة كما في قوله تعالى﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ سورة البقرة فجبريل وميكال من الملائكة وقد عطفا على الملائكة فدل على أن العطف لا يلزم منه المغايرة فكذلك هاهنا .

٣- أنه منسوخ بالزكاة . قال الضحاك : نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن .

ورد عن الجواب الأول : بأن المذكور في الآية كله واجب فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس كلها واجبات فدل على أن الإيتاء المذكور أيضاً من الواجبات فبأي دليلٍ صُرِفَ عن الوجوب رغم دخوله في الآية التي تتكلم عن الواجبات .

ورد عن الجواب الثالث : بأن دعوى النسخ لا بد لها من دليل ، والآية خبرٌ عن صفة أهل البر والأخبار لا تنسخ .

ثانياً / قوله تعالى﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ من (١٤١) سورة الأنعام ووجه الدلالة أنه لا إسراف في الزكاة لأنها محدودة بتقدير الشارع ولذلك نقل عن بعض السلف أنه حقٌ سوى الزكاة قال بن عمر : كانوا يعطون شيئًا سوى الزكاة . وقال عطاء : يعطى من حضره يومئذٍ ما تيسر وليس بالزكاة . وقال مجاهد : إذا حضرت المساكين طرحت لهم منه . وقال : إذا حصد ألقى لهم من السنبل ، وإذا جز النخل ألقى لهم من الشماريخ ، فإذا كاله زكاه . وقال أيضًا : عند الزرع يعطي القبضة ، وعند الصرام يعطي القبضة ، ويتركهم يتتبعون آثار الصرام . وقال إبراهيم النخعي: يعطي مثل الضغث . وعن يزيد بن الأصم قال : كان النخل إذا صرم يجيء الرجل بالعذق من نخله فيعلقه في جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فإذا تناثر منه شيء أكل . وعن أبي العالية وسعيد بن جبير وعليّ بن الحسين والربيع بن أنس نحو قول هؤلاء . قال ابن كثير : وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة (ن)

وأجيب : بأن المراد الزكاة المفروضة . قال النحاس : وهو قول أنس بن مالك وعن الحسن مثله وهو قول جابر بن زيد وسعيد بن المسيب وقتادة وزيد بن أسلم وقيل هذا قول مالك والشافعي أيضاً .انتهى. وأما قوله تعالى ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ فهي معطوفة على قوله ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ لأن الإنفاق في سبيل الله لا يعتبر إسرافاً ولو أنفق ماله كله .

وقال سعيد بن جبير وإبراهيم والضحاك : هي منسوخة بالزكاة . نقله النحاس عنهم .

ثالثاً / قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله

عليه وسلم عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم . ذكره في الدر المنثور . وهو قول بن عباس وسعيد بن جبير .

ووجه الدلالة أن العارية واجبة لأن الذم لا يكون إلا على ترك واجب وهي غير الزكاة فدل على أن في المال حقاً سوى الزكاة .

وأجيب : بأنه قد ورد عن بعض السلف أن المراد بالماعون الزكاة المفروضة وهو مروي عن علي بن أبي طالب وبن عباس وزيد بن أسلم ومجاهد والضحاك وبن الحنفية ومالك بن أنس قال زيد : أولئك المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها وخفيت الزكاة فمنعوها . انتهى . أراد صلوها رياءً .

وعلى القول الأول فالوعيد على من جمع الثلاثة فقد قيل لعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئاً من المتاع كان له الويل؟ قال : لا ، ولكن من جمع ثلاثتهن فله الويل. يعني : التهاون بالصلاة والرياء والبخل بالماعون .

رابعاً / ما رواه الترمذي عن فاطمة بنت قيس مرفوعًا (في المال حق سوى الزكاة) رواه الترمذي وبن ماجة والطبري والدارمي والبيهقي

وأجيب : بأن الحديث ضعيف لأنه من رواية أبي حمزة ميمون الأعور وهو ضعيف جدًا عند أهل الحديث فلا يعول على ما رواه .

خامساً / ما جاءت به الأحاديث الصحاح من حقوق الإبل والخيل كحديث (ومن حقها حلبها يوم وردها..) رواه مسلم وعند النسائي (إطراق فحلها ، وإعارة دلوها ، وحمل عليها في سبيل الله) وعند الطبراني (أن يُنحر سمينها ويُطرق فحلها ويحلبها يوم وردها)

ووجه الدلالة الوعيد على ترك هذه الحقوق يدل على وجوبها وهي غير الزكاة فدل على أن في المال حقاً سوى الزكاة .

سادساً / حديث (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ قَالُوا وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ يومه وليلته وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ) متفق عليه وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلاَ يَقْرُونَنَا فَمَا تَرَى فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ) متفق عليه وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال (أيما ضيف نزل بقومٍ فأصبح الضيف محروماً فله أن يأخذ بقدر قراه ولا حرج عليه) رواه أحمد وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد . وقال صلى الله عليه وسلم (ليلة الضيف حق على كل مسلم فمن أصبح الضيف بفنائه فهو له عليه دين إن شاء اقتضى و إن شاء ترك) رواه أحمد وأبو داود وبن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٤٧٠)

ووجه الدلالة قول النبي صلى الله عليه وسلم (فما كان وراء ذلك فهو صدقة) يدل على أن الضيافة لثلاثة أيامٍ واجبة وكذا قوله (ليلة الضيف حق على كل مسلم) وكذلك الأذن للضيف بالأخذ من أموالهم بقدر قراه وهي عقوبة مالية على المضيف ولو كانت الضيافة غير واجبة لما عوقب بتركها فدل على أن في المال حقاً سوى الزكاة .

وأجيب : بأن هذا كان في أول الأمر لما لم يكن هناك بيت مالٍ للمسلمين وأما مع وجود بيت مال المسلمين فيعطون منه ولا حق لهم في أموال المسلمين .

ورد : بأنه قد يتعطل بيت مال المسلمين لسببٍ من الأسباب فهل يقال للضيف مت حتى يُنْصَبَ بيت مالٍ للمسلمين ثم الزكاة كانت موجودة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك لم يدخر منها للضيوف بل أمر بقرى الضيف على من نزل الضيف به .

قال الشوكاني في نيل الأوطار : الجمهور على أن الضيافة من مكارم الأخلاق ومحاسن الدين وليست واجبة ، خلافًا لليث بن سعد فإنه أوجبها ليلة واحدة . وحجة الجمهور ما جاء في الحديث المتفق عليه (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه جائزته... الحديث). فلفظ (جائزته) يدل على الاستحباب فإن الجائزة هي العطية والصلة التي أصلها على الندب ، وقلما يُستعمل هذا اللفظ في الواجب ، ومعنى الحديث : الاهتمام بالضيف في أول يومٍ وليلة وإتحافه بما يستطيع من برٍ وإلطاف كما استندوا أيضًا إلى الأحاديث القاضية بحرمة مال المسلم إلا بطيب نفسه ، والأحاديث الدالة على أن ليس في المال حق سوى الزكاة .

قال الشوكاني : والحق وجوب الضيافة لأمور :

الأول : إباحة العقوبة بأخذ المال لمن ترك ذلك ، وهذا لا يكون في غير واجب.

والثاني: التأكيد البالغ بجعل ذلك فرع الإيمان بالله واليوم الآخر .. ومعلوم أن فروع الإيمان مأمور بها.

والثالث : قوله (فما وراء ذلك فهو صدقة) فهو صريح أن ما قبل ذلك غير صدقة بل واجب شرعًا .

والرابع : قوله (ليلة الضيف حق واجب) فهذا تصريح بالوجوب ، لم يأت ما يدل على تأويله .انتهى

سابعاً / النصوص الكثيرة التي أوجبت التعاون والتكافل والتراحم بين المسلمين كقوله تعالى ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ من (٢٦) سورة الإسراء وقوله ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ سورة النساء وقول النبي صلى الله عليه وسلم (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) متفق

عليه وقال (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه و هو يعلم به) رواه البزار والطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٥٠٥)

وقيل أن ثمة مواضع يجب فيها بذل المال من غير الزكاة بالاتفاق ومنها :

(أ) حق الوالدين في النفقة إذا احتاجا وولدهما موسر ، لا نزاع فيه .

(ب) وحق القريب لا نزاع فيه كذلك من حيث المبدأ ، وإنما اختلفوا في درجة القرابة الموجبة للنفقة ما بين موسعٍ ومضيق .

(جـ) وحق المضطر إلى القوت أو الكساء أو المأوي في أن يغاث لا نزاع فيه . قال الجصاص في أحكام القرآن : إن المفروض إخراجه هو الزكاة إلا أنه تحدث أمور توجب المواساة والإعطاء ، نحو الجائع المضطر والعاري المضطر ، أو ميت ليس له من يكفنه أو يواريه .انتهى

ومثل ذلك المضطر إلى عارية الدلو والقدر والفأس ونحوها مما يدخل تحت اسم "الماعون" فدفع الضرر عن المسلم فرض كفايةٍ بالإجماع .

(د) وحق جماعة المسلمين في دفع ما ينوبهم من النوازل العامة التي تنزل بهم كصد خطر العدو واستنقاذ أسرى المسلمين من أيدي الكفار ، ومقاومة الأوبئة والمجاعات ونحوها ، فلا يخالف فقيه هنا في أن حق الجماعة مقدَّم على حق الفرد وأن وجوب المساهمة في هذه النوازل موضع إجماعٍ من علماء المسلمين . قال القرطبي في تفسيره : واتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة يجب صرف المال إليها ، ونقل ذلك مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم .انتهى . وقال القاضي أبو بكر بن العربي الفقيه المالكي في أحكام القرآن : وليس في المال حق سوى الزكاة وإذا وقع أداء الزكاة ونزلت بعد ذلك حاجة فإنه يجب صرف المال إليها باتفاقٍ من العلماء .انتهى

وإنما اختلفوا في حق الزرع والثمر عند الحصاد وحقوق المواشي من الإبل والبقر والغنم كحلبها يوم وردها وإطراق فحلها وإعارة دلوها وحمل عليها في سبيل الله وكذا حق الضيف وحق الماعون فهذه كلها في نظر أصحاب المذهب الثاني حقوق واجبة في المال يأثم المسلم إن قصر في أدائها ويستحق عقوبة الله على ذلك. وهي عند أصحاب المذهب الأول حقوق مندوبة ينال مثوبة الله إذا هو أداها ولا يأثم بتركها ما لم تكن هناك ضرورة إليها فتجب .

وبعد النظر في هذه الأقاويل تبين لي أن الراجح أن في المال حقاً سوى الزكاة كحق الوالدين والزوجة والأبناء والرقيق والبهائم وإنقاذ المضطر إلى طعامٍ أو شرابٍ أو كساء ونحو ذلك فكل هذه حقوقٌ واجبة بالإجماع وقد يمنعون تسميتها بالحقوق المالية وليس بشيء إذ لا يمكن القيام بها أو بأكثرها إلا بالمال فدلَّ على أن في المال حقاً سوى الزكاة .

قال السندي في شرح الترمذي عند حديث (إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك) قوله (ما عليك) أي من حقوق المال ، وهذا يقتضي أنه ليس عليه واجب مالي غير الزكاة وباقي الصدقات كلها تطوع ، وهو يشكل بصدقة الفطر والنفقات الواجبة ، إلا أن يقال الكلام في حقوق المال وليس شيءٌ من هذه الأشياء من حقوق المال بمعنى أنه يوجبه المال بل يوجبه أسباب أخر كالفطر والقرابة والزوجية وغير ذلك . انتهى.

وقال أبو الحسن المباركفوري في شرح مشكاة المصابيح عند شرح حديث الأعرابي الذي سأل عن شرائع الإسلام وعن الزكاة هل عليَّ غيرها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (لا، إلا أن تطوع) قيل: يعلم منه أنه ليس في المال حق سوى الزكاة بشروطها ، قال القاري : وهو ظاهر إن أريد به الحقوق الأصلية المتكررة تكررها وإلا فحقوق المال كثيرة كصدقة الفطر والنفقات الواجبة . قلت : الكلام في حقوق المال وليس شيءٌ من هذه الأشياء من حقوق المال بمعنى أنه يوجبه المال بل يوجبه أسباب أخر كالفطر والقرابة والزوجية وغير ذلك .انتهى

وقال ابن تيمية في تفسير (ليس في المال حق سوى الزكاة) قال : أي ليس فيه حقٌ يجب بسبب المال سوى الزكاة وإلا ففيه واجبات بغير سبب المال ، كما تجب النفقات للأقارب والزوجة والرقيق والبهائم ، ويجب حمل العاقلة ، وقضاء الديون ، ويجب الإعطاء في النائبة ، ويجب إطعام الجائع وكسوة العاري فرضًا على الكفاية ، إلى غير ذلك من الواجبات المالية ، لكن بسببٍ عارض والمال شرط وجوبها كالاستطاعة في الحج فإن البدن سبب الوجوب والاستطاعة شرط والمال في الزكاة هو السبب والوجوب معه حتى لو لم يكن في بلده من يستحقها حملها إلى بلد أخرى وهي حق وجب لله تعالى .انتهى

فتبين أنهم يوجبونها ولكن لا يسمونها حقوق مالية ، قالوا لأنه ليس سبب وجوبها المال مثل الزكاة فالزكاة تجب في المال نفسه إذا بلغ نصاباً وهذه لا تجب في المال نفسه ولكن تجب بسبب الزوجية والقرابة وحمل العاقلة ...الخ

فنقول لهم : إنما وجبت عليه لأن عنده مال ، ولو لم يكن عنده مال لم تجب عليه ، فكان وجوبها بسبب وجود المال فكانت حقاً في المال .

﴿ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ السائل : هو الفقير الذي يتعرض لسؤال الناس وهذا بالاتفاق .

والمحروم : هو الفقير المتعفف الذي لا يسأل الناس ، وهذا قول قتادة والزهري .

وقيل : هو المحارف وهو قول بن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد والضحاك وعطاء وإبراهيم وعكرمة ونافع والشافعي . والمحارف هو الذي يتحرف ولكن لا يكسب شيئاً ، فمن رآه يتحرف ظن أنه متكسب فلم يعطه شيئاً ، وهو متعففٌ لا يسأل الناس ، فهذا هو المحروم . قال بن عباسٍ : المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه فلا يسأل الناس . وقال عكرمة : الذي لا ينمي له مال . وقال إبراهيم : هو المحارف الذي ليس له أحد يعطف عليه أو يعطيه شيئاً . وقال الشافعي:

المحروم المحارف الذي يحترف بيديه قد حرم سهمه من الغنيمة لا يغزو مع المسلمين ، فبقي محرومًا ، وما يعطى من الصدقة ما يسد حرمانه .انتهى.

وقيل المحروم هو الذي اصابته جائحة ، فعن أبي قلابة رحمه الله قال : جاء سيلٌ باليمامة فذهب بمال رجل فقال رجلٌ من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : هذا المحروم . وقال ابن زيد : المحروم هو المصاب ثمره وزرعه وقرأ ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ سورة الواقعة وقال أصحاب الجنة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة القلم وقال الضحاك : هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب ، قضى الله له ذلك .

وقال مالك : هو الذي يحرم الرزق . ذكره القرطبي وقال : هذا قولٌ حسن ، لأنه يعم جميع الأقوال .انتهى.

وتوقف آخرون فعن أبي بشر قال : سألت سعيد بن جبير عن المحروم فلم يقل فيه شيئاً . وقال الشعبيّ : أعياني أن أعلم ما المحروم . ذكر ذلك الطبري وقال القرطبي : قال الشعبي : لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ .انتهى.

والصحيح الجمع بين الأقوال وهو فعل الطبري لأن المقصود أنه فقيرٌ متعفف سواءً كان فقره بعدم توفيقه في التجارة أو بسبب جائحة وهو لا يسأل الناس ولا يأخذ من الغنيمة ولا من بيت المال . والعلم عند الله تعالى.

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ ﴾ من الجبال والسهول والبحار والشجر والدواب وغيرها ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الذين ايقنوا أن وعد الله حق . قال قتادة : معتبر لمن اعتبر.

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أيضاً آيات كثيرة منها اختلاف ألسنتكم وألوانكم ومداركم وأعماركم وكيف خلقتم من تراب ثم من ماءٍ مهين ثم من علقة ثم من مضغة ثم العظام ثم تكسى العظام لحماً ثم يكسى اللحم جلداً ، والطفل يتغذى في بطن أمه حتى إذا اكتمل خلقه أخرجه الله من بطن أمه إلى الأرض ثم حنن له قلب الأبوين وجعل له من صدر أمه سقاءً حتى إذا اشتد ساعده وقوي عوده قال لله صاحبةً وولدا أو شريكاً أو ظهيراً أو معيناً أو مشيرا تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا .

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ تنظرون نظر تفكرٍ واعتبار .

عن علي بن أبي طالب وبن الزبير رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ قالا : سبيل الغائط والبول . وقال السدي : فيما يدخل من طعامكم وما يخرج . وقال غيره : طعامكم وشرابكم يدخل من مدخلٍ واحد ويخرج من مخرجين . وقال قتادة : من تفكر في خلقه علم أنما لينت مفاصله للعبادة.

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ ﴾ اختلف في تفسيرها على قولين :

الأول : عند الله الذي في السماء رزقكم . وهو قول سفيان الثوري وابن كيسان وواصل الأحدب .

الثاني : أن السماء بمعنى المطر وسمي المطر سماءً لأنه ينزل من السماء قال معاوية بن مالك :

إذا سقط السماء بأرض قومٍ ... رعيناه وإن كانوا غضابا أي المطر .

وهو قول مجاهد وسفيان بن عيينة والضحاك . وقال سعيد بن جبير : المطر والثلج . وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم .

والثاني يدخل في الأول فإن المطر من أرزاق الله التي ينزلها على عباده .

وأنشد القرطبي لبعضهم قوله :

لو كان في صخرةٍ في البحر راسية ... صماً ململمةً ملساً نواحيها

رزق لـــنفس براها الله لانفلقت ... حتى تؤدي إليها كل ما فيها

أو كان بين طباق السبع مسلكها ... لسهل الله في المرقى مراقيها

حتى تنال الذي في اللوح خط لها ... إن لم تنله وإلا سوف يأتيها

وأجمل من هذا قول العبد الصالح لابنه ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة لقمان

﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ قال بن سيرين والربيع : ما توعدون من أمر الساعة . وقال سفيان بن عيينة والضحاك : الجنة والنار وقال مجاهد : ما توعدون من خيرٍ وشر . ورجح الطبري قول مجاهد لعموم اللفظ .

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾ أقسم الرب جل وعلا بنفسه العلية أن ما أخبر به حق . قال مقاتل : أي كائن أي أمر الساعة . وقال بن جريج : كل شيء ذكره في هذه السورة . ﴿ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ قال مقاتل : مثل ما أنكم تتكلمون . وقال بن جرير : يقول تعالى ذكره مقسماً لخلقه بنفسه ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ إن الذي قلت لكم أيها الناس إن في السماء رزقكم وما توعدون لحقٌ كما حقٌ أنكم تنطقون . انتهى.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ ألم يأتك يا محمد قصة وخبر ضيوف إبراهيم عليه السلام حين جاءوه فأكرمهم . قال القرطبي ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ أي ألم يأتك . وقيل ﴿ هَلْ ﴾ بمعنى قد كقوله تعالى ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ من (١) سورة الإنسان .انتهى. ﴿ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ قال مجاهد خدمته إياهم بنفسه وقال : أكرمهم إبراهيم بالعجل . وقيل المكرمين عند الله كقوله تعالى ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ من (٢٦) سورة الأنبياء وقوله ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة عبس والضيف هنا اسم جنس والمراد به الضيوف وكانوا ثلاثة وقيل أكثر من ذلك . ويدل على أنهم جمع الآية التي تليها وهي قوله تعالى ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ بالجمع وقوله ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أي غرباء غير معروفين ، ولم يعلم إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة وهذا يدل على أن الأنبياء لا يعلمون الغيب خلافاً لما يدعيه بعض الجهلة من الصوفية وغيرهم أن الأنبياء يعلمون الغيب ، وقيل أنكرهم لما ردوا السلام ولم يكن رسم سلام الإسلام في بلده . قال القرطبي : قال أبو العالية : أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض .انتهى

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ ذهب في سرعةٍ وخفية إلى أهله فجاء لأضيافه بعجلٍ سمينٍ مشويٍ على المحنذ كما قال تعالى ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ من (٦٩) سورة هود قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم البقر.

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ تأدبٌ في التقديم وتأدبٌ في العرض على الضيف ، وقيل في الكلام متروكٌ استغني عنه بدلالة الظاهر عليه والمعنى فقربه إليهم فأمسكوا عن أكله فقال ألا تأكلون . وقال بن كثير : هذه الآية انتظمت آداب الضيافة ؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعةٍ وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجلٌ فتيٌ سمينٌ مشوي ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ لم يضعه وقال: اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل .انتهى.

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أضمر الخوف منهم في نفسه لما امتنعوا عن أكل طعامه ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ ﴾. أدركوا أنه خاف منهم ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾. إسحاق . وقال مجاهد : هو إسماعيل . وهو خطأ لا شك فيه فإن البشرى لسآره وإسماعيل هو ابن هاجر . وقد جاء النص في القران أنه إسحاق في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ سورة هود

﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ قال بن عباس ومجاهد ومقاتل : في صيحة . ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ قال بن عباس : لطمت . يعني وجهها . وقال مجاهد : ضربت بيدها على جبهتها وقالت : يا ويلتاه . وقال مقاتل : فضربت بيدها جبينها أو خدها تعجباً . ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ تعجبت كيف تلد وهي بهذه الحالة عجوزٌ كبيرة السن قد بلغت سن الإياس وهي مع ذلك عقيم لا تلد . عن الضحاك أنه سئل عن عجوز عقيم وعن الريح العقيم وعن عذاب يوم عقيم فقال : العجوز العقيم التي لا ولد لها ، وأما الريح العقيم فالتي لا بركة فيها ولا منفعة ولا تلقح ، وأما عذاب يوم عقيم فيوم لا ليلة له .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ قال الملائكة لها ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ قال مقاتل : أي قال ربك ستلدين غلاماً . ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحكيم في تدبيره ، العليم بمصالح عباده وأقداره فيهم . قال القرطبي : كان بين البشارة والولادة سنة ، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك ، فولدت وهي بنت تسعٍ وتسعين سنة ، وابراهيم يومئذٍ ابن مائة سنة .انتهى.

ولما ذهب عن إبراهيم عليه السلام الخوف وجاءته البشرى بالولد وعلم أنهم ملائكة وأن الملائكة لا ينزلون إلا بأمر الله لأمرٍ يريده الله في عباده سألهم ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ قال مقاتل : يعني ما أمركم .

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ قال مقاتل : يعني كفاراً ظلمة يعنون قوم لوط .

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ طُبِخَ حتى اشتد كالآجر قاله بن زيد كقوله تعالى ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ سورة الحجر والسجيل عند العرب كل شديد صلب. قال الضحاك : يعني الآجر.

وقيل إن أصل الحجارة من طين فتحولت مع السنين إلى حجر فأراد أن يميز بينها وبين حجارة الماء التي هي البرد . يعني لنرسل عليهم حجارةً من التي كان أصلها طيناً وليست من التي كان أصلها ماءً . لكن هذا غريب يحتاج إلى دليل .

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي جعل الله على كل حجرٍ علامة مختصةً بكل شخصٍ منهم أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي وأعظمها الشرك والفاحشة التي كانوا يعملونها . قال مقاتل ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ : معلمة . قال القرطبي : قيل: كانت مخططة بسوادٍ وبياض ، وقيل: بسوادٍ وحمرة ، وقيل ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ أي معروفة بأنها حجارة العذاب ، وقيل: على كل حجرٍ أسم من يهلك به ، وقيل: عليها أمثال الخواتيم .انتهى ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ دليل على أنها ليست من جنس حجارة الأرض ولكنها نوعٌ آخر هي عذابٌ شديد . أو قد وضعت عليها العلامات ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ من قبل أن تنزل على المسرفين . ﴿ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ من الإسراف وهو مجاوزة الحد . فقد تجاوزوا الحدود التي وضعها الله لعبادة فأشركوا وارتكبوا الفواحش . قال مقاتل : أي المشركين والشرك أسرف الذنوب وأعظمها .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي أهل بيت . قال مجاهد : لوط وابنتيه . وقال مقاتل: لوط وابنتيه ريثا الكبرى وزعونا الصغرى . وقال قتادة : لو كان فيها أكثر من ذلك لنجاهم الله ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أبقينا فيها علامةً تدل على ما حل بهم لأجل أن يتعظ من يخاف عذاب الله الأليم . وقد تكون الآية خبرهم في القران وأنه بقيت قصتهم تتلى في القران إلى قيام الساعة عظةً وعبرة ، أو الآية فيما يتداوله العرب والناس من أخبارهم . ويمكن أن يكون البحر الميت هو العلامة . أو ما تسمى ببحيرة قوم لوط . قال بن كثير : وجعلنا محلتهم بحيرةً منتنةً خبيثة .انتهى. وقال بن جريج : ترك فيها صخراً منضودا . وقال القرطبي : قيل : الآية المتروكة نفس القرية الخربة . وقيل : الحجارة المنضودة التي رجموا بها .انتهى . وبالجملة فقد كان خبر قوم لوط ومكانهم وما حل بهم معلوماً للعرب كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ سورة الصافات

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي وتركنا في قصة موسى عليه السلام أيضاً آية حين أرسلناه إلى فرعون ملك مصر في زمانه بالحجة الواضحة .

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ فأعرض فرعون عن قبول الحق وتبعه قومه وحاشيته وجنده وظن أنهم يمنعونه من الله وقال عن رسول الله موسى عليه السلام هو ساحر أو مجنون . قال بن عباسٍ وقتادة ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي بقومه . وقال مجاهد : بعضده وأصحابه. وقال بن زيد : بجموعه التي معه . وقال بن جرير : أصل الركن الجانب والناحية التي يعتمد عليها ويقوى بها .

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ فأخذنا فرعون وجنوده الذين اتبعوه على الباطل وكان يلوذ بهم فطرحناهم في اليم ، واليم البحر . ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ الضمير يعود على فرعون أي وفرعون مليم أي أتى ما يلام عليه ، ثم الذين يلومونه قد يكونون هم اتباعه حين عاينوا عذاب الله وعلموا أنه قد أوقعهم في الهلاك . وقال قتادة : مليم في عباد الله قال بن جرير : فأخذنا فرعون وجنوده بالغضب منا والأسف فألقيناهم في البحر فغرقناهم فيه وفرعون مليم والمليم هو الذي قد أتى ما يلام عليه من الفعل . انتهى . وقال بن كثير ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ وهو ملومٌ كافرٌ جاحدٌ فاجرٌ معاند .انتهى.

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ أي وتركنا في عادٍ أيضاً وهم قوم هود عليه السلام آية حين عذبناهم لكفرهم فأرسلنا عليهم الريح العقيم . قال بن عباس : الريح العقيم التي لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب . وعنه : ريحٌ

لا بركة فيها ولا منفعة ولا يترل منها غيث ولا يلقح منها شجر. وقال مقاتل : التي تهلك ولا تلقح الشجر ولا تثير السحاب. وهي عذابٌ على من أرسلت عليه .

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ ﴾ ما تترك من شيءٍ مرت عليه . قال مقاتل : من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم ﴿ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ قال بن عباس ومجاهد : كالشيء الهالك . وقال قتادة :كرميم الشجر . وقال بن جرير : الرميم في كلام العرب ما يبس من نبات الأرض وديس . انتهى وقال القرطبي : يقال للنبت إذا يبس وتفتت : رميم وهشيم .انتهى

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي وتركنا في ثمود وهم قوم صالح عليه السلام آية حين قيل لهم تمتعوا بخيرات الله في هذه الأرض إلى وقت آجالكم .قال بن جرير : إلى وقت فناء آجالكم . وقال قتادة : ثلاثة أيام . وليس بصحيح لأن الثلاثة أيام كانت زمن انتظار العذاب بعد العتو وهذا قبله .

﴿ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ ﴾ قال مجاهد : علوا . وقال مقاتل : فعصوا . وقال بن زيد : العاتي العاصي التارك لأمر الله . ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ أي العذاب المهلك كما قال تعالى ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾سورة فصلت قال السدي : عذابٌ مثل عذاب عادٍ وثمود . وقال البغوي : أي هلاكاً مثل هلاكهم . والصاعقة المهلكة من كل شيء .انتهى قال مقاتل﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ العذاب وهو الموت من صيحة جبريل عليه السلام . وقال القرطبي : أي الموت. وقيل: هي كل عذاب مهلك. قال الحسين بن واقد: كل صاعقة في القرآن فهو العذاب. وقرا عمر بن الخطاب وحميد وابن محيصن ومجاهد والكسائي (الصعقة) يقال صعق الرجل صعقةً وتصعاقاً أي غشي عليه . وصعقتهم السماء أي ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب .انتهى وقال الطبري : أَصْلُ الصَّاعِقَةِ : كُلُّ أَمْرٍ هَائِلٍ من رَآهُ أَوْ عَايَنَهُ أَوْ أَصَابَهُ حَتَّى يَصِيرَ مِنْ هَوْلِهِ وَعَظِيمِ شَأْنِهِ إِلَى هَلاَكٍ وَعَطَبٍ . أو إِلَى ذَهَابِ عَقْلٍ وَغُمُورِ فَهْمٍ ، أَوْ فَقْدِ بَعْضِ آلاَتِ الْجِسْمِ ، صَوْتًا كَانَ ذَلِكَ ، أَوْ نَارًا ، أَوْ زَلْزَلَةً ، أَوْ رَجْفًا .انتهى

﴿ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ قال مجاهد: فجأة . وقال : وهم ينتظرون . قيل لأنهم قد وعدوا بالعذاب بعد ثلاث ليال فبقوا ينتظرونه حتى حلَّ بهم فجأة . فلعل من أيقن بالعذاب منهم كان ينتظر أن يترل عليهم المطر فيغرقهم كقوم نوح أو ترسل عليهم ريحاً فتهلكهم كعاد لكن الصيحة لم تكن في حسبانهم فكانت لهم فجأة .

﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ قال قتادة : ما استطاع القوم نهوضاً لعقوبة الله . وقال بن جريج : لم يستطيعوا أن ينهضوا بعقوبة الله إذ نزلت بهم . ﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾. قال قتادة : ما كانت عندهم من قوةٍ يمتنعون بها من الله عز وجل وقال بن جريج : لم يستطيعوا امتناعاً من أمر الله . وقال بن جرير : وما كانوا قادرين على أن يستقيدوا ممن أحل بهم العقوبة .انتهى أي أنهم لم يستطيعوا ردَّ العذاب بأنفسهم ولا بالانتصار بغيرهم . قال القرطبي ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾:

قيل معناه من نهوض. وقيل: ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم ، تقول: لا أقوم لهذا الامر أي لا أطيقه. وقال بن عباس: أي ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب.﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي ممتنعين من العذاب حين أهلكوا ، أي ما كان لهم ناصر .انتهى وقال الشوكاني ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ ﴾: عجزوا عن القيام فضلاً عن الهرب .﴿ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي : ممتنعين من عذاب الله بغيرهم .انتهى

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ يعني وقوم نوحٍ عليه السلام أهلكناهم قبل عادٍ وثمود وفرعون لأنهم كانوا عاصين خارجين عن طاعة الله بالشرك والكفر . وذكر بن جرير أن القراء اختلفوا في هذه الآية فقرأ عامة قراء الكوفة والبصرة (وقومِ نوح) بخفض القوم على معنى وفي قومِ نوح عطفاً بالقوم على موسى في قوله ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ قال : وتأويل ذلك : وفي قومِ نوحٍ لهم أيضاً عبرة إذ أهلكناهم من قبل ثمود لمّا كذبوا رسولنا نوحاً . قال : وقرأ ذلك عامة قرأة المدينة وبعض قرأة الكوفة ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ نصباً ولنصب ذلك وجوه أحدها أن يكون القوم عطفاً على الهاء والميم في قوله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ إذ كان كل عذابٍ مهلك تسميه العرب صاعقة فيكون معنى الكلام حينئذٍ : فأخذتهم الصاعقة وأخذت قومَ نوحٍ من قبل . والثاني أن يكون منصوباً بمعنى الكلام إذ كان فيما مضى من أخبار الأمم قبل دلالة على المراد من الكلام وأن معناه : أهلكنا هذه الأمم وأهلكنا قومَ نوحٍ من قبل . والثالث : أن يضمر له فعلاً ناصباً فيكون معنى الكلام واذكر لهم قومَ نوحٍ كما قال ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾من (١٦) سورة العنكبوت ونحو ذلك بمعنى أخبرهم واذكر لهم . قال : والصواب أنهما قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب .انتهى

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد وقتادة وبن زيد وسفيان ومنصور : بقوة . من آد يئيد أيداً . أي قوةً ومنه قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾سورة ص أي أولوا القوة والبصيرة . وليس المراد اليد وإنما المعنى إما بنيناها قويةً متينة ، وإما أن يكون المعنى بنيناها ونحن ذو قوةٍ على بنيانها وبنيان ما نشاء أن نبنيه .

﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ اختلف فيها على أربعة أقوال :

الأول / أي قادرون على بنائها وتوسعتها ، من السَّعَةِ وهو الطاقة والقدرة والغنى كما قال تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾من (٢٨٦) سورة البقرة أي طاقتها وقدرتها . وقوله ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ من (٧) سورة الطلاق أي ذو قدرة وغنى . قال بن عباس ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي لقادرون . وقال مقاتل : يعني نحن قادرون على أن نوسعها كما نريد . وقال بن جريج : لنخلق سماءً مثلها . وقال بن جرير : وإنا لذو سعةٍ بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه وقدرةٍ عليه ، ومنه قوله ﴿ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾ من (٢٣٦) سورة البقرة يريد به القوي .انتهى . وقد قيل أن الله جل وعلا أراد أن يبين

للناس قدرته على البعث وإعادة الخلق وأن القادر على خلق هذه السماء بهذه الصورة العجيبة قادرٌ على إعادة خلقها في الدار الآخرة فكيف بالإنسان الضعيف كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَـٰدِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ من (٩٩) سورة الإسراء قال الرازي : ويحتمل أن يقال بأن ذلك حينئذٍ إشارةً إلى المقصود الآخر وهو الحشر كأنه يقول: بنينا السماء ، وإنا لقادرون على أن نخلق أمثالها ، كما في قوله تعالى ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾سورة يس .انتهى

الثاني / أي موسعون حجمها ، يعني حين خلقناها جعلناها متسعة الحجم . قال بن زيد : أوسعها جل جلاله . وقال بن كثير : أي : قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمدٍ حتى استقلت كما هي .انتهى

الثالث / أي موسعون الرزق على خلقنا ، وهو مرويٌ عن بن عباسٍ والحسن والضحاك .

الرابع / أي جعلنا بينها وبين الأرض سعة . ذكره القرطبي .

ولا مانع من حمل اللفظ على جميع هذه المعاني لأن اللفظ يحتملها وليس بينها تضاد . وقد ذكر أهل التفسير أن اللفظ إذا احتمل أكثر من معنى وليس بينها تضاد ولا في أحدها ما يخالف الدين وأمكن حملها على الجميع أنه يحمل عليها جميعاً .

وأما ما يذكره بعضهم من نظرية الانفجار الكبير للكون وأنه بدأ صغيراً ثم اتسع حتى بلغ ما بلغ الآن وما زال في اتساعٍ مستمر حتى يبلغ غايةً ثم يعود يضيق حتى ينعدم ويستدلون على اتساع الأكوان بهذه الآية لأنه يلزم من اتساع الكون اتساع السماء التي تحوي هذا الكون فكل هذا من الخزعبلات التي لا يلتفت إليها ولا يفسر بها كلام الله جل وعلا ، بل هي أقرب إلى أقوال الزنادقة الملاحدة الذين لا يؤمنون بخالقٍ خلق الكون على هذه الصورة .

تنبيه : اختلف المفسرون في لفظ الضحاك فقال القرطبي : قال الضحاك : أغنياكم . وقال البغوي : قال الضحاك : أغنياء . فعلى ما قاله القرطبي يدخل قول الضحاك في القول الثالث هنا ، وعلى ما قاله البغوي يدخل قول الضحاك في القول الأول أي أغنياء قادرون على أن نخلق مثل هذه السماوات وما شئنا أن نخلقه لغنانا وقدرتنا . فإن المخلوق قد يكون قادراً جسدياً على البناء لكن ينقصه المال ليتم به أغراض البناء ، لكن الله جل وعلا غنيٌ قادر . وهذا الذي فسر به الطبري الآية فإنه قال : وإنا لذو سعةٍ بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه وقدرةٍ عليه .انتهى وإنما قلنا أنه يدخل في القول الأول وهو لقادرون لأن القدرة التامة تتضمن الغنى ، وإذا قيل فلانٌ قادر على أن يفعل كذا . فإنه يشمل القدرة الجسدية على العمل وعلى الامتناع من المعارضين له ويشمل القدرة المالية ونحو ذلك .

ويمكن أن يكون قول الضحاك على رواية البغوي قولاً خامساً ويكون المعنى : وإنا لذو غنىً . فيكون امتداحٌ من الرب جل وعلا لنفسه العلية بأنه في غنىً عن هذه المخلوقات وهذه السماوات لكنه خلقها بهذه القوة لحكمة . لكن هذا القول وإن كان صحيحاً في معناه لكن لم أجد أحداً من المفسرين فسر به هذه الآية فيما اطلعت عليه من تفاسيرهم فلعلهم رأوا أن قول

الضحاك لا يحتمل هذا المعنى أو أن البغوي رحمه الله روى لفظ الضحاك بالمعنى فأخطأ ولذلك نتوقف عن هذا القول ولا نجعله معنىً للآية لأن التفسير عظيم وخطير فإنك تنسب للرب جل وعلا أنه أراد بقوله هذا المعنى فتشرع شريعةً في العقائد أو الأحكام بذلك انتبهت أو لم تنتبه ، فإن لم يكن لتفسيرك مستنداً تستند عليه من أقوال السلف وأهل العلم الراسخين في العلم وأهل اللغة فإنك لن تجد للسؤال عن مصدر تفسيرك يوم القيامة جواباً فتحمل وزرك ووزر من أضللت بقولك .

﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا ﴾ أي بسطناها كالفراش ليستقر عليها الخلق ﴿ فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ أي نعم نحن الماهدون لها أي المهيئون لها . أي : أن الله جل وعلا يثني على نفسه العلية بحسن تمهيد الأرض وتسويتها ليقتدي به عباده في الثناء عليه بما هيأه لهم في الأرض . أو يكون المعنى فنعم مهادنا لها أي نعم ما هيأنا لهم فيها يعني من تيسير السبل ومن الخيرات والأرزاق . فهو ثناءً على ما أكنه الله في هذه الأرض مما يجعلها صالحةً للمخلوقات للاستقرار عليها . وبالجملة فالثناء يعود على من خلقها على هذه الصورة وأودع فيها من الخيرات ما يجعلها مهيأةً للعيش على ظهرها .

قال ابن عباس: نعم ما وَطَّأتُ لعبادي . وقال الطبراني : الْمَاهِدُ في اللغة : هو الْمُوَطِّبُ للشَّيءِ الْمُهَيِّءُ لِمَا يصلحُ الاستقرارُ عليه .انتهى. وقال القرطبي : مهدت الفراش مهداً بسطته ووطأته ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها .انتهى

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ قال مجاهد : الكفر والإيمان والشقاء والسعادة والهدى والضلالة والليل والنهار والسماء والأرض والجن والإنس والبر والبحر والشمس والقمر وبكرة وعشية ونحو هذا كله . وقال مقاتل : يعني صنفين يعني الليل والنهار والدنيا والآخرة والشمس والقمر والبر والبحر والشتاء والصيف والبرد والحر والسهل والجبل والسبخة والعذبة . وقيل المراد بالزوجين الذكر والأنثى وهو قول بن زيد ورجح الطبري الأول لدلالته على كمال قدرة الله جل وعلا على فعل كلّ ما شاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة . وأما من يفعل شيئاً ولا يستطيع فعل الضد له فلا يوصف بالكمال كالنار التي شأنها التسخين ولا تصلح للتبريد أو الثلج الذي شأنه التبريد ولا يصلح للتسخين فلا يوصفا بالكمال . وإنما قيل لها زوجين لأن الله تعالى خلق لكلّ ما خلق من خلقه ثانياً له مخالفاً في معناه ، فكلّ واحدٍ منهما زوجٌ للآخر .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ قال مقاتل : فيما خلق أنه ليس له عدلٌ ولا مثيل ، فتوحدونه . وقال الطبري : لتذكروا وتعتبروا بذلك فتعلموا أيها المشركون بالله أن ربكم الذي يستوجب عليكم العبادة هو الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه وابتداع زوجين من كلّ شيء لا ما لا يقدر على ذلك .انتهى.

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي اهربوا إلى الله . قال مقاتل : من ذنوبكم . وقال الطبري : اهربوا أيها الناس من عقاب الله إلى رحمته بالإيمان به ، واتباع أمره ، والعمل بطاعته .انتهى وكل شيءٍ إذا خفته فررت منه إلا الله فإنه لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه .

﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ قد يكون المعنى إنه أرسلني إليكم نذيراً كقوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا

﴿ وَنَذِيرًا ﴾ من (١١٩) سورة البقرة وقد يكون المعنى إني أنذركم منه أي أحذركم وأخوفكم بطشه وعذابه . وقوله ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي أبين لكم النذارة فأبين لكم ما صنع بالأمم المكذبة في الدنيا وما سيصنع بالكافرين في الدار الآخرة .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾ احذروا من الشرك بالله ، فإن الله أرسلني إليكم أنذركم من عقوبة الله لمن أشرك به . وأبين لكم تلك العقوبة .

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ يخبر تعالى عن حال الأمم المكذبة من قبل كفار قريش أن كل أمةٍ تقول لرسولها ساحرٌ أو مجنون كما قال مشركوا قريشٍ لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ هل أوصى هؤلاء المشركون بعضهم بعضاً بهذه المقولة لرسلهم ؟ أم هو من طغيانهم وتجاوزهم للحدود ، فلم يجدوا عذراً يصفون به أنبياء الله ورسله إلا هذه المقولة الفاجرة . والسؤال للتوبيخ لا للاستفهام . قال قتادة : أوصى الأول الآخر منهم بالتكذيب . وقال مقاتل : أوصى الأول الآخر ان يقولوا ذلك لرسلهم. وقال الطبري في قوله تعالى ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ ما أوصى هؤلاء المشركون آخرهم بذلك ، ولكنهم قوم متعدّون طغاة عن أمر ربهم ، لا يأتمرون لأمره ، ولا ينتهون عما نهاهم عنه .انتهى.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي أعرض عنهم ولست بملامٍ على ذلك فقد بلغت وأنذرت . وهذا من باب التهديد والوعيد . قال مقاتل : يعني فأعرض عنهم فقد بلغت وأعذرت . وقال بن عباسٍ : أمره الله أن يتولى عنهم ليعذبهم . يعني الكافرين . ولكن الصحابة خافوا من ذلك ، فعن عليٍ قال : لما نزلت ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة إذ أمر النَّبيّ صلى الله عليه وسلم بالتولي عنا فنزلت ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ فطابت أنفسنا . وعنه رضي الله عنه قال : ما نزلت علينا آيةٌ كانت أشد علينا منها ولا أعظم علينا منها فقلنا : ما هذا إلا من سخطةٍ أو مقت حتى نزلت ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ قال: ذكر بالقرآن . وعن سلمان المحاربي قال : من وجد للذكرى في قلبه موقعاً فليعلم أنه مؤمن قال الله ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية على أقوال :

الأول / خلقتهم لأجل أن يعبدون . أي يفردوني بالعبادة ويوحدوني . قال بن كثير : أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي .انتهى قال الربيع بن أنس : إلا للعبادة . وقال أبو صالح ومقاتل ومحمد بن عبد الوهاب : إلا ليوحدون . وعلى هذا المعنى يكون فيه كلامٌ محذوف يدل عليه السياق وهو (فمنهم من قام بالعبادة ومنهم من أعرض) قال بن كثير : ومعنى الآية : أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب .انتهى

والثاني / ليقروا بالعبودة طوعاً وكرهاً وهو قول بن عباسٍ وقال زيد بن أسلم : ما جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ . وعلى هذا يكون المعنى إلا ليتذللوا لأمري وقضائي . وهي العبودية الكونية القدرية لا الشرعية فإن الخلق كلهم عبادٌ لله بهذا المعنى يجري فيهم أمره وحكمه شاءوا أم أبوا . فقدره نافذٌ فيهم لا يستطيعون دفعه . قال النبي صلى الله عليه وسلم (ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ) قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟ قَالَ (اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ) رواه البخاري

والثالث : إلا ليعبدني من عبدني منهم . وهو قول ثعلب : وقال سفيان : من خُلِقَ للعبادة . وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون .

ولعل الأول هو الراجح لأن القران نزل ليعمل به فبين الله لعباده ما خلقهم لأجله وهو إفراده بالعبادة ليعملوا بذلك ، وأما القدر فليس في مقدور الناس أن يغيروا فيه شيئاً .

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ يرزقونه الخلق . ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ أحداً من الخلق . وهو قول مقاتل وبن جرير .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ للخلق ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ﴾ قال مقاتل : ذو البطش . ﴿ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ قال بن عباس ومقاتل : الشديد

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾ قال بن عباس والحسن : دلواً مثل دلو أصحابهم . وقال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وبن زيد : سجلاً من العذاب . وعن بن عباسٍ وقتادة وطلحة بن عمرو : عذاباً مثل عذاب أصحابهم . قال الفراء : الذنوب في كلام العرب : الدلو العظيمة ، ولكن العرب تذهب بها إلى النصيب والحظ .انتهى. وقال الطبري : هي الدلو العظيمة ، وهو السجل أيضاً إذا مُلئت أو قاربت الملء ، وإنما أريد بالذنوب في هذا الموضع : الحظّ والنصيب . قال : ومعنى الكلام : فإن للذين ظلموا من عذاب الله نصيباً وحظاً نازلاً بهم مثل نصيب أصحابهم الذين مضوا من قبلهم من الأمم .انتهى وقال مقاتل﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ يعني مشركي مكة . ﴿ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾ يعني نصيباً من العذاب في الدنيا ، مثل نصيب أصحابهم في الشرك ، يعني الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا .﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾ تكذيباً به .فإنه آتيهم . وقد أصاب مشركي مكة أنواعاً من العذاب منها القحط والدخان والقتل يوم بدرٍ وغيرها ولعذاب الآخرة أكبر . انتهى.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ برهم ﴿ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ يوم القيامة الذي يوعدون العذاب الأكبر فيه . ويمكن أن يشمل التهديد يوم العذاب عليهم في الدنيا فإن عذاب الله شديد لا يطاق لا في الدنيا ولا في الآخرة .

أولاً /فضل الصحابة الكرام وحرصهم على تعليم الناس القران وتفسيره قال علي بن أبي طالب لا تسألوني عن آية ولا عن سنة إلا أخبرتكم ، وكذلك منع الصحابة من التفسير بالرأي كما فعل عمر بن الخطاب مع صبيغ بن عسلة الذي كان يضرب النصوص بعضها من بعض ويسأل سؤال العناد والتعنت فضربه عمر ومنع الناس من مجالسته حتى تأدب وترك تلك العادة وما فعل عمر ذلك إلا صيانةً للكتاب العزيز .

ثانياً / أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله تعالى لحديث (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) وحديث (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) .

ثالثاً / خطر الكذب وخاصة الكذب على الله وعلى رسوله كما قال تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ أي لعن الكذابون الذين يتخرصون الكذب على الله وعلى رسوله وقال النبي صلى الله عليه وسلم (من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) فهذا الكذب على رسول الله فكيف بالكذب على الله تعالى لا شك أنه أعظم وأخطر)

رابعاً / أن الكفار في غمرة أي غطاء وغفلة ساهون في هذه الدنيا باللهو والترف غافلون عن أمر الآخرة ، فينبغي على المؤمن ألا يكون مثلهم بل يكون يقظاً حذراً من الذنوب والمعاصي ومما يبعده عن ربه ، حريصاً على أداء الفرائض والواجبات وما يقربه من ربه وينجيه من عذابه يوم القيامة.

خامساً / فضل قيام الليل وأن الصالحين كانوا يقومون الليل بالصلاة والعبادة فإذا أقبل السحر استغفروا الله من تقصيرهم في عبادته وذلك لتمام إيمانهم ومعرفتهم بربهم وأنهم ما خلقوا إلا لعبادته ، فأولئك يجازيهم ربهم في الآخرة بالجنات والعيون .

سادساً / فضل الصدقة وأن في المال حقاً سوى الزكاة من صلة الأرحام وإعانة المضطر وإقراء الضيف ونحو ذلك .

سابعاً / أنه ينبغي التفكر في آيات الله في الكون وفي النفس وفي كل شيء والاعتبار بذلك وأن الذي خلق هذه السماوات والأرض والناس في هذه الدنيا قادرٌ على أن يعيد خلقهم في الآخرة .

ثامناً / أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ولذلك لم يعرف إبراهيم أن ضيوفه ملائكة وتكلف لهم بأفضل أنواع الطعام وتصليحه مع أن الملائكة لا يأكلون الطعام ، فلو كان يعلم الغيب لعلم أنهم ملائكة وأنهم لا يأكلون الطعام ، وفي هذا ردٌ على غلاة الصوفية وغيرهم الذين يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله يعلمون الغيب وقد قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة النمل وقال تعالى ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ سورة الأعراف

تاسعاً / أن الكرم من شيم الأنبياء وقد سعى إبراهيم عليه السلام إلى إكرام ضيوفه قبل أن يسألهم عن خبرهم فذبح لهم عجلاً سميناً من أجود ماله وشواه لهم ثم قدمه بين أيديهم ودعاهم بلطفٍ إلى تناوله ثم لما لم يأكلوا طعامه وعرف خبرهم لم يقل لم لم تبلغونا قبل أن نتخسر ونتعب لكم بل أمضى الأمر على ما كان كأن لم يكن خسارة ولا تعب ، فهذه هي حال الأنبياء من طيب النفس وكرم الأخلاق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ولي كتاب في أخلاق الأنبياء لمن أراد معرفة بعض أخلاقهم والاقتداء بهم فهم والله قمة في الأخلاق الفاضلة وطيب الأنفس وسلامة الصدور فمن أراد سعادة الدارين فليقتدي بهم .

عاشراً / ينبغي تأمين الخائف وإن أمكن تبشيره بما يفرحه ويزيل الخوف من صدره تماماً فليفعل كما فعل الملائكة مع إبراهيم عليه السلام ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ ﴾ فانبسطت نفسه للحديث معهم ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ وذهب ما كان يجده من الرهب منهم .

الحادي عشر / أن لطم الوجه والجبين على جهة التعجب ليس بمحرم وإنما المحرم اللطم على جهة الاعتراض على قدر الله يؤخذ هذا من فعل هاجر ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ تعجبت كيف تلد وهي عجوز عقيم .

الثاني عشر / ما ذكره الله جل وعلا من قصص المجرمين وما أحله الله بهم من عقوبة لم يكن على جهة التسلية وقضاء الوقت وإنما للاعتبار والاتعاظ والحذر من فعلهم لئلا يصيب المرء ما أصابهم .

الثالث عشر / أن الداعية قد يدعوا فلا يستجيب له أحد فلا يعني هذا أنه مقصر أو أن الله لم يوفقه بل هو لأن الله لم يوفق المدعوين وأما هو فقد قضى ما عليه وأجره على الله يؤخذ هذا من قوله تعالى ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ يعني بيت لوط وقومه كلهم على الكفر حتى امرأته غير مؤمنة وليس هذا من تقصير لوط عليه السلام بل ما قدره الله على أولئك الفجرة من سوء العاقبة .

الرابع عشر / أنه لا مفر من الله إلا إليه بفعل الطاعات واجتناب المحرمات ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ ﴾

تفسير سورة الطور

سورة الطور مكية وآياتها تسع وأربعون .

قال السيوطي : أخرج مالك وأحمد والبخاري ومسلم عن جبير بن مطعم قال : سمعت النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور . وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : لقد علمت النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذاريات والطور والنجم واقتربت والرحمن والواقعة ونون والحاقة والمزمل ولا أقسم بيوم القيامة وهل أتى على الإنسان والمرسلات وعم يتساءلون والنازعات وعبس وويل للمطففين وإذا الشمس كورت والدخان .انتهى.

﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ ﴾ الجبل كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣ ﴾سورة البقرة وقال تعالى﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧١ ﴾سورة الأعراف فتبين أن المراد بالطور الجبل . وهو قول عامة السلف كابن عباس وعطاء ومجاهد وبن زيد وأبو العالية وعكرمة وقتادة والسدي ، وأكثرهم على التعميم بالجبال كلها . وعن بن عباسٍ أن الطور هو ما أنبت من الجبال دون مالا ينبت . وعنه أنه الجبل الذي أُنْزِلَتْ التوراة على موسى فيه .

واختلفوا في أي لغةٍ هو فقال مجاهد وبن زيد هم أهل اللغة السريانية يطلقون على الجبل الطور .

وقال الطبري هو الجبل باللغة العربية يدل له قول العجاج :

دَانَى جَنَاحَيْهِ مِنَ الطُّورِ ... فَمَرَّ تَقَضِّيَ الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرْ

﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ ﴾ عن مجاهد وقتادة وبن جريج والضحاك : وكتابٍ مكتوب . قيل المراد اللوح المحفوظ ، وقيل القران ، وقيل التوراة لسياق الآي قبلها عند من يقول أن الطور هو الجبل الذي أنزلت التوراة على موسى عليه السلام عنده وقيل سائر الكتب المنزلة على الأنبياء وكان كل كتابٍ منها في رقٍ ينشره أهله لقراءته ، وقيل هي صحف الأعمال لسياق الآي بعدها فهي التي تنشر على العباد كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ ﴾سورة التكوير وقال تعالى ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾سورة الإسراء والراجح شمول ذلك كله لعموم اللفظ ، ولا يقال : اللفظ يشمل كل كتابٍ كُتِبَ إذ لم يقل به أحدٌ من المفسرين فيما أعلم ، ويمنع من ذلك أنه قسمٌ من الرب جل وعلا ، والله لا يقسم إلا بشريفٍ عنده ، وليست كل الكتب المكتوبة شريفة ، بل هناك كتبٌ وضيعة ككتب الزنادقة والملاحدة والوثنيين والشهوانيين وغيرهم .

﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ الرق الورق وهي الصحيفة وكانت العرب ترقق الجلود ثم تكتب عليها فسمي ما يكتب عليه رقاً لأجل ذلك . والمنشور من نشر ينشر نشراً فهو منشور ، والنشر البسط والمد وهو خلاف الطي . قال مجاهد : الرق الصحيفة . وقال قتادة: الكتاب . وقال بن جرير : الورق . قال القرطبي : قال المبرد : الرق ما رقق من الجلد ليكتب فيه والمنشور المبسوط. وكذا قال الجوهري في الصحاح .انتهى قال بن جرير ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ وَكِتَابٍ سُطِرَ وَكُتِبَ فِي وَرِقٍ مَنْشُورٍ .انتهى وتقدم خلافهم في الكتاب المسطور والذي ذكره مقاتل والفراء ورجحه القرطبي أن المراد أعمال بني آدم كتبت عليهم وتنشر لهم يوم القيامة .

﴿ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ ﴾ ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء والمعراج أن البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يومٍ سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه . قال السيوطي : أخرج إسحاق بن راهويه وَابن جَرِير وَابن المنذر وَابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد بن عرعرة أن رجلاً قال لعلي رضي الله عنه : ما البيت المعمور؟ قال : بيتٌ في السماء يقال له الضراح وهو بحيال مكة من فوقها حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض يصلي فيه كل يومٍ سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه أبدا. انتهى.

﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ ﴾ عن علي بن أبي طالب ومجاهد وقتادة والسدي وابن جُرَيْج وابن زيد واختاره ابن جرير . هي السماء . وقال الربيع بن أنس : العرش . والأول أصح لقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾من (٣٢) سورة الأنبياء

﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾ قال مجاهد وبن زيد أي الموقد . وعن شمر بن عطية قال : بمنزلة التنور المسجور . وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ : أَيْنَ جَهَنَّمُ ؟ فَقَالَ : الْبَحْرُ ، فَقَالَ : مَا أُرَاهُ إِلاَّ صَادِقًا ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾ ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ قال بن كثير : أي: أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب ورُوي عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير ومجاهد وعبد الله بن عبيد بن عُمير وغيرهم .انتهى

وقيل هو الفارغ الذي ذهب ماؤه قال بن عباس : سَجُرُهُ حِينَ يَذْهَبُ مَاؤُهُ وَيُفَجَّرُ. قال بن كثير : قال الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن ذي الرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾ قال: الفارغ ، خرجت أَمَةٌ تستسقي فرجعت فقالت : إن الحوض مسجور . تعني : فارغاً . رواه ابن مردويه في مسانيد الشعراء .انتهى

وعن قتادة : هو الممتلئ . ورجحه الطبري وذكر أن كلمة مسجور لا تخرج عن معنيين عند العرب إما الإيقاد أو الامتلاء وحيث لم يكن موقداً اليوم وسياق الآيات يدل على الحاضر دون يوم القيامة لم يبق إلا أن يكون المعنى ممتلئاً .

وعن بن عباس : المسجور المحبوس . قال بن كثير : وقيل: المراد بالمسجور : الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها . قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وبه يقول السدي وغيره ، وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده فإنه قال : حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثني شيخٌ كان مرابطاً بالساحل قال: لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال: حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ليس من ليلةٍ إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله أن ينفضخ عليهم فيكفه الله عز وجل .انتهى

فهذه أربعة أقوال يمكن الجمع بينها بأن البحر الآن ممتلئ وهو محبوسٌ مكفوفٌ عن أهل الأرض لئلا يغرقهم فإذا كان يوم القيامة فجرت البحار بعضها على بعض وأوقد عليها حتى تتبخر وتشربها الأرض اليابسة فتفرغ من الماء . وعند أهل التفسير أن الآية تحمل على كل المعاني التي تحتملها ما لم يكن بينها تناقض ولا تناقض هاهنا والعلم عند الله تعالى .

وعن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عمرو وأبي صالح والربيع بن أنس : أن هذا البحر الذي أقسم به ربنا هو بحرٌ في السماء تحت العرش . والجمهور على أنه بحر الأرض المعروف ، وهو أولى لأن القران يخاطب الناس والعرب بما يدركون من لغتهم ومصطلحاتهم إلا ما دلَّ الدليل على نقله من المصطلح اللغوي إلى مصطلحٍ شرعيٍ وحيث لم يأتِ دليلٌ من الكتاب والسنة يدل على أن المراد بحرٌ في السماء فيبقى المعنى على ما يدركه العرب والناس وهو بحر الأرض .

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ ﴾ جواب القسم وعيدٌ لمن كفر بالله وكذب بآياته ودلائل قدرته﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَوَٰقِعٌ ۝٧ ﴾ لكائن ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ لا أحد يستطيع دفعه ورده عن الكفار . ثم أخبر بموعد هذا العذاب فقال﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ ﴾ المور عند أهل اللغة يدل على معانٍ منها : الدوران والموجان والاضطراب والتحرك . قال بن الأعرابي : مارَ الشيءُ مَوْراً : اضطَرَبَ وتَحرَّكَ . وقال الليث : ماج . وقال أبو عبيدة والأخفش : تكفأ . وأنشد الأخفش للأعشى : كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريثٌ ولا عجل

والمعروف من قول الأعشى (مرَّ السحابة) لكن يمكن أن يستدل عليه بقول أحدهم :

ومَشْيُهُنَّ بالكَثِيبِ مَوْرُ كما تَهادَى الفَتَياتُ الزَّوْرُ

أي يضطربن في المشي ويتموجن فيه .

وقال الأزهري : المور الدوران .انتهى وقال بن منظور : مارَ يَمورُ مَوْراً إذا جعل يَذْهَبُ ويجيء ويَتَردّد .انتهى وقال بن فارس : الميم والواو والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تردّد. قال : والمَوْر: الطريق، لأنّ الناس يمورون فيه، أي يتردَّدون. والمَوْر: الموج .انتهى

وأما تفسير الآية عند السلف فقد قال بن عباس وقتادة : تحرك تحريكاً . وقال مجاهد : تدور دوراً . وقال مقاتل : استدارتها وتحريكها . وقال الضحاك : استدارتها وتحريكها لأمر الله وموج بعضها في بعض . وعن بن عباس : يوم تشقق السماء .

وأما عن أقوال المفسرين فقد قال البغوي : أي : تدور كدوران الرحى وتتكفأ بأهلها تكفؤَ السفينة . قال قتادة: تتحرك. قال عطاء الخراساني: تختلف أجزاؤها بعضها في بعض. وقيل: تضطرب، والمور يجمع هذه المعاني ، فهو في اللغة : الذهاب والمجيء والتردد والدوران والاضطراب .انتهى وقال الطبراني : أي تَدُورُ دَوَراناً وتضطربُ وتتحرَّكُ ، والْمَوْرُ في اللغة : الذهابُ والْمَجِيءُ والتَرَدُّد والدورانُ. قِيْلَ : إنَّها تدورُ كما تدورُ الرَّحَى ، ويَمُوجُ بعضُها في بعضٍ .انتهى وقال العثيمين : قد يظن الظانّ أن المصدر هنا (موراً) لمجرد التوكيد ، ولكنه ليس كذلك ، بل هو لبيان تعظيم هذا المور ، والمور بمعنى الاضطراب ، يعني أن السماء تضطرب وتتشقق وتتفتح وتختلف عما هي عليه اليوم .انتهى

فهذا يدل على اجتماع هذه المعاني في المور وفي التنزيل ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الملك أي تضطرب وتتحرك وتتشقق وتدور بكم حتى تدخلوا في باطنها . قال مقاتل : فإذا هي تدور بكم إلى الأرض السفلى .انتهى

والأكثر على أن المقصود السماء نفسها ، وقيل المراد أهلها يموج بعضهم في بعض ويدورون فيها . وقال بن بحر : المراد الفلك وموره اضطراب نظمه واختلاف سيره . ذكره القرطبي . ولا شك أنه إذا حدث الأول تبعه الآخَرَين .

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ ينزعها الله من مكانها ويسيرها فوق الأرض كأنها القطن المندوف ثم كالسراب ثم كالهباء المنبث . عند ذلك ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ كلمة تهديدٍ ووعيدٍ شديد وقيل وادٍ في جهنم شديد الحر بعيد القعر ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الذين كذبوا بالحق . ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أصل الخوض الدخول في الماء يقال خاض الماء يخوضه خوضاً وخياضاً أي دخله ومشى فيه ، ويدل على الخلط والتحريك يقال خاض الشراب في المجدح أي خلطه وحركه فيه ومنه قول الحطيئة يصف امرأةً سمَّت بعلها (وقَالتْ شَرَابٌ بَارِدٌ فاشْرَبَنَّهُ ولَمْ يَدْرِ ما خَاضَتْ له في المَجَادِحِ) والخوض في الكلام التحدث بالكذب والباطل . قاله في تاج العروس . وقال القرطبي : الخوض أصله في الماء ثم استعمل بعد في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيهاً بغمرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول . وقيل: هو مأخوذ من الخلط. وكل شيء خضته فقد خلطته ، ومنه خاض الماء بالعسل خلطه .انتهى فهو في الكلام الدخول فيه بلا بينة والخلط فيه بين الحق والباطل والصدق والكذب كما قال تعالى ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾سورة المدثر وقد يدل على الاستهزاء كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ من (٦٨) سورة الأنعام قال مجاهد والسدي ومقاتل وابن جريج : يستهزئون بالقران . وعن مجاهد : يكذّبون بآياتنا . وهو قول إبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقتادة . والراجح الجمع لقوله تعالى ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ

بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾سورة النساء فهذه تفسير تلك كما قال البغوي .

فقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي يتكلمون بلا علمٍ في هذا الأمر العظيم وهو يوم القيامة ، يكذِّبون ويستهزئون ويلعبون . قال بن كثير : هم في الدنيا يخوضون في الباطل ، ويتخذون دينهم هزواً ولعبا .انتهى وقال القرطبي : أي في ترددٍ في الباطل ، وهو خوضهم في أمر محمدٍ بالتكذيب . وقيل: في خوضٍ في أسباب الدنيا ، يلعبون لا يذكرون حساباً ولا جزاء .انتهى. وقال الطبري : الذين هم في فتنةٍ واختلاطٍ في الدنيا يلعبون غافلين عما هم صائرون إليه من عذاب الله في الآخرة .انتهى

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ يدفعون دفعاً بشدةٍ إلى نار جهنم . فالدع الدفع بشدةٍ وغلظة .كقوله تعالى ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾سورة الماعون أي يدفعه عن حقه ويغلظ عليه .

ثم يقال لهم على جهة التبكيت ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ في الدنيا ولا تؤمنون بالبعث والحساب . ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ هل هذا العذاب الذي في النار سحر كما كنتم تزعمون في الدنيا أم أنكم الآن لا ترونه بأعينكم . وقيل أم بمعنى بل أي بل أنتم لا تبصرون في الدنيا من البصيرة أي لا تعقلون وقد حذرناكم من عذاب النار فلم تتزجروا فالآن ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ذوقوا حرها وسواءً تصبرتم عن العذاب أم لم تتصبروا فسيستمر عليكم العذاب جزاء أعمالكم السيئة في الدنيا من الشرك والكفر والتكذيب ونحو ذلك . نظير ذلك قولهم ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾من (٢١) سورة إبراهيم

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ إن الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره واجتناب نواهية في بساتين ونعيم من أصناف الخيرات يتنعمون بها.

﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ قال بن جرير : أي عندهم فاكهة كثيرة بإعطاء الله إياهم ،كما يقال لمن عنده تمرٌ كثير تامر ومن عنده لبن كثير لابن .انتهى. وقيل فاكهين بمعنى متنعمين قال بن كثير : أي : يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك .انتهى ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾ وجعل ربهم بينهم وبين الجحيم وقاية ، والجحيم من أسماء جهنم وتعني النار شديدة الاستعار .

﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا ﴾ غير منغصٍ ولا مكدور وقيل لا يخشى منه غائلة ولا أذى . ﴿ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ في الدنيا من الأعمال المرضية للرب جل وعلا .

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ ﴾ جمع سرير وهي الأريكة كما قال تعالى ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ ﴾ قال ابن عباس: هي سررٌ من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت ذكره القرطبي . ﴿ مَّصۡفُوفَةٖ ﴾ بعضها يقابل بعضاً كما قال تعالى ﴿ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ سورة الصافات

﴿ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ ﴾ قال مجاهد : أنكحناهم بحورٍ عين . ذكره بن كثير . وفيه ردٌ على من زعم أن العرب تقول تزوجت امرأةً وزوجته امرأة ، ولا تقول تزوجت بامرأة أو زوجته بامرأة . وقال الفراء هي لغة في أزد شنوءة . ولاشك أن لفظ القران وتفسير مجاهد يدل على أنها لغة أصيلة عند العرب . وقال من أنكر ذلك أن تفسير الآية وقرناهم بحورٍ عين ولا شك أنه بعيد إذ ما الفائدة أن يقرن مع الحورية إن لم تكن زوجةً حلالاً له فهو إلى العذاب أقرب منه إلى النعيم . فإن قال قرناهم بمعنى جعلناهم أزواجاً لهن فقد رجع إلى ما أنكر .

والحور : شدة بياض البياض في العين وسواد السواد فيها . والعين : واسعة العيون .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ رفعنا من آمن من ذريتهم إلى درجتهم في الجنة ، ولم ننقصهم من أجر عملهم شيء لنعطيه ذريتهم بل ذلك تكرماً منا ومنة . قال ابن عباس : إن الله تبارك وتعالى ليرفع ذرّية المؤمن في درجته ، وإن كانوا دونه في العمل ، ليقرَّ بهم عينه . وقيل المراد ذريتهم الصغار الذين ماتوا قبل البلوغ فيتبعون آبائهم في الإيمان ويدخلون الجنات معهم وفي الحديث (إن المؤمنين وأولادهم في الجنة ، والمشركين وأولادهم في النار) وقيل الأعلى من الآباء والذرية يرفع الأدنى بفضل الله ورحمته ، ويصح إطلاق الذرية على الآباء عند العرب كما قال تعالى ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ سورة يس يعني آبائهم حين نجيناهم في سفينة نوح عليه السلام .

قال بن عباسٍ ومجاهد والربيع بن أنس ﴿ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم ﴾ ما نقصناهم . وقال سعيد بن جبير والضحاك وقتادة وبن زيد : وما ظلمناهم . والمعنى واحد .

﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ أي حبيس عمله . فإن كان عمله صالحاً نجاه ، وإن كان عمله سيئاً أهلكه . قال بن كثير : لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عملٍ يقتضي ذلك ، أخبر عن مقام العدل

وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد بل ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: مرتهن بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواءً كان أباً أو ابنا .انتهى.

﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ قال بن عاشور : الإمداد: إعطاء المدد وهو الزيادة من نوعٍ نافع فيما زيد فيه ، أي زدناهم على ما ذكر من النعيم والأكل والشرب الهنيء فاكهة ولحماً مما يشتهون .انتهى.

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ يتعاطون ويتداولون كأس الشراب فيما بينهم . قال بن جريج : الرجل وأزواجه وخدمه يتنازعون أخذه من خدمة الكأس ومن زوجته ، وأخذ خدمة الكأس منه ومن زوجته. ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ قيل الهاء يعود على الجنة أي ليس في الجنة لغو وهو الكلام الذي لا فائدة منه ولا تأثيم وهو ما يوجب الإثم من الأقوال والأفعال . أي ليس في أقوال أهلها وأفعالهم ما يوجب الإثم أو ما لا فائدة فيه . وقيل الهاء يعود على الكأس وهو خمر الجنة أي ليس كخمر الدنيا الذي يسكر صاحبه فيهذي بما لا يدري فيقول المأثم أو على الأقل الذي لا فائدة فيه وكذلك أفعاله . قال بن عباس ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي لا باطل فيها . ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي لا كذب . وقال مجاهد ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ لا يستبون . ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي ولا يؤثمون وعنه ولا يغوون . وقال قتادة ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ لا لغو فيها ولا باطل إنما كان الباطل في الدنيا مع الشيطان. وقال مقاتل : لا حلف فيها ولا كذب . وقال ابن زيد: لا سباب ولا تخاصم فيها. وقال القتيبي: لا تذهب عقولهم فيلغوا ويرفثوا . وقال الزجاج: لا يجري بينهم ما يلغي ولا ما فيه إثم كما يجري في الدنيا لشربة الخمر. وقيل: لا يأثمون في شربها. قال أبو حيان : اللغو : السقط من الكلام ، كما يجري بين شراب الخمر في الدنيا. والتأثيم : الإثم الذي يلحق شارب الخمر في الدنيا. وقال السعدي : أي: ليس في الجنة كلام لغو ، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم وهو الذي فيه إثم ومعصية ، وإذا انتفى الأمران ثبت الأمر الثالث وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر مسر للنفوس مفرح للقلوب ، يتعاشرون أحسن عشرة ، ويتنادمون أطيب المنادمة ، ولا يسمعون من ربهم إلا ما يقر أعينهم ويدل على رضاه عنهم ومحبته لهم .انتهى.

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ويطوف على أهل الجنة بالخدمة غلمان لهم قد منحهم الله إياهم ليخدموهم فيما أرادوا ، وهؤلاء الغلمان صفتهم ﴿ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ ﴾ في البياض والصفاء والنقاء ﴿ مَّكْنُونٌ ﴾ مصون لم تمسه الأيدي فيتغير عن صفاءه وبياضه ونقاءه . عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً قال : يا نبي الله هذا الخادم فكيف المخدوم ؟ قال (فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب)

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ فيما بينهم عما كان منهم في الدنيا . ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ خائفين وجلين أن يعذبنا الله ، ومن خاف الله عمل بطاعته واجتنب معصيته . ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ

﴿ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ لكن الله امتن علينا بفضله ونجانا من عذاب النار برحمته ، والسموم قيل هو اسم من أسماء جهنم ، وقيل هو شدة حر النار ولفحها المنبعث منها . فالسموم هي الريح الحارة كما يقال سموم القيظ أي ريحه الحارة ولفحه المنبعث منه ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ إنا كنا في الدنيا ندعوه أن يغفر لنا ويرحمنا ويمتن علينا بفضله ويرحمنا فاستجاب لنا . ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ قال ابن عباس: البر : اللطيف. وعنه وعن بن جريج والضحاك : الصادق فيما وعد . وفي كتابي طريق الناجين في تبيين عقيدة الموحدين : البر : العطوف المحسن على عباده ، يقال في حق المخلوق : بر والديه إذا أحسن إليهما و لم يريا منه ما يكرهان ، والله جل وعلا برٌّ بالطائعين فأنالهم رضوانه ، وبرٌّ بالمقصرين فأنالهم عفوه وغفرانه .

﴿ فَذَكِّرْ ﴾ يا محمد الناس بالقران وادعهم إلى دين الله ﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ أي فما أنت بحمد الله وفضله ﴿ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي قد برأك الله من ذلك . كما يقال : ما أنت بحمد الله بجاهل ، أي قد برأت من الجهل . وقيل المراد : فما أنت بما بُعِثْتَ به من الرسالة والدين ، لأنها أكبر نعمةٍ على الخليقة ، وقيل المراد : القسم أي فما أنت ونعمة ربك فالباء باء القسم . والكاهن هو الذي له رئي من الجن يخبره بما يتحدث به أهل السماء الدنيا عن أوامر الله جل وعلا في أهل الأرض، والمجنون الذي يتكلم بما لا يعقل .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ قيل أم بمعنى بل ، وقيل هي استفهام استنكاري . قال بن جزي : أم في هذا الموضع وفيما بعده للاستفهام بمعنى الإنكار . والتربص الانتظار . وريب المنون ، حوادث الدهر ، وقيل : الموت . وكانت قريش قد قالت : إنما هو شاعر ننتظر به ريب المنون فيهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء كزهير والنابغة .انتهى.

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ ﴾ انتظروا ﴿ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ فإني انتظر معكم وستعلمون أن العاقبة لأولياء الله المتقين والخذلان لأعدائه .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ استفهام استنكاري أي كيف تأمرهم عقولهم بهذا القول الباطل وهو قولهم أن النبي صلى الله عليه وسلم شاعر أو كاهن أو مجنون ، وقد زعموا أنهم أولي العقول وأرباب النهى ، ألا يميزون بعقولهم بين الوحي الإلهي وبين أقوال الشعراء والكهان والمجانين . ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أم هنا بمعنى بل أي ليس الأمر أن أحلامهم تأمرهم بهذا بل هم قومٌ قد طغوا وتجاوزوا حدودهم و لم يعودوا يفكروا بعقولهم بل بما يمليه عليه طغيانهم وتجبرهم واستكبارهم .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ﴾ أم يقولون افتراه من تلقاء نفسه . ﴿ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي ليس سبب تكذيبهم بالقران أنهم يتهمون النبي صلى الله عليه وسلم بالكذب والافتراء ، وقد كانوا قبل ذلك يسمونه الصادق الأمين . ولكن عدم إيمانهم وكفرهم بالله هو الذي حملهم على التكذيب بالوحي .

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ هذا تحدي لمن زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم افترى هذا القران من تلقاء نفسه ، أن يفتري هو حديثاً مثل القران ، فالنبي صلى الله عليه وسلم بشر وأنتم بشر فافتروا أنتم مثله قرآناً إن كنتم صادقين أن هذا القران مفترى .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي هل وجدوا في هذا الكون من غير موجد ؟ أم هل هم الذين أوجدوا أنفسهم ؟ فإذا انتفى الأمران لم يبقى إلا أن يكون لهم موجد وهو الله جل وعلا . وهذه الآية من أعظم الردود على الملاحدة الذين ينكرون وجود الخالق . وأيضاً على المشركين لأن الخالق ينبغي أن تصرف العبادة والطاعة له وحده دون من سواه .

وقيل المعنى أخلقوا من غير أبٍ ولا أم فهم كالجمادات لا عقل لها فلا يؤمرون ولا ينهون . وهو قول بن عباس .

وقيل المعنى أخلقوا لغير شيء فلا يبعثون ولا يحاسبون على أعمالهم كقوله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾سورة المؤمنون والعرب تقول فعلت كذا وكذا من غير شيء أي لغير شيء . وهذا قول بن كيسان . قال الطبراني : معناهُ : أخُلقوا من غيرِ رَبٍّ وتَكوَّنوا من ذاتِ أنفُسِهم ؟ أم همُ الخالِقُون فَلا يُسأَلون عن أعمالهم ؟ قال ابنُ عبَّاس : مَعْنَاهُ : أخُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ وَأَبٍ فَهُمْ كَالْجَمَادِ لاَ يَعْقِلُونَ وَلاَ تَقُومُ للهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ ، أَلَيْسُواْ خُلِقُواْ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ. وقال ابنُ كَيسان : مَعْنَاهُ : أخُلِقُواْ عَبَثاً فَيُتْرَكُونَ سُدًى ، لاَ يُؤْمَرُونَ وَلاَ يُنْهَوْنَ ، أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ لأَنْفُسِهِمْ ؟ فَلاَ يَجِبُ للهِ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ .انتهى.

وفي الصحيح عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلمَّا بلغ هذه الآية ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي . رواه البخاري مفرقاً في الصحيح . قال بن كثير : كان جبير بن مطعم قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدرٍ في فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركاً ، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك .انتهى

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ فيكون لهم الأمر والنهي فيهما ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي ليس الأمر أنهم يعتقدون ذلك بل هم يعلمون يقيناً أن الله جل وعلا هو خالق السماوات والأرض كما قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾من (٢٥) سورة لقمان وإنما منعهم من الإيمان والطاعة عدم إيقانهم بالبعث والحساب . وقال الطبراني ﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ بالحقِّ وهو توحيدُ اللهِ وقدرتهُ على البعثِ .انتهى

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ استفهام استنكاري أي ليس عندهم خزائن ربك ، فيعطوا النبوة والرحمة والخير من شاءوا ويمنعوه عمن شاءوا . والخزانة عند العرب شيءٌ يهيأ كصندوق أو بيت ويوضع فيه نفائس الأشياء كالنقود والذهب والمجوهرات ونحو ذلك . وأما خزائن الرب جل وعلا ففيها من كل شيء يمد بها الرب جل وعلا عباده ، لا تغيض ولا تنفد رغم كثرة عطايا الرب وهباته لعباده . وقد قيل المراد بخزائن ربك في هذه الآية : الرحمة . وقيل : الغيب . وقال بن عباسٍ : المطر والرزق . وقال عكرمة : النبوة . ولعلها تشمل كل شيء فلا دليل على تخصيصها بشيءٍ دون شيء .

﴿ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ فيها عدة أقوال : الأول / المسلطون ، وهو مرويٌ عن بن عباسٍ وعنه : المتولون . والمعنى واحد . أي أم هم المسلطون على هذه الخزائن المتولون لأمرها . قال في لسان العرب : الْمُصَيْطِرُ الْمُسَلَّطُ على الشيء لِيُشْرِف عليه ويَتَعَهَّدَ أَحوالَه ويكتبَ عَمَلَهُ ، وأَصله من السَّطْر لأَن الكتاب مُسَطِّرٌ والذي يفعله مُسَطِّرٌ ومُسَيْطِرٌ .انتهى وقال الأزهري : قال اللّيث : هو الرقيب الحافظ المتعهد للشيء .انتهى وقال بن فارس : المسيطر هو المتعهّد للشيء المتسلّط عليه.

قال الرازي ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ تتمة للرد عليهم ، وذلك لأنه لما قال ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا بخزنة رحمة اللّه فيعلموا خزائن اللّه ، وليس بمجرد انتفاء كونهم خزنة ينتفي العلم لجواز أن يكون مشرفاً على الخزانة ، فإن العلم بالخزائن عند الخازن والكاتب في الخزانة ، فقال لستم بخزنة ولا بكتبة الخزانة المسلطين عليها ، ولا يبعد تفسير المسيطرين بكتبة الخزانة ، لأن التركيب يدل على السطر وهو يستعمل في الكتاب .انتهى

ويحتمل أن يكون المراد مسلطون على الناس يتولون أمرهم ونقل القرطبي عن بن عباسٍ أنهم المسلطون الجبارون . وقال مقاتل: يعني أم هم المسيطرون على الناس فيجبروهم على ما شاءوا ويمنعوهم عما شاءوا .انتهى وقال الطبري : أَمْ هُمُ الْجَبَّارُونَ الْمُتَسَلِّطُونَ الْمُسْتَكْبِرُونَ عَلَى اللَّهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسَيْطِرَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْجَبَّارُ الْمُتَسَلِّطُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الغاشية يَقُولُ : لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ مُتَسَلِّطٍ .انتهى

الثاني / أم هم الأرباب وهو قول عطاء ومعمر بن مثنى . وقال الزجاج : الأرباب المسلطون . وقد يكون هذا في معنى الأول فإن الله جل وعلا هو الذي خزائنه بيده يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، وهو الذي له الأمر والنهي على الخلائق كلها فمن ادعى أن بيده خزائن الله أو أنه متولي أمرها أو أن له الأمر والنهي على الخلائق والناس كلهم فقد اتخذ نفسه رباً مع الله .

الثالث / أم هم الحفظة نسبه القرطبي لابن بحر وقال : هو مأخوذٌ من تسطير الكتاب الذي يحفظ ما كتب فيه ، فصار المسيطر ها هنا حافظاً ما كتبه الله في اللوح المحفوظ .انتهى

الرابع / أم هم المبطلون نسبه القرطبي لابن عباسٍ والضحاك . وما أدري ما وجه تفسيره بهذا إلا أن يكون من الأساطير وهي الأباطيل . قال في لسان العرب : قال الليث : يقال سَطَّرَ فلانٌ علينا يُسَطِّرُ إِذا جاء بأَحاديث تشبه الباطل ، يقال هو يُسَطِّرُ

ما لا أصل له أي يؤلف . وفي حديث الحسن سأله الأشعث عن شيءٍ من القرآن فقال له : والله إنك ما تُسَيْطِرُ عَلَيَّ بشيء أي ما تُرَوِّجُ . يقال سَطَّرَ فلانٌ على فلان إذا زخرف له الأَقاويلَ ونَمَّقَها وتلك الأَقاويلُ الأَساطِيرُ .انتهى

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ألهم سلم يرتقون ويصعدون عليه إلى الله فيسمعون الوحي منه حتى يدعوا أن ما هم عليه حقٌ من عند الله ، فليأت صاحبهم الذي يدعي أنه يستمع الوحي أو أتى بالحق من عند الله بحجةٍ بينة على قوله هذا كما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالقران .

﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ذلك أنهم يقولون الملائكة بنات الله ، وربما قالوا ذلك لما يعبدون من الإلهة كالعزى ومناة ، على أنهم كانوا يكرهون البنات ، وكانوا يئدونهن أحياء ، وكانوا يفتخرون بالبنين ، فقال الله جل وعلا تدَّعون أنكم تعظمون الله ثم تنسبون له ما تكرهون وتجعلون ما تحبون لكم ، أي تعظيمٍ هذا ؟ كقوله تعالى ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ سورة الصافات وقوله ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ سورة النحل وقوله ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة النجم وقوله ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ سورة النحل

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ أم أنك يا محمد تسألهم أجراً على تبليغك الرسالة لهم وعلى دخولهم في الإسلام فكان ذلك الغرم ثقيلاً عليهم لا يستطيعون دفعه فمنعهم من الدخول في الدين وقبول الدعوة .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ أي أعندهم علم ما غاب عن الناس علمه فهم يكتبون ذلك ويخبرون به الناس . وذلك رداً على ادعائهم أن ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من أمر يوم القيامة وما يكون فيه باطل . قال القرطبي : قال ابن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه . وقال قتادة : لما قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ ﴾ حتى علموا متى يموت محمداً أو إلى ما يئول إليه أمره . وقال القتبي : يكتبون يحكمون ، والكتاب الحكم ، ومنه قوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾من (٥٤) سورة الأنعام أي حكم ، وقوله عليه الصلاة والسلام (والذي نفسي بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله) أي بحكم الله. انتهى وعلى قول القتبي يحتمل أن يكون المعنى أنهم يحكمون بمقتضى ما علموه من الغيب فيقولون فلانٌ سيموت غداً وفلانٌ سينتصر أو يهزم ، ويحتمل أيضاً أن

يكون المعنى أن الغيب نفسه عندهم فيتحكمون فيه فيقدمون موت فلان ويؤخرون موت الآخر ونحو ذلك . والخطاب جاء على جهة الإنكار والتعجب من تقولهم على أمورٍ غائبةٍ لا يعلمها إلا الله . كعلم البعث والنشور والجنة والنار ونحو ذلك من أمور الغيب . وإنكارهم لها مع عدم اطلاعهم على الغيب .

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ بالإسلام وبالرسول صلى الله عليه وسلم وبأصحابه ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ فإن وبال كيدهم يعود عليهم بالضرر كما قال تعالى ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ من (٤٣) سورة فاطر ومن ذلك كذبهم وتقولهم بالأباطيل ونشرهم الشائعات واتهامهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون ونحو ذلك ليصدوا الناس عن الإسلام وعن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك كيدهم بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وإرادتهم قتله . وما تركوا مكيدةً إلا كادوا بها النبي صلى الله عليه وسلم ودينه فعاد كيدهم في نحورهم فخذلهم الله جل وعلا ونصر دينه ونبيه وجعل العاقبة للإسلام والمسلمين .

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ أم لهم معبودٌ غير الله يرجون نفعه ويخشون ضرة ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ تنزه الله عن هذا المعبود الذي يعبدونه من دون الله ، فكل ما عبد من دون الله فهو باطل وعابده مشرك . فالله منزهٌ عن أن يكون له شريك في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

قال الطبري : أم لهم معبود يستحق عليهم العبادة غير الله ، فيجوز لهم عبادته ، يقول : ليس لهم إله غير الله الذي له العبادة من جميع خلقه . ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ يقول : تنزيهاً لله عن شركهم وعبادتهم معه غيره. انتهى

وقال بن كثير : هذا إنكارٌ شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله . ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون .انتهى

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾ وإن يرى هؤلاء المشركون قطعاً من السماء أو جانباً منها . قال بن عباسٍ وقتادة ﴿ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: قطعاً من السماء . وقال الضحاك ومقاتل : جانباً من السماء . وقال بن زيد : ناحيةً من السماء .

﴿ سَاقِطًا ﴾ أي واقعاً باتجاه الأرض. يقال سقط السحاب حين يرى طرفه كأنه ساقطاً على الأرض في ناحيةِ الأفقِ . وقد يسقط السحاب على موضعٍ من الأرض فيكون كالضباب يغطي الرؤية عن أهل ذلك الموقع . فكذلك يفعل الله بالسماء إن شاء يقطعها قطعا أو يتركها جملةً على أهل الأرض فتغطيهم ، فإن الكسف يطلق على القطع وعلى التغطية ومنه كسفت الشمس إذا ذهب ضوؤها فتغطت و لم يرها الناس . قال بن منظور : قال الفراء في قوله تعالى ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ الكِسْفُ والكِسَفُ وجهان والكِسْفُ الجِماعُ ، قال : وسمعت أَعرابياً يقول أَعطني كِسْفة من ثوبك يريد قِطْعة كقولك خَرْقة . وكُسِفَ فعل وقد يكون الكِسْف جماعاً للكِسفة مثل عُشْبة وعُشْب . وقال الزجاج : قرئ

كِسْفاً وكِسَفاً فمن قرأ كِسَفاً جعلها جمع كِسْفة وهي القِطْعة ومن قرأ كِسْفاً جعله واحداً قال أو تسقطها طَبَقاً علينا واشتقاقه من كسَفْت الشيء إذا غطّيته .انتهى

قال القرطبي : قال أبو عبيدة: الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدره. وقرا السلمي وحفص (كِسَفاً) جمع كسفة أيضا وهي القطعة والجانب تقديره كسره وكسر. قال الجوهري: الكسفة القطعة من الشيء، يقال أعطني كسفة من ثوبك والجمع كسف وكسف. ويقال: الكسف والكسفة واحد. وقال الأخفش: من قرأ (كِسْفا) جعله واحداً ومن قرأ (كِسَفاً) جعله جمعاً . وقال الهروي: ومن قرأ (كِسْفا) على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف ، كأنه قال أو تسقطه علينا طبقاً واحداً وهو من كسفت الشيء كسفاً إذا غطيته. انتهى.

﴿ يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ يقولوا سحاب بعضه فوق بعض . تكذيباً بالآيات ، وذلك أن المشركين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم آياتٍ كما قال تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾سورة الإسراء وأخبر تعالى عنهم أنهم قالوا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾سورة الشعراء قال القرطبي : أي جانباً من السماء وقطعاً منها فننظر إليها .انتهى فقال الله لنبيه ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي لن يؤمنوا ولو رأوا ما طلبوا من الآيات وسيتعذرون بأعذارٍ واهية رداً لهذه الآيات . قال قتادة : لا يصدّقوا بحديثٍ ولا يؤمنوا بآية. وقال بن زيد : حين سألوا الكِسْف قالوا ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾سورة الشعراء قال : يقول : لو أنا فعلنا لقالوا﴿ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ .

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ فاتركهم وأمهلهم زماناً حتى يدركهم اليوم الذي حدده الله لهم وفيه يعذبون وهو يوم القيامة . وروي عن الحسن أنه النفخة الأولى ، وقال قتادة : يوم يموتون . وقيل يوم بدر . والصاعقة تطلق على العذاب والهلاك كما قال تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾سورة فصلت أي عذاباً مثل عذابهم وهلاكاً مثل هلاكهم ، وقد يطلق الصعق على الموت كما قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ سورة الزمر فصعق أي مات . ولذلك فسر الحسن ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ بأنه النفخة الأولى أخذاً من هذه الآية . فكأن معنى يصعقون أي يموتون بعذابٍ يقع عليهم . قال الطبري : كُلُّ عَذَابٍ مُهْلِكٍ تُسَمِّيهِ الْعَرَبُ صَاعِقَةً .انتهى وقال القرطبي : بفتح الياء قراءة العامة ، وقرا ابن عامر وعاصم بضمها. قال الفراء: هما لغتان صعق وصعق مثل سعد وسعد .انتهى . وقيل

بفتح الياء بمعنى يموتون وبضمها يهلكون . قال الطبراني : قرأ الأعمشُ وعاصم وابنُ عامرٍ (يُصْعَقُونَ) بضمِّ الياء ؛ أي يُهلَكُون من أصعَقَهم الله إذا أهلَكَهم .انتهى

وللصاعقة معانٍ أخر عند العرب منها البرق النازل من السماء على الأرض يقال أصابتهم صاعقة أي ضربهم البرق ، ويقال لمن غشي عليه مصعوق وصعق كقوله تعالى ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ من (١٤٣) سورة الأعراف أي مغشياً عليه وفي قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾سورة فصلت أي صيحة العذاب لأنهم أهلكوا بالصيحة ، وقيل معنى ﴿ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ أي مهلك العذاب أي العذاب المهلك .

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ في ذلك اليوم الذي فيه يصعقون لا يغني عنهم كيدهم الذي كانوا يستطيعون فعله في الدنيا شيئاً يوم القيامة ولا أحد يستطيع أن ينصرهم ويحميهم ويمنعهم من عذاب الله الذي يقع عليهم . قال بن كثير : أي لا ينفعهم كيدهم ومكرهم الذي استعملوه في الدنيا ، لا يُجدي عنهم يوم القيامة شيئا .انتهى وقال السعدي : إن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمناً قليلاً فيوم القيامة يضمحل كيدهم وتبطل مساعيهم ولا ينتصرون من عذاب الله .انتهى

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ أي قبل يومهم الذي فيه يصعقون لهم عذاب قبله ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ بأن العذاب سينزل بهم قبل يوم القيامة . قال البراء بن عازب وبن عباسٍ رضي الله عنهما هو عذاب القبر . وعن بن عباسٍ ومقاتل : القتل يوم بدر . وقال مجاهد : الجوع لقريشٍ سبع سنين . وقال الحسن وابن زيد : مصائب الدنيا من الأوجاع والاسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد .قال الشنقيطي في أضواء البيان : الظاهر أن قوله ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ هو ما عذبوا به في دار الدنيا من القتل وغيره كما دل على ذلك قوله ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾سورة السجدة وقوله ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ من (١٤) سورة التوبة إلى غير ذلك من الآيات ، ولا مانع من دخول عذاب القبر في ذلك لأنه قد يدخل في ظاهر الآية ، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي والعلم عند الله تعالى .انتهى ولعل عدم اتجاهه عنده أن الجوع ومصائب الدنيا تصيب المؤمن والكافر على حدٍ سواء والآية تخص الذين ظلموا يعني ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب والعلم عند الله تعالى .

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي اصبر لقدره وقضائه وأمره . قال القرطبي : قيل : لقضاء ربك فيما حملك من رسالته . وقيل: لبلائه فيما ابتلاك به من قومك .انتهى ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا نحوطك ونحرسك . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ قيل المراد : حين تقوم للصلاة وهو قول الضحاك ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كبر للصلاة قال (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك) رواه أصحاب السنن ورواه مسلم موقوفاً

على عمر . وعن سعيد بن المسيب قال : حق على كل مسلم حين يقوم إلى الصلاة أن يقول : سبحان الله وبحمده لأن الله يقول لنبيه ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ وعن بن عباسٍ قال : حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل في الصلاة . وقيل المراد : حين تقوم من كل مجلس . وهو قول مجاهد ، وقد جاء عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بآخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس (سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك) فقال رجل : يا رسول الله ، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى؟ قال (كفارة لما يكون في المجلس) رواه أحمد وأبو داود وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من جلس في مجلسٍ فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك) وعن أبي الأحوص قال : إذا قمت فقل : سبحان الله وبحمده.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ قد يراد بالتسبيح الصلاة وقد يراد بها الذكر وخص الليل لأنه أشق على النفوس وأبعد عن الرياء ولأن أوقات الليل أشد تأثيراً في القلب وأثبت للحفظ والفهم كما قال تعالى﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ سورة المزمل وهو يشمل الليل كله ثم خص آخره حين تدبر النجوم للمغيب ومعلومٌ فضل صلاة آخر الليل والعبادة فيه وفي الحديث (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يدعوني فَأَسْتَجِيبَ لَهُ وَمَنْ يسألني فَأُعْطِيَهُ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ) رواه مسلم

وقال بن زيد ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾: العتمة . وقال مجاهد : الليل كله . وقال الطبري : وَمِنَ اللَّيْلِ فَعَظِّمْ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ بِالصَّلاَةِ وَالْعِبَادَةِ وَذَلِكَ صَلاَةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ .انتهى ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ روي عن عمر وعلي وابنه الحسن وأبو هريرة وابن عباس وقتادة ومقاتل أنها الركعتان قبل الفجر . وعن ابن زيد والضحاك : أنها صلاة الفجر الفريضة . ورجحه الطبري لأنه أمر والأمر للوجوب ولا صارف له إلى الندب ولا تجب إلا صلاة الفريضة دون النافلة . ولذلك جعل قوله تعالى ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ صلاة الظهر حين تقوم من القيلولة . بناءً على قاعدته هذه ونسبه القرطبي إلى زيد بن أسلم . وبقي عليهما صلاة العصر فلا يمكن أن تهمل مع ذكر بقية الصلوات لو كان الأمر كما قالا ، فدل على أن قولهما مرجوح ، وأن الأمر هنا مصروفٌ للندب بمقتضى سياق الآيات ، ولأن أكثر السلف قد فسروه بالمندوبات وهم أعلم بالتنزيل . وقال القرطبي : وأما إِدْبارَ النُّجُومِ فقال علي وابن عباس وجابر وأنس: يعني ركعتي الفجر. فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس .انتهى والقول بالنسخ أبعد من القول بالوجوب لأنه لابد له من دليل ، ولا يمكن القول به مع إمكان الجمع ، والجمع هاهنا ممكن بأن المراد النافلة والفريضة جميعاً فمن حافظ على النافلة فمن باب أولى أن يكون محافظاً على الفريضة .

تنبيه : قال بعضهم لا مغيب للنجوم وإنما إدبارها اختفاءها بانتشار ضوء الصبح واستدل به بعض الفقهاء على أن الإسفار بصلاة الصبح أفضل عند من يفسرها بأن المراد صلاة الصبح .

من دروس سورة الطور

أولاً /في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ دعوة إلى الإكثار من الأعمال الصالحة حتى يرتفع هو وذريته في الجنة فيزداد نعيمهم فإن الإنسان في الدنيا يسعى أن يكون هو وذريته في رغدٍ من العيش فهذا في الدنيا الفانية فكيف بالآخرة الباقية .

ثانياً / في قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ ﴾ كرم ربنا جل وعلا وعظيم تفضله على أهل طاعته بأن يزيدهم في الأجر والنعيم بأن يرفع لهم ذريتهم لتقر أعينهم بهم ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً .

ثالثاً /في قوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ دليل على أن الخوف من الله جل وعلا في الدنيا يوجب الأمن في الآخرة كما في الحديث القدسي (وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة) رواه البيهقي في شعب الإيمان وابن حبان في صحيحه وحسنه الألباني والأرناؤوط والمراد الخوف الباعث على العمل الصالح واجتناب المنكرات لا الخوف الذي يورث القنوط من رحمة الله .

رابعاً / في قوله تعالى ﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ إذا أيقن المؤمن أن خزائن الخير والرزق بيد الله تعالى دعاه ذلك إلى الاعتماد على الله وحده في طلب الرزق فيطلب الرزق الحلال دون الحرام والشريف دون الوضيع فلا يذل نفسه لأحد لأن الرزق بيد الله وحده والخزائن عنده لا عند الخلق .

خامساً / في قوله تعالى﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ ﴾ دليل على الهداية بيد الله وحده وأن من طبع الله على قلبه بالكفر فلا يؤمن ولو رأى كل آية ، فلذلك ينبغي للمؤمن الحذر من المعاصي فإن القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء فيسأل الله الثبات ويلتزم بالطاعة حتى يثبت الله له قلبه على الإيمان وطاعة الرحمن .

تفسير سورة النجم

مكية وآياتها (٦٢)

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : سَجَدَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِالنَّجْمِ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ . رواه البخاري وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَرَأَ ﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾ فَسَجَدَ فِيهَا وَسَجَدَ مَنْ كَانَ مَعَهُ غَيْرَ أَنَّ شَيْخًا أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى أَوْ تُرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَى جَبْهَتِهِ وَقَالَ يَكْفِينِي هَذَا. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَعْدُ قُتِلَ كَافِرًا. متفق عليه. وعند البخاري عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ فِيهَا سَجْدَةٌ ﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾ قَالَ فَسَجَدَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَسَجَدَ مَنْ خَلْفَهُ إِلاَّ رَجُلاً رَأَيْتُهُ أَخَذَ كَفًّا مِنْ تُرَابٍ فَسَجَدَ عَلَيْهِ فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا وَهُوَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ. وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ قَرَأْتُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱلنَّجْمِ ﴾ فَلَمْ يَسْجُدْ فِيهَا . متفق عليه وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ السَّجْدَةَ وَنَحْنُ عِنْدَهُ فَيَسْجُدُ وَنَسْجُدُ مَعَهُ فَنَزْدَحِمُ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُنَا لِجَبْهَتِهِ مَوْضِعًا يَسْجُدُ عَلَيْهِ. متفق عليه وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الْمِنْبَرِ بِسُورَةِ النَّحْلِ حَتَّى إِذَا جَاءَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدَ النَّاسُ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الْجُمُعَةُ الْقَابِلَةُ قَرَأَ بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَ السَّجْدَةَ قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ فَمَنْ سَجَدَ فَقَدْ أَصَابَ ، وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَسْجُدْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَزَادَ نَافِعٌ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ السُّجُودَ إِلاَّ أَنْ نَشَاءَ . رواه البخاري

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد وسفيان : الثريا إذا سقط مع الفجر . ورجحه الطبري لأن العرب تسمي الثريا النجم وإن كانت في العدد نجوماً قيل سبعة وقيل أكثر . وقال السدي : الزهرة لأن قوماً من العرب كانوا يعبدونها . وقال الحسن : أقسم الله بالنجوم إذا غابت . وعليه يكون النجم اسم جنس . وقيل المراد سقوط النجوم يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾سورة الانفطار وهو مرويٌ عن الحسن . وقيل هي النجوم التي ترجم بها الشياطين . وهو قول الضحاك . وعن مجاهد ومقاتل والفراء : القرآن إذا نزل . لأنه يترل نجوماً على النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ جواب القسم ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ أي ما انحرف عن الصراط المستقيم ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ هو النبي صلى الله عليه وسلم أي المرسل إليكم ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ الغواية ضد الرشاد أي ما صار غوياً بل هو رشيدٌ سديد. قال بن كثير : هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه بار راشد تابع للحق ليس بضال وهو : الجاهل الذي يسلك على غير طريق بغير علم ، والغاوي : هو العالم بالحق العادل عنه قصدًا إلى غيره ، فنزه الله سبحانه وتعالى رسوله وشَرْعَه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود ، وعن علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه بل هو صلوات الله وسلامه عليه وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد .انتهى

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ لا يقول عن هوىً وغرضٍ في نفسه . وقال قتادة : وما ينطق بالقران عن هواه . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ بل بما يوحي إليه ربه من الوحي .

وقد اختلف أهل العلم هل كل كلام النبي وحي من الله ؟ على قولين :

الأول / أن كل ما ينطق به النبي صلى الله عليه وسلم هو وحيٌ من الله واستدلوا بهذه الآية وبما ورد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب . فأمسكتُ عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (اكتب ، فو الذي نفسي بيده ، ما خرج مني إلا حق) رواه أحمد وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا أقول إلا حقاً) قال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا رسول الله قال (إني لا أقول إلا حقاً) رواه أحمد . وأخرج الدارمي عن يحيى بن أبي كثير قال : كان جبريل ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن .

القول الثاني / أن المراد بالآية نطقه بالقران وأنه ليس كل كلام النبي صلى الله عليه وسلم وحيٌ من الله إلا ما أخبر أنه وحي من الله كالقران والأحاديث القدسية والأوامر والنواهي الشرعية والمغيبات ونحو ذلك فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال (ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذي لا شك فيه) رواه البزار وابن حبان في صحيحه وقال الهيثمي فيه أحمد بن منصور الرمادي وهو ثقة وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح . وقد جاءت نصوص في القران تعاتب النبي صلى الله عليه وسلم على بعض ما فعله كعبوسه في وجه الأعمى وفداءه الأسارى في بدر وإذنه للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك وتحريمه لما أحلَّ الله له كما في سورة التحريم وكان يستشير أصحابه في المعارك ونحوها ويأخذ بآرائهم ولو كان يأتيه الوحي بكل ذلك ما احتاج إلى مشاورة ولا عوتب على ما يفعل ، ومر بقوم يلقحون نخلهم فقال (لو لم تفعلوا لصلح) فخرج شيصاً فمر بهم فقال ما لنخلكم قالوا : قلت كذا وكذا قال (أنتم أعلم بأمر دنياكم) رواه مسلم ولو كان كل ما ينطق به وحيٌ من الله ما وقع ذلك ، وعند أحمد وابن ماجة (إن كان شيئاً من أمر دنياكم فشأنكم به ، وإن كان من أمور دينكم فإلي). وكان عليه الصلاة والسلام يجتهد في مسائل القضاء ونحو ذلك وكان يقول (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار) ولو كان كلامه وحي لما كان ما قضاءه له موجباً لدخول النار .

وهذا هو الراجح أنه ليس كل كلام النبي صلى الله عليه وسلم وحي من الله فقد كان عليه الصلاة والسلام يجتهد في بعض الأمور التي لم ينزل عليه الوحي فيها فإن أصاب كان موافقاً للوحي وإن أخطأ نزل الوحي بتصحيح ما أخطأ فيه فكان كل كلامه وحياً من هذه الجهة .

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ تلقى الوحي من جبريل عليه السلام الذي هو شديد القوة .

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي ذي قوةٍ . وهو قول مجاهد والحسن وابن زيد وسفيان . وقال بن عباسٍ : ذو منظرٍ حسن . وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن. قال الطبري: عَنَى بِالْمِرَّةِ : صِحَّةَ الْجِسْمِ وَسَلَامَتَهُ مِنَ الآفَاتِ وَالْعَاهَاتِ ، وَالْجِسْمُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ مِنَ الإِنْسَانِ كَانَ قَوِيًّا .انتهى. وفي الحديث (لا تحل الصدقة لغنيٍّ ، ولا لِذِي مرّةٍ سَوِيّ) رواه أصحاب السنن . والمراد جبريل عليه السلام . ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ أي اعتدل واستقر في الأفق الأعلى فتكون تابعةً للآية التي بعدها . أو بمعنى كان سوي الخلقة . وقد ثبت في الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه على صورته التي خُلِقَ عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق فيكون المعنى فاستوى على صورته التي خُلِق عليها ، وكان ذاك الاستواء ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ مطلع الشمس وهو قول بن عباسٍ ومجاهد وسفيان والحسن وقتادة والطبري . وعن قتادة : الأفق الذي يأتي منه النهار . واختلف في الضمير فقيل يعود على جبريل عليه السلام وهو الصحيح أي استوى جبريل بالأفق الأعلى . وقيل بل يعود على النبي صلى الله عليه وسلم أي استوى هو وجبريل بالأفق الأعلى يعني ليلة الإسراء والمعراج وهو قول بن جرير . قال بن كثير : لم أره لغيره ولا حكاه هو عن أحد ولم يوافقه أحد على ذلك .انتهى

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ الدنو القرب والتدلي الهبوط من الأعلى إلى الأسفل وسياق الآيات يدل على أن المراد جبريل عليه السلام أنه هبط فقرب من النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كان في الأفق الأعلى ، وقيل المراد الرب جل وعلا أنه هبط فقرب من جبريل عليه السلام ، وقيل المراد الرب جل وعلا هبط فقرب من محمدٍ صلى الله عليه وسلم يعني ليلة الإسراء والمعراج . ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه القصة وقعت قبل ليلة الإسراء والمعراج ولذلك قال تعالى بعد ذلك بآيات ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ أي مرة أخرى أي رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرة أخرى على صورته التي خُلِقَ عليها عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج .

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ فكان في قربه منه بمقدار قوسين أو أقل من ذلك . قال ابن الأثير : القابُ والقِيبُ بمعنى القَدْرِ . وقال في تهذيب اللغة : قال الحسن : أي طول قوسين . وقال الفراء أي قدر قوسين عربيتين ونحو ذلك قال الزجاج .انتهى وقال في تاج العروس : أَي قَدْرَ قَوْسَيْن عَرَبِيَّتَيْن ، وقيلَ : القَابُ : ما بَيْن المَقْبِض والسِّيَةِ ولكُلِّ قَوْسٍ قابَانِ ، والمُرَادُ في الآية قَابَا قَوْسٍ ، فقَلَبَه ، أَوْ قَدْرَ ذِراعَيْن ، والمُرَادُ قُرْبُ المَنْزِلَةِ .انتهى . وقال في المعجم الوسيط (القاب) المقدار ، ومن القوس ما بين المقبض وطرف القوس .انتهى . وقال مجاهد : حيث الوتر من القوس يعني ربه من جبريل عليه السلام .

والأرجح أن القاب بمعنى المقدار وليس آلةً من آلات القوس قال النبي صلى الله عليه وسلم (لقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها) أي مقدار قوس أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها يعني ما في هذا القدر في الجنة من اللذائذ والاستمتاع والسعادة لا تساويه الدنيا كلها . وأما قولهم أن الله أراد أن يقول قابا قوسٍ بتثنية القاب وإفراد القوس فقلبه فجعل التثنية في القوس والإفراد في القاب فقولٌ باطلٌ لا يلتفت إليه ولا يرضى أحدٌ أن يقال عن كلامه أنه مقلوب فقلب الكلام خطأً فكيف يقال ذلك عن كلام رب العالمين .

وقد قال جماعة من المفسرين وأهل اللغة أن المراد بالقوسين الذراعين ونسبوه لبعض السلف كأبي رزين وليس ثمة فرق كبير بين طول الذراعين وطول القوسين والمقصود أنه اقترب منه جداً .

واختلفوا فقال بعضهم : يعني اقتراب الرب جل وعلا من جبريل عليه السلام .وقيل اقتراب الرب جل وعلا من محمدٍ صلى الله عليه وسلم . وقيل اقتراب جبريل عليه السلام من محمدٍ صلى الله عليه وسلم وهو أرجح لسياق الآيات كما قدمنا .

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ قيل المراد أوحى الله إلى عبده جبريل قاله ابن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم كما نقله القرطبي وهو ظاهر قول مجاهد كما تقدم . وقيل المراد أوحى جبريل إلى عبد الله محمدٍ ما أوحى أي مما أوحاه الله إليه وهو ظاهر قول بن مسعودٍ وعائشة قال الشيباني : سألت زراً عن قوله تعالى ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ قال : أخبرنا عبد الله أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح . متفق عليه وعن مسروق قال قلت لعائشة رضي الله عنها فأين قوله ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ قالت : إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد أفق السماء . متفق عليه قال بن كثير : معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمدٍ ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل . وكلا المعنيين صحيح . انتهى .

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ أي ما كذب قلب محمدٍ صلى الله عليه وسلم فيما رأى ببصره . وقال الطبري : مَا كَذَّبَ فُؤَادُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا الَّذِي رَأَى ، وَلَكِنَّهُ صَدَّقَهُ . قال : وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ فَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ {كَذَبَ} بِالتَّخْفِيفِ ، غَيْرَ عَاصِمٍ الْجَحْدَرِيِّ وَأَبِي جَعْفَرٍ الْقَارِئِ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فَإِنَّهُمْ قَرَأُوهُ (كَذَّبَ) بِالتَّشْدِيدِ ، بِمَعْنَى : أَنَّ الْفُؤَادَ لَمْ يُكَذِّبِ الَّذِي رَآه ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَهُ حَقًّا وَصِدْقًا ، وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ إِذَا قُرِئَ كَذَلِكَ : مَا كَذَبَ صَاحِبُ الْفُؤَادِ مَا رَأَى . وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى مِنْ قَرَأَ ذَلِكَ بِالتَّخْفِيفِ. وَالَّذِي هُوَ أَوْلَى الْقِرَاءَتَيْنِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَهُ بِالتَّخْفِيفِ لِإِجْمَاعِ الْحُجَّةِ مِنَ الْقُرَّاءِ عَلَيْهِ ، وَالأُخْرَى غَيْرُ مَدْفُوعَةٍ صِحَّتُهَا لِصِحَّةِ مَعْنَاهَا .انتهى.

وقد اختلف السلف فمن بعدهم فيما رأى النبي صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقوال :

القول الأول / رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه جل وعلا وهو مرويٌ عن ابن عباس ، فعن بن عباسٍ قال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه بفؤاده . رواه بن منده في الإيمان ونسبه بعضهم إلى مسلم والذي وجدته في مسلم عن بن عباسٍ قال : رآه بقلبه . وقال : رآه بفؤاده مرتين . هكذا رواه مسلم بالضمير دون ذكر من يعود عليه الضمير . فلم يقل : ربه . و لم يقل : جبريل . وروى بن خزيمة في التوحيد عن ابن عباسٍ قال : قد رأى محمدٌ ربَّه . وروى عن أبي ذرٍ قال : رآه بقلبه و لم يره بعينه. قال بن خزيمة : احتج بعض أصحابنا بهذا الخبر أن ابن عباس رضي الله عنهما وأبا ذر كانا يتأولان هذه الآية

أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده لقوله بعد ذكر ما بينا ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ وتؤول أن قوله ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ أن النبي صلى الله عليه وسلم دنا من خالقه عَزَّ وجَلَّ قاب قوسين أو أدنى ، وإن الله عَزَّ وجَلَّ أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما أوحى ، وإن فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكذب ما رأى يعنون رؤيته خالقه جل وعلا. قال أبو بكر : وليس هذا التأويل الذي تأولوه لهذه الآية بالبين ، وفيه نظر ، لأن الله إنما أخبر في هذه الآية أنه رأى من آيات ربه الكبرى ، و لم يُعْلِم الله في هذه الآية أنه رأى ربه جل وعلا ، وآيات ربنا ليس هو ربنا جل وعلا ، فتفهموا لا تغالطوا في تأويل هذه الآية .انتهى

القول الثاني / أن المراد جبريل عليه السلام ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ربه جل وعلا ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : رأى جبريل . رواه مسلم . وعن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيت ربك؟ قال (نورٌ أنى أراه) رواه مسلم وعن مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها يا أمته هل رأى محمداً صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ سورة الأنعام ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ ﴾ من (٥١) سورة الشورى ومن حدثك أنه يعلم ما في غدٍ فقد كذب ثم قرأت ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ من (٣٤) سورة لقمان ، ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ من (٦٧) سورة المائدة الآية ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين . رواه البخاري . وعند مسلم : عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدةٍ منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ما هن؟ قالت : من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة التكوير ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ سورة النجم فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء سداً عِظَمَ خلقه ما بين السماء إلى الأرض) فقالت أو لم تسمع أن الله يقول ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ سورة الأنعام أو لم تسمع أن الله يقول ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ سورة الشورى قالت ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ من (٦٧) سورة المائدة قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية والله

يقول ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ من (٦٥) سورة النمل . وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) رواه مسلم وعن بن مسعودٍ رضي الله عنه في قوله تعالى﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ قال: رأى جبريل له ستمائة جناح . رواه مسلم قال النووي في شرحه لمسلم : هذا الذى قاله عبد الله رضى الله عنه هو مذهبه في هذه الآية وذهب الجمهور من المفسرين إلى أن المراد أنه رأى ربه سبحانه وتعالى ثم اختلف هؤلاء فذهب جماعة إلى أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده دون عينيه وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينيه قال الامام أبو الحسن الواحدي قال المفسرون هذا اخبار عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل ليلة المعراج قال بن عباس وأبو ذر وابراهيم التيمي رآه بقلبه . قال وعلى هذا رأى بقلبه ربه رؤية صحيحة وهو أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده أو خلق لفؤاده بصراً حتى رأى ربه رؤية صحيحة كما يرى بالعين قال وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس وعكرمة والحسن والربيع .انتهى وقال بن حجر في الفتح : وقد اختلف السلف في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه فذهبت عائشة وبن مسعود إلى إنكارها واختلف عن أبي ذر وذهب جماعة إلى إثباتها وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أنه حلف أن محمداً رأى ربه وأخرج بن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها وكان يشتد عليه إذا ذكر له إنكار عائشة وبه قال سائر أصحاب بن عباس وجزم به كعب الأحبار والزهري وصاحبه معمر وآخرون وهو قول الأشعري وغالب أتباعه ثم اختلفوا هل رآه بعينه أو بقلبه وعن أحمد كالقولين ، قلت (القائل بن حجر) : جاءت عن بن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة فيجب حمل مطلقها على مقيدها فمن ذلك ما أخرجه النسائي بإسنادٍ صحيح وصححه الحاكم أيضاً من طريق عكرمة عن بن عباس قال أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد وأخرجه بن خزيمة بلفظ إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة الحديث وأخرج بن إسحاق من طريق عبد الله بن أبي سلمة أن بن عمر أرسل إلى بن عباس هل رأى محمد ربه فأرسل إليه أن نعم ومنها ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن بن عباس في قوله تعالى﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ قال رأى ربه بفؤاده مرتين وله من طريق عطاء عن بن عباسٍ قال رآه بقلبه وأصرح من ذلك ما أخرجه بن مردويه من طريق عطاء أيضاً عن بن عباس قال : لم يره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينه إنما رآه بقلبه . وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات بن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر وإثباته على رؤية القلب ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم لأنه صلى الله عليه وسلم كان عالماً بالله على الدوام بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما يخلق الرؤية بالعين لغيره والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً ولو جرت العادة بخلقها في العين وروى بن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال رأى محمد ربه وعند مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال نورٌ أني أراه ولأحمد عنه قال رأيت نوراً ولابن خزيمة عنه قال رآه بقلبه و لم يره بعينه وبهذا يتبين مراد أبي ذر بذكره النور أي النور حال بين رؤيته له ببصره وقد رجح القرطبي في المفهم قول الوقف في هذه المسألة وعزاه لجماعة من المحققين وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع وغاية ما استُدِلَّ به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل قال وليست المسألة من العمليات فيكتفي فيها

بالأدلة الظنية وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفي فيها إلا بالدليل القطعي وجنح بن خزيمة في كتاب التوحيد إلى ترجيح الإثبات وأطنب في الاستدلال له بما يطول ذكره وحمل ما ورد عن بن عباس على أن الرؤيا وقعت مرتين مرة بعينه ومرة بقلبه وفيما أوردته من ذلك مقنع وممن أثبت الرؤية لنبينا صلى الله عليه وسلم الإمام أحمد فروى الخلال في كتاب السنة عن المروزي قلت لأحمد إنهم يقولون إن عائشة قالت من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية فبأي شيء يدفع قولها قال بقول النبي صلى الله عليه و سلم (رأيت ربي) قول النبي صلى الله عليه وسلم أكبر من قولها . انتهى من الفتح .

القول الثالث التوقف : وهو قول القرطبي والقاضي عياض لتكافئ الأدلة وعدم وجود المرجح .

هذا وقد وهم بعضهم وظن أن أحداً من السلف يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى ربه بعيني رأسه و لم يقل بذلك أحدٌ منهم وما روى عن بن عباسٍ والإمام أحمد من إطلاق الرؤية فيحمل على ما ورد عنهم مقيداً بالرؤية القلبية فإن المطلق يحمل على المقيد كما هو معلومٌ في الأصول كيف وقد ثبتت النصوص بعدم احتمال البشر لرؤية الله في الدنيا والنبي صلى الله عليه وسلم بشرٌ من البشر وقد قال (إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) رواه مسلم وفي رواية عنده (حجابه النار) فلا خلاف بين السلف في عدم رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه بعيني رأسه وإنما خلافهم هل رآه بقلبه أو لا ؟ والراجح أنه لم يره وليس هناك آية أو حديث نبوي يصرح بالرؤية ، وأما ما ورد عن ابن عباسٍ وغيره فلعله فهم ذلك من هذه الآيات و لم يكن فهمه موافقاً للصواب لأن سياق الآيات يدل على أن المراد جبريل عليه السلام لا رب العزة جل وعلا .

واختلف أهل العلم هل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه في المنام أم لا ؟ وقد روى أحمد والترمذي عن بن عباسٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أتاني ربي عز وجل الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال : قلت لا . قال النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي أو قال نحري فعلمت ما في السماوات وما في الأرض ، ثم قال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال قلت نعم يختصمون في الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات والدرجات؟ قال : المكث في المساجد ، والمشي على الاقدام إلى الجمعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره ، ومن فعل ذلك عاش بخيرٍ ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه . وقل يا محمد إذا صليت : اللهم أني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنةً أن تقبضني إليك غير مفتون . قال : والدرجات بذل الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام) وهذا الحديث ضعفه ابن الجوزي والدار قطني وشعيب الأرناؤوط. قال ابن الجوزي في العلل المتناهية : أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة . وقال الدار قطني : كل أسانيده مضطربة ليس فيها صحيح . وقال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف وذكر أحاديث أخرى في الباب عن عددٍ من الصحابة وعللها ثم قال : فهذه الأحاديث كلها تدور على الضعفاء والمجاهيل .انتهى . ولكن صححه الألباني بطرقه وأنكر على من ضعفه . وذكر الترمذي أنه سأل عنه الإمام البخاري فقال : حديثٌ حسنٌ صحيح . فمن

ضعفه أنكر رؤية الله في الدنيا مطلقاً لا يقظةً ولا مناماً لا للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لغيره ، ومن صححه من أهل العلم فقد انقسموا على قسمين منهم من خصص ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم كابن عثيمين ، ومنهم من أجاز رؤية الله في المنام لعموم الناس وذكر الشيخ وليد السعيدان أن هذا هو قول الدارمي والبغوي وابن تيمية والقاضي أبو يعلى الفراء وابن عبد البر وابن القيم وابن كثير وغيرهم . والذين أجازوا رؤية الله في المنام قالوا ليست هي صورته الحقيقية وإنما أمثالٌ تضرب كسائر الرؤى يعرفها المفسرون للرؤى ، قال بن باز : ذكر شيخ الاسلام بن تيمية رحمه الله وآخرون أنه يمكن أن يرى الإنسان ربه في المنام ولكن يكون ما رآه ليس هو الحقيقة لأن الله لا يشبهه شيء قال تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ فليس يشبهه ، يمكن أن يكلمه ربه ، يرى في النوم أنه يكلمه ربه ، لكن مهما أري من الصور أي صورةٍ .. فليست هي الله جل وعلا لأن الله لا يشبهه شيء ... وقد يخيل لبعض الناس أنه رأى ربه وليس كذلك فإن الشيطان قد يخيل لهم ويوهمهم أنه ربهم ... إذا أمره بأمرٍ يخالف الشرع فهي علامة أنه لم ير ربه وإنما رأى شيطاناً ، فلو رآه وقال له : لا تصل ، قد أسقطت عنك التكاليف أو قال ما عليك زكاة أو ما عليك صوم رمضان أو ما عليك بر والديك أو قال لا حرج عليك في أن تأكل الربا فهذه كلها علامات على أنه رأى شيطاناً وليس ربه .انتهى وقال بن عثيمين : الذي يظهر لي أنها غير ممكنة إلا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم لكن ذكر شيخ الإسلام أنه يمكن أن يضرب للإنسان مثلاً وليس هو الله عز وجل نفسه ولكن يضرب مثلاً على حسب تمسكه بكتاب الله تعالى ومع ذلك لا تطمئن النفس لهذا ولا يمكن أن يحيط الإنسان بالله مناماً وهو لا يحيط به يقظة .انتهى قال البغوي : وتكون رؤيته جلت قدرته ظهور العدل والفرج والخصب والخير لأهل ذلك الموضع ، فإن رآه فوعد له جنة أو مغفرة أو نجاة من النار فقوله حق ووعده صدق ، وإن رآه ينظر إليه فهو رحمته ، وإن رآه معرضاً عنه فهو تحذير من الذنوب لقوله سبحانه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾وإن أعطاه شيئا من متاع الدنيا فأخذه فهو بلاء ومحن وأسقام تصيب بدنه يعظم بها أجره لا يزال يضطرب فيها حتى يؤديه إلى الرحمة وحسن العاقبة .انتهى

والراجح أن أحداً من البشر لم ير الله في صورته الحقيقية لا يقظةً ولا مناماً لا النبي صلى الله عليه وسلم ولا غيره من البشر وأما ما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في المنام إن ثبتت الأحاديث بذلك وقد صحح بعضها جمعٌ من أهل العلم ، فليست هي صورة الله الحقيقية وإنما مثلٌ ضُرِبَ للنبي صلى الله عليه وسلم وتفسير الرؤيا أنه الله جل وعلا يعلم تفسير ذلك النبي صلى الله عليه وسلم كما رأى يوسف عليه السلام أبوه وأمه في صورة الشمس والقمر وإخوته في صورة الكواكب فليست الشمس والقمر في الحقيقة أبوه وأمه وليست الكواكب في الحقيقة هي أخوته ولكنه مثلٌ ضرب له في النوم ومعلومٌ أن يوسف وأبوه يعقوب عليهما السلام كانا يعرفان تفسير رؤيا يوسف من حين قالها يوسف لأبيه ولذلك قال له يعقوب عليه السلام ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾فهما يعلمان معناها ولكن لا يعلمان وقت وقوعها . فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الذي رآه في المنام ليست هي صورة الله الحقيقية ولكنه مثلٌ ضُرِبَ له فهم منه أن المراد به الله جل في علاه وقد جاء في بعض الأحاديث (رأيت ربي في صورة شابٍ أمرد

جعد عليه حلة خضراء) فالنبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله جل وعلا ليس في الحقيقة على هذه الصورة لأنه كما قال تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾من (١١) سورة الشورى ولكنه مثلٌ مضروب فهم النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد به الله كما فهم يوسف ويعقوب أن المراد بالشمس والقمر أبوي يوسف وليس أبوي يوسف هما الشمس والقمر في الحقيقة كما أنه ليس الشاب الأمرد هو الله في الحقيقة . وقد شنَّع بعضهم على شيخ الاسلام بن تيمية تصحيحه لهذا الحديث ورموه بالتجسيم وما علموا أنه قد صححه قبله جماعة من أهل العلم . قال في طريق الإسلام : صححه جمعٌ من أهل العلم منهم الإمام أحمد في المنتخب من العلل للخلال ص٢٨٢ وإبطال التأويلات لأبي يعلى (١٣٩/١) وأبو زرعة الرازي والطبراني وأبو الحسن بن بشار وأبو يعلى وابن صدقة ذكرها أبو يعلى في إبطال التأويلات (١٤١/١-١٤٤) وابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية .انتهى . قلت : وكل هؤلاء يعتقدون أن الله ليس كمثله شيء ، وأن الشاب الأمرد ليس هو الله في الحقيقة . ولكن المبتدعة لقلة فقههم في الدين اعتقدوا أن ابن تيمية بتصحيحه لهذا الحديث يعتقد أن هذه هي صورة الله الحقيقية ، وما علموا أن كتب شيخ الاسلام بن تيمية ناطقة بنفي التمثيل عن الله جل وعلا والرد على الممثلة والمعطلة .

قال بن تيمية : فالإنسان قد يرى ربه في المنام ويخاطبه فهذا حقٌ في الرؤيا ، ولا يجوز أن يعتقد أن الله في نفسه مثل ما رأى في المنام ، فإن سائر ما يرى في المنام لا يجب أن يكون مماثلاً ، ولكن لابد أن تكون الصورة التي رآه فيها مناسبة ومشابهة لاعتقاده في ربه فإن كان إيمانه واعتقاده مطابقاً أُتي من الصور وسمع من الكلام ما يناسب ذلك ، وإلا كان بالعكس ، قال بعض المشايخ : إذا رأى العبد ربه في صورة كانت تلك الصورة حجاباً بينه وبين الله ، وما زال الصالحون وغيرهم يرون ربهم في المنام ويخاطبهم ، وما أظن عاقلاً ينكر ذلك فإن وجود هذا مما لا يمكن دفعه ... وليس في رؤية الله في المنام نقص ولا عيب يتعلق به سبحانه وتعالى ، وإنما ذلك بحسب الرائي وصحة إيمانه وفساده واستقامة حاله وانحرافه . وقول من يقول ما خطر بالبال أو دار في الخيال فالله بخلافه ونحو ذلك إذا حمل على مثل هذا كان محملاً صحيحاً ، فلا نعتقد أن ما تخيله الإنسان في منامه أو يقظته من الصور أن الله في نفسه مثل ذلك ، فإنه ليس هو في نفسه مثل ذلك ، بل نفس الجن والملائكة لا يتصورها الإنسان ويتخيلها على حقيقتها بل هي على خلاف ما يتخيله ويتصوره في منامه ويقظته وإن كان ما رآه مناسباً مشابهاً لها ، فالله تعالى أجل وأعظم . انتهى (تلبيس الجهمية طبعة مجمع الملك فهد (٣٢٥/١)

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ قرأ بن مسعود وعامة أصحابه (أفتَمرونه) بفتح التاء بغير ألف يعني أفتجحدونه . وقرأ أهل المدينة ومكة والبصرة وبعض الكوفيين (أفتمارونه) بضم التاء وألف بعد الميم يعني أفتجادلونه ، ذكر ذلك الطبري . وقال البخاري : قال إبراهيم (أفتمارونه) أفتجادلونه ، ومن قرأ (أفتمرونه) يعني أفتجحدونه . انتهى يعني في رؤية جبريل عليه السلام .

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ أي رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته له ستمائة جناح مرةً أخرى وهذه المرة كانت ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ وهي سدرة في السماء السابعة كما جاء في الصحيحين عن أنس في قصة الاسراء

والمعراج ويشهد له قوله تعالى ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ ومعلومٌ أن جنة المأوى فوق السماء السابعة ولكن جاء في صحيح مسلم عن ابن مسعود أنها في السماء السادسة فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ لَمَّا أُسْرِىَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم انْتُهِىَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَهِىَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ إِلَيْهَا يَنْتَهِى مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا وَإِلَيْهَا يَنْتَهِى مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا قَالَ ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ قَالَ فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ فَأُعْطِىَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ثَلاَثًا : أُعْطِىَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، وَأُعْطِىَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ . رواه مسلم . ولكن الأول أرجح كما قدمنا ، وقال بن رجب في الفتح : وقول ابن مسعود : أن سدرة المنتهى في السماء السادسة يعارضه حديث أنس المرفوع من طرقه كلها ؛ فإنه يدل على أنها في السماء السابعة أو فوق السماء السابعة والمرفوع أولى من الموقوف .انتهى. وجمع بعضهم بين الروايتين بأن أصلها في السماء السادسة وفرعها فوق السماء السابعة . قال بن حجر : ولا يعارض قوله أنها في السادسة ما دلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة وأغصانها وفروعها في السابعة وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها .انتهى وهذا جمعٌ في غير محله ، فإنه لا يمكن أن تكون رفعت للنبي صلى الله عليه وسلم مرتين فإما أن يكون قد رآها في السادسة وإما في السابعة والراجح أنها في السابعة كما قال بن رجب فإنها غاية ما وصل إليه النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج ومعلومٌ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تجاوز السابعة ويشهد لذلك أيضاً تسميتها بسدرة المنتهى وتوضيح معنى ذلك بأنه ينتهي إليها ما يعرج به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيقبض منها ومعلومٌ أن أرواح المؤمنين يشيعها من كل سماءٍ مقربوها ولو كان قبضها في السماء السادسة لما علم بها أهل السماء السابعة ولما شيعوها وهذا يعارض نص الخبر قال عليه الصلاة والسلام في شأن روح المؤمن (فيصعدون بها فلا يمرون يعني بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح لهم ، فيشيعه من كل سماءٍ مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى) رواه أحمد وأبو داود وبن خزيمة والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٧٦) فإن نص الخبر يدل على أنها تجاوزت السماء السابعة وانتهي بها إلى هذا الموضع وجاءهم الأمر من فوق (ان اكتبوا كتاب عبدي في عليين ...) الحديث فَعُلِمَ به أنه انتهت به الملائكة إلى سدرة المنتهى فكان قبض ما جاء من الأرض فيها ونزل عليهم الأمر من فوقهم عندها فكان قبض ما نزل من فوقها عندها . وأما حديث بن مسعود فهو خبر آحاد والواحد قد يهم وقد يخطئ فيحتمل أنه هو أو من دونه في السند أراد أن يقول السابعة فأخطأ فقال السادسة أو أنه وهم وظن أن الخبر عنها أنها في السادسة وهي في السابعة بنص الخبر المتفق عليه .

واختلف في سبب تسميتها بسدرة المنتهى فقال بن مسعودٍ رضي الله عنه : إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها .انتهى وقال كعب الأحبار : إليها ينتهي علم كل نبي مرسل وملكٍ مقرب وما خلفها غيب لا يعلمه الا الله أو من أعلمه . وقيل سميت بذلك لأنه إليها منتهى أرواح الشهداء . قال القرطبي : واختلف

لم سميت سدرة المنتهى على أقوالٍ تسعة : الأول- ما تقدم عن أبن مسعود أنه ينتهي إليها كلما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها. الثاني- أنه ينتهي علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها قاله ابن عباس. الثالث- أن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها قاله الضحاك. الرابع- لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها قاله كعب. الخامس- سميت سدرة المنتهى لأنها ينتهي إليها أرواح الشهداء قاله الربيع بن أنس. السادس- لأنه تنتهي إليها أرواح المؤمنين قاله قتادة. السابع- لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنهاجه قاله علي رضي الله عنه والربيع بن أنس أيضا. الثامن- هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي علم الخلائق قاله كعب أيضاً.. التاسع- سميت بذلك لأن من رفع إليها فقد انتهى في الكرامة .انتهى

وقد وصفها النبي صلى الله عليه وسلم فقال (ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبِقُهَا مِثْلُ قِلاَلِ هَجَرَ ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيَلَةِ) رواه البخاري ومسلم

وقوله تعالى ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ سميت بذلك لأنه يأوي إليها المتقون في الآخرة . وقرأ بعضهم (عندها جنَّه المأوى) بمعنى أدرك النبي صلى الله عليه وسلم المبيت عندها كما يقال جنَّه الليل أي أدركه ، ويحكم بشذوذ هذه القراءة لمخالفتها لما تواتر من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبت إلا في مكة ، وما جيء به عند ربه لينام هناك وإنما ليرى من آيات ربه الكبرى إلا أن يكون لها معنىً غير هذا المعنى فالعلم عند الله تعالى . ثم رأيت ما قال بن عطية في المحرر الوجيز حيث قال : قرأ علي بن أبي طالب وابن الزبير بخلاف وأنس بن مالك بخلاف وأبو الدرداء وزر بن حبيش وقتادة ومحمد بن كعب (جنة المأوى) بالهاء في جنة ، وهو ضمير محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ستره وضمه إيواء الله تعالى وجميل صنعه به ، يقال : جنه وأجنه ، وردت عائشة وصحابة معها هذه القراءة وقالوا : أجن الله من قرأها .انتهى وقال ابن حيان في البحر المحيط : هي الجنة التي وعدها اللّه المؤمنين. وقال ابن عباس بخلاف عنه وقتادة : هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء وليست بالتي وعد المتقون جنة النعيم . وقيل جنة مأوى الملائكة . وقرأ علي وأبو الدرداء وأبو هريرة وابن الزبير وأنس وزر ومحمد بن كعب وقتادة : جنه ، بهاء الضمير ، وجن فعل ماض ، والهاء ضمير النبي صلى اللّه عليه وسلم ، أي عندها ستره إيواء اللّه تعالى وجميل صنعه. وقيل : المعنى ضمه المبيت والليل. وقيل : جنه بظلاله ودخل فيه. وردّت عائشة وصحابة معها هذه القراءة وقالوا : أجن اللّه من قرأها . وإذا كانت قراءة قرأها أكابر من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فليس لأحدٍ ردّها. وقيل : إن عائشة رضي اللّه تعالى عنها أجازتها. وقراءة الجمهور ﴿ جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ كقوله في آية أخرى ﴿ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا ﴾سورة السجدة من (١٩) .انتهى

﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ في حديث أنس في قصة الاسراء والمعراج قال عليه الصلاة والسلام (ثم انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ) متفق عليه وعند مسلم (قَالَ فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا) وعن بن مسعودٍ رضي الله عنه ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ

﴿ ١٦ ﴾ قَال : فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ . رواه مسلم قال بن حجر : كذا فسر المبهم في قوله ﴿ مَا يَغْشَىٰ ﴾ بالفراش ووقع في رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس جرادٌ من ذهب قال البيضاوي وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه وجعلها من الذهب لصفاء لونها واضاءتها في نفسها . انتهى ويجوز أن يكون من الذهب حقيقة ويخلق فيه الطيران والقدرة صالحة لذلك ، وفي حديث أبي سعيد وبن عباس يغشاها الملائكة ، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي على كل ورقةٍ منها ملك .انتهى من الفتح . وقال بن رجب : روى مسدد ثنا يحيى عن حميد عن أنس أن رسول الله قال (انتهيت إلى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها مثل الجرار ، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتة أو نحو ذلك) وخرجه الإمام أحمد وعنده (تحولت ياقوتاً وزمرداً) وخرج الترمذي من حديث أسماء بنت أبي بكر قالت : سمعت رسول الله وذكر سدرة المنتهى ، قال (يسير الراكب في ظل الفنن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب ، فيها فراش الذهب ، كأن ثمرها القلال) ...وفي حَدِيْث أبي جَعْفَر الرَّازِي عَن الربيع بْن أنس عَن أبي العالية أو غيره عَن أبي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ فذكر حَدِيْث الإسراء بطوله وفيه (ثُمَّ انتهى النَّبِيِّ إلى السدرة ، فَقِيلَ لَهُ : هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك عَلَى سنتك ، فإذا هِيَ شجرة يخرج من أصلها أنهارٌ من ماءٍ غير آسن ، وأنهارٌ من لبن لَمْ يتغير طعمه وأنهار من خمرٍ لذةٍ للشاربين ، وأنهارٌ من عسلٍ مصفى ، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها . والورقة مِنْهَا مغطية للأمة كلها . قَالَ : فغشيها نور الخلاق ، وغشيها الملائكة أمثال الغربان حِينَ تقع عَلَى الشجر من حب الله . انتهى من الفتح . والمقصود تعظيم ما غشيها من أمر الله حتى هال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فما استطاع أن يصفه من عظيم ما رأى وجماله وحسنه وبديع صنع الخالق جل في علاه ، وأما المذكور في الأحاديث كالجراد من ذهب والملائكة ، والألوان التي لا يدرى ما هي ، فذلك بعض ما غشيها وليس كله ، وإنما ما استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يصفه مما غشيها ، والعلم عند الله تعالى .

قال البخاري ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ قال إبراهيم : بصر محمدٍ صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴿ ١٧ ﴾ ﴾ وَلاَ جَاوَزَ مَا رَأَى .انتهى

وعن ابن عباسٍ ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ﴾ ما مال يميناً ولا شمالاً .وقال ابن إسحاق ومقاتل : ما مال . ﴿ وَمَا طَغَىٰ ﴿ ١٧ ﴾ ﴾ قال بن عباس : ما جاوز ما أُمِرَ به . وقال ابن إسحاق : وما ارتفع . وقال مقاتل : وما ظلم لقد صدق محمد بما رأى تلك الليلة . وعلى هذا يكون للسلف فيها قولان :

الأول / مدح النبي صلى الله عليه وسلم بأنه لم يتجاوز بصره ما أذن الله جل في علاه له في تلك الليلة أن ينظر فيه وهذا معنى قول بن عباسٍ وابن إسحاق . قال الطبراني : وهذا وصفُ أدَبِهِ في ذلك المقامِ إذ لم يلتفِتْ جَانباً ، و لم يُمِلْ بصرَهُ و لم يَمُدَّهُ أمامَهُ إلى حيث ينتهِي .انتهى

والثاني / مدح النبي صلى الله عليه وسلم بصدق القول للناس فيما رآه بعينه تلك الليلة وأنه (ما زاغ) أي ما مال فيما قال عما أبصر (وما طغى) فزاد من عنده فتجاوز وظلم وهذا معنى قول إبراهيم ومقاتل .

ولا مانع من الجمع بين المعنيين إذ الآية تحمل على كل المعاني التي تحتملها كما هو معلوم في قواعد التفسير .

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ لقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة الإسراء والمعراج بعضاً من آيات الله العظيمة الدالة على عظمة الرب وجلاله وبديع صنعه وكمال قدرته . واخْتُلِف في الآيات الكبرى التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة فجاء عند البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : رأى رفرفاً أخضراً قد سد الأفق . رواه البخاري ورواه أحمد في المسند والطبري في تفسيره بزيادة (من الجنة) في بعض رواياته . وعند مسلم قال : رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح . قال القرطبي : قال البيهقي: قوله في الحديث (رأى رفرفاً) يريد جبريل عليه السلام في صورته في رفرف والرفرف البساط. ويقال: فراش. ويقال: بل هو ثوب كان لباساً له ، فقد روي أنه رآه في حلة رفرف ... وقال الضحاك: رأى سدرة المنتهى. وعن ابن مسعود: رأى ما غشي السدرة من فراش الذهب حكاه الماوردي. وقيل: رأى المعراج. وقيل: هو ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه ، وهو أحسن ، دليله ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾من (١) سورة الإسراء و(مِنْ) يجوز أن تكون للتبعيض... ويجوز أن تكون (مِنْ) زائدة ، أي رأى آيات ربه الكبرى. وقيل: فيه تقديم وتأخير أي رأى الكبرى من آيات ربه. انتهى وهذا الاختلاف من اختلاف التنوع لا التضاد فكل واحدٍ يذكر نوعاً من الآيات الكبرى التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة فمنها رؤية جبريل على صورته ، ومنها رؤية الرفرف الأخضر من الجنة وهو البساط الأخضر الذي سد الأفق لمن لم يحكم بشذوذ زيادة أحمد والطبري ، ومنها رؤية سدرة المنتهى ، ومنها رؤية ما يغشى السدرة من جراد الذهب والملائكة والألوان الغريبة ونحو ذلك مما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من العجائب في تلك الليلة .

تنبيه : ذكر ابن كثير أنه قد استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية في تلك الليلة لم تقع بهذه الآية ، قال : ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ، ولنقل ذلك للناس .انتهى. قلت : لأن رؤية الله جل وعلا أعظم وأكبر وأجلّ من رؤية آياته ، فلو وقعت لكان الإخبار بها أولى من الإخبار برؤية الآيات .

ولمّا ذكر الله تعالى ما فعل بنبيه صلى الله عليه وسلم من الإسراء والمعراج ورؤيته للآيات الكبرى وبيان عظيم قدرة الخالق جل في علاه وبديع صنعه أعقب ذلك باحتقار الأصنام التي يعبدها هؤلاء المشركين فقال ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ أفرأيتم هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله يعني هل يستطعن أن يفعلن شيئاً معكم كما فعل الله بنبيه صلى الله عليه وسلم . قال الطبراني : المعنى : أخبِرُونا عن الآلهةِ التي تَعبُدونَها من دونِ الله ، هل لها قدرةٌ تُوصَفُ بها كما يوصَفُ اللهُ بالقدرةِ والعَظَمةِ ، وهي أسماءُ أصنامٍ يَعبدونَها ، وانتقَوا لها اسماً من أسماءِ الله تعالى ، فقالوا : مِن الله اللاّت ، ومن العزيزِ العزَّى ، ومن المنَّانِ مناةُ بالهاءِ .انتهى وقال القرطبي : لما ذكر الوحي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر من آثار قدرته ما ذكر ، حاج المشركين إذ عبدوا مالا يعقل وقال أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أوحين إليكم شيئاً كما أوحي إلى محمد . قال : وكانت اللّاتَ لثقيف ، والْعُزَّى لقريش وبني كنانة ، ومَناةَ لبني هلال .انتهى وقال بن كثير :

كانت اللات صخرةً بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة وحوله فناء معظَّم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ... والعزى : كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزّى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم) ... وأما مناة فكانت بالمُشَلَّل عند قُدَيد بين مكة والمدينة وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخاري عن عائشة نحوه . وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .انتهى

قال بن عباس :كَانَ اللاَتُ رَجُلاً يَلُتُّ سَوِيقَ الْحَاجِّ . رواه البخاري وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ : وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أُقَامِرْكَ فَلْيَتَصَدَّقْ) رواه البخاري وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : إِنَّمَا كَانَ مَنْ أَهَلَّ بِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي بِالْمُشَلَّلِ لاَ يَطُوفُونَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ فَطَافَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمُسْلِمُونَ. قَالَ سُفْيَانُ مَنَاةُ بِالْمُشَلَّلِ مِنْ قُدَيْدٍ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ نَزَلَتْ فِي الأَنْصَارِ كَانُوا هُمْ وَغَسَّانُ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ مِثْلَهُ. وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِمَّنْ كَانَ يُهِلُّ لِمَنَاةَ - وَمَنَاةُ صَنَمٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ - قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللهِ كُنَّا لاَ نَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ تَعْظِيمًا لِمَنَاةَ نَحْوَهُ .رواه البخاري.

قال القاسمي في محاسن التأويل : روى النسائي عن أبي الطفيل قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأتاها خالد وكانت على ثلاث سمرات ، فقطع السمرات ، وهدم البيت الذي كان عليها ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال (ارجع ، فإنك لم تصنع شيئاً) فرجع خالد فلما أبصر السدنة وهم حجبتها ، أمعنوا في الجبل وهم يقولون : يا عزى ! يا عزى ! فأتاها خالد ، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها ، فغمسها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال (تلك العزى) قال ابن إسحاق : وكانت اللات لثقيف بالطائف ، وكان سدنتها وحجابها بني معتب ، وقد بعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها ، وجعلا مكانها مسجداً بالطائف . قال ابن إسحاق : وكان مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها . ويقال : عليّ بن أبي طالب . انتهى

ومما يذكره المفسرون هاهنا قصة الغرانيق وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بعد هذه الآية (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) وهذه القصة من أبطل الباطل وأكذب الكذب وفيها من التنقص من مقام النبي صلى الله عليه وسلم الشيء الكثير مما يدل على بطلانها ، وقد كتب العلامة المحدث الألباني كتاباً أسماه (نصب المجانيق في إبطال قصة الغرانيق) وذكر الروايات المذكورة في هذه القصة ثم قال : تلك هي روايات القصة وهي كلها كما رأيت معلة بالإرسال والضعف والجهالة فليس فيها ما يصلح للاحتجاج به لا سيما في مثل هذا الأمر الخطير ، ثم إن مما يؤكد ضعفها بل بطلانها ما فيها من الاختلاف والنكارة مما لا يليق بمقام النبوة والرسالة وإليك البيان :

أولاً : في الروايات كلها أو جلها أن الشيطان تكلم على لسان النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الجملة الباطلة التي تمدح أصنام المشركين (تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى)

ثانياً : وفي بعضها كالرواية الرابعة (والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاء به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ وهم) ففي هذا أن المؤمنين سمعوا ذلك منه صلى الله عليه وسلم ولم يشعروا بأنه من إلقاء الشيطان بل اعتقدوا أنه من وحي الرحمن . بينما تقول الرواية السادسة (ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان) فهذه خلاف تلك .

ثالثاً : وفي بعضها كالرواية (١و٤و٧و٩) أن النبي صلى الله عليه وسلم بقي مدة لا يدري أن ذلك من الشيطان حتى قال له جبريل (معاذ الله لم آتك بهذا ، هذا من الشيطان)

رابعاً : وفي الرواية الثانية أنه صلى الله عليه وسلم سها حتى قال ذلك ، فلو كان كذلك ، أفلا ينتبه من سهوه .

خامساً : في الرواية العاشرة الطريق الرابع أن ذلك أُلقي عليه وهو يصلي .

سادساً : وفي الرواية (٤و٥و٩) أنه صلى الله عليه وسلم تمنى أن لا يتزل عليه شيء من الوحي يعيب آلهة المشركين لئلا ينفروا عنه .

سابعاً : وفي الرواية (٤و٦و٩) أنه صلى الله عليه وسلم قال عندما أنكر جبريل عليه السلام ذلك عليه (افتريت على الله وقلت على الله ما لم يقل ، وشركني الشيطان في أمر الله) فهذه طآمات يجب تنزيه الرسول منها لا سيما هذا الأخير منها فإنه لو كان صحيحاً لصدق فيه عليه الصلاة والسلام وحاشاه قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾سورة الحاقة فثبت مما تقدم بطلان هذه القصة سنداً ومتناً والحمد لله على توفيقه وهدايته .انتهى

وذكر الألباني أيضاً بعض أقوال العلماء ومن ذلك قول عياض : هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده . وقال أيضاً : من حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين لم يسندها أحد منهم . وردها القاضي من طريق النظر بأن ذلك لو وقع لارتد كثير ممن أسلم ولم ينقل ذلك . وقال أبو بكر بن العربي : ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لا أصل لها . وقال بن خزيمة : هذا من وضع الزنادقة . وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . قال الألباني : وقد تبع هؤلاء جماعة من الأئمة العلماء وهاك أسماؤهم ثم ذكر بن العربي والقاضي عياض والرازي والقرطبي والكرماني والعيني والشوكاني والألوسي وصديق حسن خان ومحمد عبده المصري . انتهى ونزيد أيضاً قول النووي : وأما ما يرويه الإخباريون والمفسرون أن سبب سجود المشركين مع رسول الله ما جرى على لسانه من الثناء على آلهتهم فباطل لا يصح منه شيء لا من جهة النقل ولا من جهة العقل لأن مدح إلهٍ غير الله كفر ولا يصح نسبة ذلك إلى رسول الله ولا أن يقوله الشيطان على لسان رسول الله ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك . انتهى وقال بن حزم : والحديث الذي فيه والهن الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترتجى فكذب بحت لم يصلح من طريق النقل ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد .انتهى

ومما ذكره أبو بكر بن العربي رحمه الله من الأدلة على بطلان هذه القصة :

أولاً / أن الله جل وعلا إذا أرسل إلى النبي الملك بوحيه فإنه يخلق له العلم به حتى يتحقق أنه رسولٌ من عند الله ، ولولا ذلك لما صحت الرسالة ولا تبينت النبوة فإذا خلق الله له العلم به تميز عنده من غيره وثبت اليقين واستقام سبيل الدين ولو كان النبي إذا شافهه الملك بالوحي لا يدري أملك هو أم شيطان أم إنسان أم صورة مخالفة لهذه الأجناس ألقت عليه كلاماً وبلغت إليه قولاً لم يصح أن يقول : إنه من عند الله ولا ثبت عندنا أمر الله فهذه سبيل متيقنة وحالة متحققة لابد منها ولا خلاف في المنقول ولا في المعقول فيها ولو جاز للشيطان أن يتمثل فيها أو يتشبه بها ما أمناه على آية ولا عرفنا منه باطلاً من حقيقة فارتفع بهذا الفصل اللبس وصح اليقين في النفس .

ثانياً / أن الله قد عصم رسوله من الكفر وأمنه من الشرك واستقر ذلك من دين المسلمين بإجماعهم فيه واطباقهم عليه فمن ادعى أنه يجوز عليه أن يكفر بالله أو يشك فيه طرفة عين فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، بل لا تجوز عليه المعاصي في الأفعال فضلاً عن أن ينسب إلى الكفر في الاعتقاد بل هو المنزه عن ذلك فعلاً واعتقاداً .

ثالثاً / أن الله قد عرَّف رسوله بنفسه وبصَّره بأدلته وأراه ملكوت سماواته وأرضه وعرَّفه سنن من كان قبله من إخوته فلم يكن يخفى عليه من أمر الله ما نعرفه اليوم ونحن حثالة أمته ، ومن خطر له ذلك فهو ممن يمشي مكباً على وجهه ، غير عارف بنبيه ولا بربه .

رابعاً / قول الرواة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جلس مع قريش تمنى أن لا ينزل عليه من الله وحي ، فكيف يجوز لمن معه أدنى مسكة (يعني من عقل) أن يخطر بباله أن النبي صلى الله عليه وسلم آثر وصل قومه على وصل ربه ، وأراد أن لا يقطع

أنسه بهم بما يترل عليه من عند ربه من الوحي الذي كان حياة جسده وقلبه وأنس وحشته وغاية أمنيته وكان رسول الله أجود الناس فإذا جاءه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة فيؤثر هذا على مجالسته للأعداء .

خامساً / أن قول الشيطان (تلك الغرانقة العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى) يعلم أدنى المؤمنين منزلة أن هذا كفر لا يجوز وروده من عند الله ولبادر إلى الإنكار على قائله ، فكيف يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم قَبِله و لم ينكره واختلط عليه التوحيد بالكفر والتبس عليه الملك بالشيطان ، ثم لم يكف هذا حتى قالوا : إن جبريل عليه السلام لما عاد إليه بعد ذلك ليعارضه فيما ألقى عليه من الوحي كررها عليه جاهلاً بها فحينئذٍ أنكرها عليه جبريل وقال له ما جئتك بهذا فحزن النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ سورة الإسراء وما علموا أن هذه الآية نافية لما زعموا مبطلةً لما رووا لأن قولك (كاد يكون كذا) أي قارب و لم يقع أي لم يفتنوك و لم تفتري علينا غيره و لم يتخذوك خليلاً لعدم وقوع ذلك منك لأنا ثبتناك على الحق وعلى التوحيد والطاعة فلم تركن إليهم ولو شيئاً قليلاً فهذه الآية نافية لما زعموا .

سادساً / قولهم : فما زال مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾سورة الحج فهذه الآية حجة عليهم لا لهم ففيها النص أن الشيطان هو الذي زاد من عنده لا أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي قال وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ مترسلاً ويقف عند كل آية فلما قرأ ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ قال الشيطان يحاكي صوت النبي صلى الله عليه وسلم (تلك الغرانقة العلى وإن شفاعتهن لترتجى) فأما المشركون والذين في قلوبهم مرض لقلة البصيرة وفساد السريرة فتلوها عن النبي ونسبوها بجهلهم إليه وعلم الذين أوتوا العلم والإيمان أن القرآن حق من عند الله فيؤمنون به ويرفضون غيره فأين هذا من قولهم ؟ انتهى بتصرف يسير .

ومن الأدلة على بطلان هذه القصة أيضاً ما يلي :

أولاً / أن كثيراً من أهل العلم قد نصوا على أن كل كلام النبي صلى الله عليه وسلم وحيٌ من الله كما قدمنا في أول السورة عند قوله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ وحتى المعارضين قد اتفقوا معهم على أن نطقه صلى

الله عليه وسلم بالقران كله عن وحيٍ من الله ، ومعلومٌ أن وحي الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا يمكن أن يتلاعب به الشيطان ، ولا يمكن أن ينطق النبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الكلمات الشركية وهو المبعوث لمحاربة الشرك والمشركين ونبذ الأوثان فكيف يعظمها بهذه الكلمات وقد قال تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ فلو قد فعل وحاشاه صلى الله عليه وسلم لحق عليه هذا الوعيد .

ثانياً / أن اثبات هذه القصة يوجب تناقض القران وهذا محال لأنه يدعوا في معظمه إلى التوحيد ونبذ الأصنام والأوثان واحتقارها وتسفيه أحلام عابديها بل في سورة النجم نفسها بل في الآيات التي ذكروا فيها هذه القصة احتقار الأصنام كما قال تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ فكيف يعظمها في اثناء احتقارها ، وكيف يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم تَقَوَّلَ بها وهو أعلم الناس بكلام ربه جل وعلا .

ثالثا / لم يصف العرب آلهتهم باسم الغرانيق ولا ذكر في أشعارهم ولا خطبهم ذلك ، حتى يُجْعَلَ تسميتها بذلك مدحاً لها وإنما الغرنوق اسم لطائر وقيل لصغار الأرانب . وكلها ضعيفة لا يمكن أن يمدح بمثلها إله .

رابعاً / اختلاف صيغ الروايات يدل على أنها موضوعة فمرة (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ومرة (وإنهم من الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ومرة (تلك الغرانيق العلى وشفاعتهن ترتجى مثلهن لا ينسى) ومرة تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها وهو يصلي ومرة وهو ساهٍ ومرة وهو متيقظ . فدل على أن القصة ملفقة من وضع الزنادقة كما قال إمام الأئمة بن خزيمة فكلٌ يضع ما يحلوا له إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد كما قال بن حزم .

خامساً / أن أصل الرواية مذكورة في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد وسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن ولم يذكر فيها قصة الغرانيق وكذلك ذكرها أصحاب السنن والمسانيد وليس فيها ذكرٌ لقصة الغرانيق ولو كانت موجودة لما أهملت .

سادساً / أنها لو حدثت هذه القصة فعلاً لارتد كثير ممن أسلم ولعبد الأصنام لمدحها ولتناقض القران فلما لم يذكر المؤرخون أنها حصلت ردة جماعية بل لم يذكر أحد ممن روى هذه القصة أنها حصلت ردة ولو فردية مع أنها لو حصلت لكانت دليلاً قاطعاً على بطلان القران وتناقضه ولكانت مدخلاً للمشركين للتأثير على من أسلم كما فعلوا في قصة الإسراء والمعراج .

سابعا / ذكر بعضهم أن هذه القصة من وضع كفار قريش تبريراً لسجودهم مع النبي صلى الله عليه وسلم حين سجد في آخر السورة وإنما كان سجودهم انبهاراً بالآيات وخوفاً من الوعيد .

ثامناً / أنه لم يصحح أحد من أهل العلم الثقات شيئاً من الروايات لا مفردة ولا مجموعة إلا ابن حجر فصححها مجموعة وقال كثرة طرقها تدل على أن لها أصلاً إلا أنه قال بعصمة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لا يقر على خطأ . وقد رد عليه جماعة من أهل العلم واعتبروا هذه سقطة من عالم لأن كثرة الطرق لا تساوي شيئاً إذا جاءت من جهة الكذابين والوضاعين ومعظم الروايات فيها مثل هؤلاء أو مجاهيل أو هي مرسلة والمرسل من أقسام الضعيف لجهالة الواسطة بين التابعي وبين الرسول صلى الله عليه وسلم فيحتمل أن يكون تابعياً آخر هو من هؤلاء ولذلك أرسل ولم يذكر السند ربما لأنه يراه ثقةً وغيره يراه وضاعاً فالمقصود أن المرسل ضعيف وكل الروايات مرسلة والمسند منها معلول .

وذكر الألباني أن الذي رجحه بن العربي وابن حجر وابن تيمية أن الشيطان هو الذي تكلم بذلك وألقاه في مسامع أوليائه .

وأما سبب سجود المشركين مع النبي صلى الله عليه وسلم في نهاية السورة فبين الألوسي ذلك بأنه ليس لأنهم سمعوا مدح آلهتهم ولكن يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشةٍ أصابتهم وخوف اعتراهم عند سماع السورة لما فيها التهديد والوعيد كقوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ٥٤ ﴾ فاستشعروا نزول مثل ذلك بهم ، أو لأنها ذكرت آلهتهم بالاسم ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ ﴾ والمفعول محذوف فقدروه بحسب شهواتهم أو على أن المفعول ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ ﴾ فظنوا أن الذم منصب على كونها إناث وليس كون عبادتها شرك .

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ ﴾ وذلك تسميتهم لمعبوداتهم من الأصنام والملائكة بنات الله ، وكانوا يكرهون البنات ويئدونهن ويستبقون الذكور ، فكرهوا لأنفسهم أن ينسب لهم البنات ، ونسبوا لله البنات ، فعابهم الله بتلك القسمة العوجاء الظالمة كقوله تعالى ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِمۡ مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢ ﴾ سورة النحل وكقوله تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩ ﴾ سورة الزخرف.

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾ تلك القسمة وهي نسبة ما يكرهون لله ونسبة ما يحبون لأنفسهم قسمة جائرة غير عادلة روى الطبري أن ابن عباسٍ قال : تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ جَائِرَةٌ لاَ حَقَّ فِيهَا . وعن قتادة قال : جائرة . وعن سفيان : منقوصة . وعن ابن زيد : مخالفة .انتهى وقال البخاري : قال مجاهد ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ عَوْجَاءُ . وقال القرطبي : جائرة عن العدل خارجة عن الصواب ، مائلة عن الحق يقال : ضاز في الحكم أي جار ، وضاز حقه يضيزه ضيزاً- عن الأخفش- أي نقصه وبخسه. قال: وقد يهمز فيقال ضأزه يضأزه ضأزا وأنشد: فإن تنأ عنا ننتقصك وإن تقم ... فقسمك مضئوز وأنفك راغم وقال الكسائي: يقال ضاز يضيز ضيزاً ، وضاز يضوز ضوزاً ، وضأز يضأز ضأزاً ، إذا ظلم وتعدى وبخس وانتقص ، قال الشاعر : ضازت بنو أسدٍ بحكمهم ... إذ يجعلون الرأس كالذنب . انتهى. قال بن كثير : تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفها .انتهى

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ ما اللات والعزى ومناة ونحوها من الأصنام والمعبودات التي تعبدونها من دون الله آلهةً حقاً وإنما هي أوثان اخترعتم لها أسماءً سميتموها بها أنتم أو ورثتم عن آباؤكم تلك الأسماء فاتبعتموهم بلا علم ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ وليس لكم في ذلك حجة ولا دليل أنزله الله تستدلون به على الإذن بعبادتها ولكن ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ الشك ﴿ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ ورغبات النفوس ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ جاءهم الوحي الذي أوحاه الله إلى أنبيائه ورسله والكتب التي أنزلها عليهم وفيها الدلالة على الحق والرشاد لمن اتبعها وجاء فيها أن العبادة لا تصلح إلا لله وحده . وأن هذه الأصنام والأوثان ليست بآلهة ، وأن عبادتها شرك ، وأن عابديها في النار . قال بن زيد ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ فما انتفعوا به . قال القرطبي : وقراءة العامة (يَتَّبِعُونَ) بالياء. وقرأ عيسى بن عمرو أيوب وابن السميقع (تتبعون) بالتاء على الخطاب وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس .انتهى

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ سؤال استنكاري أي ليس للإنسان أن يحصل كل ما تمنى أي اشتهى وإنما ذلك لله فإن شاء أعطاه وإن شاء منعه وسواءً كان ذلك الأمر في الدنيا أو في الآخرة ولذلك قال تعالى ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾ ملكٌ خالصٌ له سبحانه هو الذي يعطي أهلهما ما يشاء فيهما ويمنعهم مما يشاء فليس ذلك إلى إرادة الإنسان وتمنيه .

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ كم للكثرة كما أنَّ رُبَّ للتقليل . ومن ليست للتبعيض وإنما لبيان الجنس ، أي أن ملائكة السماء وهم كثيرون ومقربون من ربهم ، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم لأحدٍ شيئاً عند الله ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾يأذن الله للشافع أن يشفع ، وللمشفوع له أن يُشفع له ، ويرضى بهذه الشفاعة للمشفوع له ، والله لا يرضى إلا عن المؤمن الموحد ، وأما المشرك فلا يرضى عنه ، ولا يأذن بالشفاعة له . قال الطبري: كثيرٌ من ملائكة الله لا تنفع شفاعتهم عند الله لمن شفعوا له شيئاً ، إلا أن يشفعوا له من بعد أن يأذن الله لهم بالشفاعة لمن

يشاء منهم أن يشفعوا له ويرضى ، يقول : ومن بعد أن يرضى لملائكته الذين يشفعون له أن يشفعوا له فتنفعه حينئذ شفاعتهم ، وإنما هذا توبيخٌ من الله تعالى ذكره لعبدة الأوثان والملأ من قريش وغيرهم الذين كانوا يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ من (٣) سورة الزمر فقال الله جلّ ذكره لهم : ما تنفع شفاعة ملائكتي الذين هم عندي لمن شفعوا له إلا من بعد إذني لهم بالشفاعة له ورضاي ، فكيف بشفاعة من دونهم ، فأعلمهم أن شفاعة ما يعبدون من دونه غير نافعتهم . انتهى وقال بن حيان : قرأ الجمهور : شَفَاعَتُهُمْ ، بإفراد الشفاعة وجمع الضمير . وزيد بن علي : شفاعته بإفراد الشفاعة والضمير وابن مقسم : شفاعاتهم ، بجمعهما ، وهو اختيار صاحب الكامل أي القاسم الهذلي. وأفردت الشفاعة في قراءة الجمهور لأنها مصدر ، ولأنهم لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً ، فإذا كانت الملائكة المقربون لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذن اللّه ورضاه ، أي يرضاه أهلاً للشفاعة ، فكيف تشفع الأصنام لمن يعبدها . انتهى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله كما قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة الزخرف وقال تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ سورة النحل قال تعالى ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ وليس قولهم هذا مبنياً على علم عن حقيقة الملائكة وهل هم إناثٌ أم ذكور بمشاهدة خلقهم أو خبرٍ عنهم تلقوه من كُتُب الله أو ورثوه عن أنبياء الله وإنما مستندهم الظن وهو التقول بالشكوك والأوهام ، والظن ليس من الحق في شيء ، فلا يقوم مقام الحق في إفادة العلم .

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ أي صد عن كل شخصٍ أدبر عن ذكر الله فلم يؤمن به وكان غاية همه الحياة الدنيا والتنعم فيها ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي هذا مستوى عقولهم يحسبون أنهم قد علموا علماً عظيماً حينما علموا بعض أمور الدنيا ونسوا أن العلم الحقيقي هو العلم بالله وما يوصلهم إلى رضاه وجنته في الدار الآخرة . قال القرطبي : أي إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم. قال الفراء : صغرهم وازدرى بهم ، أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله .انتهى وقال بن كثير : أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا إليه...وفي الدعاء المأثور (اللهم لا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنَا ، ولا مَبْلَغَ علمنا) .انتهى

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أي حاد عن الحق فلم يؤمن به ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾ سلك سبيل الهداية والإيمان ، يعني فيجازي كلاً بحسب عمله . فالآية في سياق التهديد والوعيد . ويمكن أن تكون في سياق التطمين للنبي صلى الله عليه وسلم وأنه لم يقصر في الدعوة والتبليغ حينما لم يؤمن هؤلاء ، ولكن جرى عليهم ذلك بما قدَّره الله لهم في سابق علمه بعدله فيمن كفر ورحمته بمن آمن ، فالله هو الذي خلق الخلق وعلم ما هم عاملون فقدَّره لهم بناءً على علمه باختيارهم ، فلا ظلم في قدره ، ولا جور في حكمه ، بل هو العدل الحكيم .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ كلما في السماوات والأرض هو ملكٌ لله ، والمالك يتصرف في ملكه كيف يشاء فيضل من يشاء بعدله ، ويهدي من يشاء برحمته ، ولم يظلم أحداً من خلقه ، وإنما يجازيهم بعملهم الذي اختاروه وفق إرادتهم ولذلك قال ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰٓ ﴿٣١﴾ ﴾ وهي الجنة ، أي يجزيهم بمقتضى عملهم ، فلا حجة لأحدٍ في قدر الله أن يقول قدَّر الله علي أن أضل ، وما يدريك أن الله قدَّر عليك أن تضل ، لماذا لم تقل قدَّر الله علي أن أهتدي فتعمل بعمل أهل الهداية ، وإنما قدَّر الله عليك الضلالة إن ضللت لأنه علم في سابق علمه أنك ستختار طريق الضلالة فقدره عليك بناءً على علمه باختيارك لا بالتشهي والهوى لأنه ظلمٌ والله جل وعلا منزهٌ عن الظلم كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ من (٤٠) سورة النساء وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ سورة يونس فخذ هاتين الآيتين قاعدةً في حياتك إن مرَّ عليك أمرٌ من قدر الله أو حكمه وَلَبَّسَ عليك الشيطان فيه فاعلم أنك لم تستطع أن تستوعب الحكمة منه وأنه عدل لا ظلم وحق لا باطل .

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ بين الله جل وعلا في هذه الآية الذين يستحقون دخول الحسنى وهي الجنة فقال ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ﴾ أي يتعدون ويتركون ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ ﴾ كبائر جمع كبيرة والإثم الذنب. أي يتركون ويتعدون عن كبائر الذنوب وقد عددها النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث متفرقة ومنها قول النبي صلى الله عليه وسلم (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ) متفق عليه وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْكَبَائِرِ قَالَ (الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ) متفق عليه ونحو ذلك من الأحاديث وقد عدد الذهبي الكبائر في كتابٍ له أسماه كتاب الكبائر وبلَّغها السبعين كبيرة .

﴿ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ جمع فحشاء وفاحشة . وقال في تاج العروس : الفَوَاحِشُ جَمْعُ الفَاحِشَةِ والفَحْشَاءُ : اسْمُ الفاحِشَةِ .انتهى والفحش القبيح الشنيع من قول أو فعل وكل شيءٍ جاوز حده فهو فاحش . قال طرفة بن العبد :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد : أي البخيل الذي جاوز حده في الإمساك .

وأما في تفسير هذه الآية فقد قال السدي : الفواحش الزنا . وقال الطبري : الفواحش الزنا وما أشبهه مما أوجب الله فيه حداً وقال ابن عباسٍ ومقاتل والطبراني : كبائرُ الإثمِ هو كلُّ ذنبٍ خُتِمَ بالنار ، والفواحشُ كلُّ ذنبٍ فيه حَدٌّ . فخصوا الفاحشة بهذا الأمر وإن كان هو في اللغة أشمل كما قدمنا وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالُوا : السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. قَالَ (وَعَلَيْكُمْ). قَالَتْ عَائِشَةُ : قُلْتُ بَلْ عَلَيْكُمُ السَّامُ وَالذَّامُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (يَا عَائِشَةُ لاَ تَكُونِي فَاحِشَةً) فَقَالَتْ مَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا فَقَالَ (أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِى قَالُوا قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ) قال القرطبي في شرح مسلم : أي : لا يصدر عنك كلامٌ فيه جفاء . والفحش : ما يستفحش من الأقوال

والافعال . غير أنَّه قد كثر إطلاقه على الزنى وهو غير مرادٍ هنا قطعًا . وهذا منه صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها أمر بالتثبت ، والرفق ، وترك الاستعجال وتأديبٌ لها لما نطقت به من اللَّعنة وغيرها .انتهى.

﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ اختلفوا في الاستثناء هاهنا هل هو استثناء متصل أو منقطع فقيل هو استثناء متصل والمعنى ألم بكبائر الإثم والفواحش ثم تاب منها . قال ابن عباس : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب منها . وهو قول الحسن وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن وعن أبي صالح قال : سئلت عن اللمم فقلت : هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب . وأخبرت بذلك ابن عباس فقال : لقد أعانك عليها ملكٌ كريم .

وقيل هو استثناء منقطع فتكون إلا بمعنى لكن واللمم مقاربة الشيء من غير دخولٍ فيه والمراد صغائر الذنوب لأنها تقرب صاحبها من الكبائر لكنه لم يدخل فيها ولذلك قال بن عباس : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) وهو قول بن مسعود وأبي هريرة وابن الزبير وعطاء وعكرمة . قال ابن مسعود زنا العينين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإلا فهو اللمم . وقال أبو هريرة : هي النظرة والغمزة والقبلة والمباشرة فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا. وقال عطاء : هو ما دون الجماع. وقال عكرمة : الضمة والقبلة والشمة.

وكلا المعنيين صحيح فإن التوبة تكفر الكبائر ولا خلاف في ذلك إلا في القتل نُسِبَ إلى ابن عباسٍ نفي قبول التوبة عن صاحبه وهو خطأ محض لمخالفته للكتاب وصريح السنة في قبول توبة القاتل ، وأما الصغائر فقد دلت الدلائل من الكتاب والسنة على أن الصغائر تكفرها الأعمال الصالحة من توحيدٍ وصلاةٍ وصيام وحج وزكاة ونحو ذلك كما قال تعالى ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾سورة النساء وقال صلى الله عليه وسلم (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ) متفق عليه

﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ يغفر الصغائر ولو لم يتب صاحبها إذا واظب على الفرائض واتبعها النوافل ، ويغفر الكبائر لمن تاب منها . وقد يغفر الله لمن شاء من عباده الصغائر والكبائر كلها بإخلاصه وتوحيده في عبادة ربه كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾من (٤٨) سورة النساء وفي الحديث القدسي (وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً) رواه مسلم

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ الله أعلم بعباده برهم وفاجرهم منذ خلق أصلهم وهو آدم من تراب الأرض . ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ وعلم الشقي من السعيد منهم وهو جنين في بطن أمه ، والأجنة جمع جنين وهو

الولد ما دام في البطن سمي جنيناً لاجتنانه أي استتاره . ومنه سمي الجن لاستتارهم عن الأعين ، والجنة لاستتارها بأشجارها وخضرتها . ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾ فلا تبرئوا أنفسكم من الذنوب والعصيان فإن الله أعلم بمن أتقاه فاجتنب معاصيه ، وقيل المعنى لا تمدحوها وتثنوا عليها يعني بفعل الطاعات لأن ذلك أقرب للخشوع وأبعد عن الرياء ولأن المدح للنفس طريق إلى العجب والغرور وربما الكبر فيستكثر في نفسه عمله الذي عمله لله فيدلي بعمله على الله وكأن له المنة على الله وما علم أن المنة لله في أن وفقه للعمل الصالح وأنه مهما عمل فما زال مقصراً في حق الله ولن يدخله عمله الصالح الجنة وإنما يدخله الله الجنة برحمته إن رحمه . وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ قَالَ سَمَّيْتُ ابْنَتِي بَرَّةَ فَقَالَتْ لِي زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سَلَمَةَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنْ هَذَا الاِسْمِ ، وَسُمِّيتُ بَرَّةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (لاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمُ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ). فَقَالُوا بِمَ نُسَمِّيهَا قَالَ (سَمُّوهَا زَيْنَبَ) رواه مسلم .

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن مدح الغير في وجهه إذا خشي عليه الفتنة من المدح فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ (وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ مِرَارًا ثُمَّ قَالَ – مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلاَنًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ وَلاَ أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا ، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ) متفق عليه وعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم رَجُلاً يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ فِي مَدْحِهِ فَقَالَ (أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ) متفق عليه وعَنْ أَبِي مَعْمَرٍ قَالَ قَامَ رَجُلٌ يُثْنِي عَلَى أَمِيرٍ مِنَ الأُمَرَاءِ فَجَعَلَ الْمِقْدَادُ يَحْثِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَقَالَ أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ نَحْثِيَ فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ. رواه مسلم وذلك لأن المدح يدعوا إلى التعاظم واستصغار الغير ، وإن كان مدحه لدينه كان ذلك سبباً في العجب بالنفس والغرور والتباهي والكبر ، فمن أُمن عليه من ذلك جاز مدحه ، فقد مُدِحَ النبي صلى الله عليه وسلم ومُدِحَ غيره من الصحابة و لم ينكروا على المدَّاحين .

﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾ أدبر وأعرض عن الإيمان والتوحيد . ﴿ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾ أعطى شيئاً قليلاً ثم قطع عطاءه . قال ابن عباسٍ ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ﴿ وَأَكۡدَىٰٓ ﴾ : قَطَعَ عَطَاءَهُ . وأصله من الكِدْيَةِ وهو حجَرٌ يظهرُ في البئرِ فيمنع من مواصلة الحفر فينقطع عند ذلك الحافر ويأس من الماء . وقد قيل إنها نزلت في رجل أسلم فعاتبه صاحبٌ له على تركه دين آبائه وأجداده واستنقاصهم . فقال : خشيت العذاب . فقال أنا أتحمل عنك عذاب الآخرة إن رجعت إلى دين آبائك على أن تفرض لي عطاءً . فأطاعه فارتد وتولى عن الإيمان وفرض لصاحبه عطاءً ، وأعطاه قليلاً من المال ثم قطع عنه العطاء . قال الماوردي : فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه العاص بن وائل السهمي قاله السدي .

الثاني : أنه الوليد بن المغيرة المخزومي قاله مجاهد كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه يسمع ما يقولان ثم يتولى عنهما .

الثالث : أنه النضر بن الحارث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه وضمن له أن يتحمل مأثم رجوعه قاله الضحاك .انتهى .

وقيل معنى﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي أطاع الله قليلاً ثم عصى . والأول أشهر عند المفسرين .

﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ الخطاب قد يكون للضامن ، وقد يكون للمضمون له ، وقد يكون لهما جميعاً ، أي هل عندهم علم ما غاب علمه عن الخلق وهو يوم القيامة وما يكون فيه من الحساب والجزاء حتى يدركا أنه يجوز لشخصٍ أن يتحمل وزر صاحبه وعذابه نيابةً عنه . ولكن سياق الآيات يدل على أن المراد المضمون له لأنه هو الأكثر غبناً حيث خسر ماله لصاحبه في الدنيا، وخسر الإيمان بتوليه عنه وخسر الآخرة لأنه لن يتحمل عنه صاحبه وزره وعذابه في الآخرة .

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ أم لم يخبر بما في صحف موسى وهي التوراة ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ وبما في صحف إبراهيم الذي وفى ما فرض الله عليه فلم ينقص منه شيئاً . قال بن عباسٍ : اسْتَكْمَلَ الطَّاعَةَ فِيمَا فَعَلَ بِابْنِهِ حِينَ رَأَى الرُّؤْيَا . وقال مجاهد : وَفَّى مَا فُرِضَ عَلَيْهِ . وقال سعيد بن جبير وسفيان وابن زيد : بَلَّغَ ما أُمر به . وقال قتادة : وَفَّى طَاعَةَ اللَّهِ ، وَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ إِلَى خَلْقِهِ . وهذا من اختلاف التنوع فإن تبليغه للرسالة وطاعته ربه في ذبح ابنه كله داخلٌ في وفاءه بما فرض الله عليه . فكان قول مجاهد عام وقول البقية فردٌ من أفراد العام .

﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ وقد تضمنت صحف إبراهيم وموسى أنه لا يتحمل الشخص ذنب غيره . قال الطبراني : يقال : وَزَرْتُ الشَّيْءَ أَزِرُهُ إذا حَمَلْتَهُ ، والأَوْزَارُ : الأحمالُ ، ويسمَّى الإثمُ وزْراً لأن الإثمَ يُثقِلُ صاحبَهُ ، كما قال تعالى ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾سورة الشرح ويسمَّى الوزيرُ وزيراً ليَحمِلَ ثقلَ المللكِ في قيامهِ بالتدبُّر. انتهى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ وأن الإنسان لا يأخذ إلا جزاء عمله ، فليس له أن يأخذ أجر عمل غيره ولا وزر عمل غيره . وقد اختلفوا في هذه الآية لأنه قد ثبت في الأحاديث الصحاح أنه يجوز أن يصام عن الشخص وأن يحج عنه وأن يتصدق عنه فدل على أنه يصله ثواب سعي غيره له ، فقيل إن هذه الآية منسوخة بهذه الأحاديث وهو مرويٌ عن ابن عباس ، وقيل هذه الآية خاصة بقوم إبراهيم وموسى عليهما السلام وهو قول عكرمة ، وقيل المراد بالإنسان هاهنا الكافر فلا ينفعه عمل غيره له ، وأما المؤمن فينفعه عمل غيره له ، وهو قول الربيع بن أنس ، وقيل ما ورد في الأحاديث داخلٌ في سعيه فإنه سعى في تحصيل ولدٍ ومحبة قرابةٍ وأهل خيرٍ بخلقه وحسن معاملته ودعوته إلى الخير وتعليمه إياه فكان عملهم له بناءً على سعيه فكان من سعيه ، وهناك أقوالٌ أخر لكن هذه أقواها ولعل الأخير هو الأرجح والعلم عند الله تعالى.

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ وأن عمله الذي عمله من خيرٍ أو شر سوف يراه أمامه في كتابٍ قد سطرته عليه الملائكة ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ ثم يأخذ جزاء عمله وافياً إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ منتهى الخلائق إلى الله فإليه يرجعون وعنده يحاسبون . وقيل المراد انتهاء التفكير فلا فكرة في الرب وإنما في مخلوقاته ، فلا يستطيع الفكر أن يعرف كنه الرب ذاته وصفاته ، وقد يسول الشيطان للإنسان فيقول من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق الله ؟ فإذا بلغ ذلك فلينته وليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، وليعلم أن الله هو الخالق وما سواه مخلوق ، والخالق لا خالق له ، فهو الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء كما في الحديث (أنت الأول فليس قبلك شيء ، والآخر فليس بعدك شيء ، والظاهر فليس فوقك شيء ، والباطن فليس دونك شيء) قال البغوي : وهذا مثل ما رُوي عن أبي هريرة مرفوعا (تفكَّروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق ، فإنه لا تحيط به الفِكْرة) وأنكره بن كثير فقال : كذا أورده وليس بمحفوظ بهذا اللفظ ، وإنما الذي في الصحيح (يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول: من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله وَلْيَنْتَه) لكن ذكر محقق بن كثير في الحاشية أنه ورد عن أبي ذر مرفوعاً (تفكروا في خلق الله ، ولا تتفكروا في الله فتهلكوا) نسبه إلى أبي الشيخ في العظمة . وهذا التفسير الأخير منسوب إلى سفيان الثوري ولكن سياق الآيات يدل على الأول .

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار . وهو للترغيب والترهيب ، وقيل المراد بيان قدرة الله وأن كل شيءٍ واقعٌ تحت قضاءه وقدره حتى الضحك والبكاء ، فأضحك من شاء وأبكى من شاء في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ أمات الخلائق في الدنيا فلم يمتنع منه ملك بجنوده ولا غنيٌّ بماله ولا ذو حسبٍ بحسبه . وأحيا الخلائق في الآخرة للحساب والجزاء . فلم ينسى منهم أحداً كما قال تعالى ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾سورة مريم وكذلك أحياهم في الدنيا بأن نفخ فيهم الأرواح بعد أن كانوا موتى . وكذلك النوم في الدنيا فإنه موتٌ وحياة ، وكذلك في الدنيا أحيا قوماً بعد ما أماتهم كما في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت فأماتهم الله ثم أحياهم ، وبني إسرائيل حين قالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فأماتهم الله ثم أحياهم ، وقصة عزير ، وقصة طيور إبراهيم ، وغير ذلك كل أولئك وغيرهم الله جل وعلا هو الذي أماتهم ثم أحياهم .

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ صنفين من كل المخلوقات ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ قال ابن الجوزي في زاد المسير : فيه قولان : أحدهما : إذا تُراق في الرَّحِم ، قاله ابن السائب . والثاني : إذا تُخْلق وتُقَدَّر .انتهى وقال الطبري : خلق ذلك من نطفةٍ إذا أمناه الرجل والمرأة .انتهى فالنطفة تراق من الذكر والأنثى فتنزل في الرحم فتخلق وتقدر ذكراً أو أنثى .

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ ﴾ أي إعادة خلقهم في الآخرة .

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ قال البخاري : قال بن عباس : أَعْطَى فَأَرْضَى .انتهى. وقال مجاهد والحسن وقتادة : موَّل وأخدم . لأن الخادم وهو العبد يسمى قناً فيكون معنى ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أي جعل له قناً . وعن مجاهد ومقاتل : موَّل ورضَّى .

كقول ابن عباس . وعن قتادة : مول وأخدم ورضَّى . فجمع بين القولين وإن لم يكن بينهما تضاد لأنهما من اختلاف التنوع لا التضاد فإنه إذا موَّله وأخدمه فسيرضى بذلك العطاء حتماً إلا من كان في قلبه مرضٌ فلا عبرة به .

وعن ابن عباسٍ : أكثر وقنَّع . وهو بمعنى الأول أي أكثر له العطية وقنعه بما أعطاه فرضي به . قال في لسان العرب : أَغناه اللهُ وأَقْناه ، أَي أَعطاه ما يَسكُن إليه .انتهى ويمكن أن يكون من المتضاد أي أكثر لشخصٍ العطاء وقنَّع الآخر بالقليل الذي أعطاه . قال الفراء : أقنَى : رَضَّى الفقيرَ بما أغناه به . ولذلك قال بن زيد : أغنى من شاء من خلقه ، وأفقر من شاء منهم .

وقال الحضرمي بن لاحق وسليمان التيمي : أغنى نفسه وأفقر الخلق إليه . ونُسِبَ للأخفش أنه قال ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أي أفقر . وذلك لأن أقنى تأتي في اللغة بمعنى منع. قال في تاج العروس : قُنِيَتِ الجارِيَةُ تُقْنَى قِنْيةً على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه إذا مُنِعَتْ مِن اللَّعِبِ مع الصبيان . انتهى وقال ابن شميل : قَناني الحَياءُ أَن أَفعل كذا أَي رَدَّني ووعظَني وهو يقنيني وأَنشد :

وإِنِّي لَيَقْنِيني حَياؤُكَ كلَّما لَقِيتُكَ يَوْماً أَنْ أَبُثَّك ما بِيا أي منعني الحياء من فعل ذلك .

ولذلك كان تفسير بعضهم ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أي أفقر لأجل ذلك فيكون المعنى : أعطى ومنع . أعطى لشخصٍ الغنى ومنع منه آخر فأفقره ، وقالوا إن هذا يتناسب مع سياق الآيات التي تجمع بين الضدين فإنه تعالى قال ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ فكان من المناسب أن يكون معنى ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ أي أغنى وأفقر وذلك لبيان كمال القدرة الإلهية والحكمة الربانية في خلق المتضادات وتصريفها على ما يشاء .

وقيل أغنى بالمال وأقنى من القنية وهذا مرويٌ عن أبي صالح وقتادة والضحاك . والقنية أي الاقتناء والمقتنيات هي الأموال التي تبقى أصولها وينتفع بنتاجها كالإبل والبقر والغنم وكذا الجواهر والعقار ونحو ذلك . قالَ ابنُ الأعْرابي: أَعْطاهُ ما يدَّخِرُه بعْدَ الكِفايَةِ . انتهى من تاج العروس . وقال في تهذيب اللغة : قال أبو عبيدة : أَغْنَى اللهُ الرجل حتى غَنِي غِنًى ، أي : صار له مالٌ ، وأَقْناه اللهُ حتى قَنِيَ قِنًى ، وهو أن يصير له قُنيةٌ من المال .انتهى وقال في تهذيب اللغة أيضاً : قال أبو إسحاق : قيل في أَقْنى قولان : أحدهما : أَقْنَى : أرْضَى ، والآخر : جُعِل الغِنى أصلاً لصاحبه ثابتاً . ومِن هذا قولُك : اقتَنَيْتُ كذا وكذا ، أي: عَمِلتُ على أنّه يكون عندي لا أخرجه مِن يَدي .انتهى ولذلك قيل في كتب اللغة أن أقنى تأتي بمعنى لزم لأنه يلتزم أصل المال فلا يخرجه ويستفيد من نتاجه . قال في تهذيب اللغة : قال الكسائيّ: أَقْنَى واستَقْنَى وقَنَا وقَنَّى : إذا حَفِظ حياءَه ولَزِمه وقال غيره : قنيتُ الحياء أي : لزِمتُه . انتهى ومنه قول عنترة العبسي :

فاقني حياءك لا أباً لك واعلمي أنّي امرؤٌ سأموتُ إن لم أُقْتَلِ . أي ألزمي حياءك .

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ ﴾ كوكب يتبع الجوزاء يسمى الشعرى ويسمى مرزم الجوزاء كان بعض العرب يعبده في الجاهلية فبين الرب جل وعلا أنه هو رب هذا الكوكب فهو المستحق أن تصرف له العبادة لا لهذا الكوكب ولا لغيره .

ثم بين تعالى أن من خالف أمره وعبد غيره فسيكون مستحقاً للعقاب في الدنيا والآخرة وذكر ما أحلّ بالأمم المكذبة من العقوبة فقال ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ عاد هم قوم هود وسميت بالأولى لأنها من أول الأمم المكذبة التي أحل الله بها العقوبة بعد قوم نوح وهو قول بن زيد ، وذكر الطبري أن عاداً انقسمت إلى قسمين فقسمٌ كانوا بالأحقاف وهم الذين حلّ بهم العذاب ، وقسم وهم أبناء لُقَيم بْنِ هَزَّالِ بْنِ هُزَيْلِ بْنِ عُتَيْلِ بْنِ صِدِّ بْنِ عَادٍ الأَكْبَرِ نزلوا مكة قبل ذلك فسلموا من العذاب وسموا عاداً الآخرة ثم هلكوا بعد ببغي بعضهم على بعض حتى تفانوا . وقال بن جريج : كانت الآخرة بحضر موت. وقال ابن إسحاق : هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصرصر ، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة .نقله القرطبي في تفسيره وهو بعيد لأن الذين أهلكوا بالصيحة هم ثمود وليست عاد ، إلا أن أراد أن ثمود من نسل عاد فسمى الله قوم هود عليه السلام بالأولى تمييزاً لهم عن نسلهم وهم ثمود وهذا بعيدٌ أيضاً لأنه يحتاج أولاً إلى إثبات أن ثمود هم من نسل عاد وثانياً لو ثبت ذلك فقد انفردت ثمود باسمهم فهم متميزين بذلك فلا يُحتاج إلى تمييزهم عن عاد بذكر عادين لأن ذلك إلى التعمية أقرب منه إلى التوضيح وذلك خلاف منهج القران .

﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ أي أهلك ثمود فلم يبقي من كفارهم أحداً إلا هلك ، أو لم يبقهم في الحياة بلا عذاب بل أهلكهم بسبب كفرهم وتكذيبهم لنبيهم صالح عليه السلام ، وهو تهديد لكفار قريش بأن هذا العذاب الذي حلّ بثمود سيحل بهم ولن يبقيهم الله بلا عذاب إذا استمروا في كفرهم وتكذيبهم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُوا۟ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي أكثر ظلماً وطغياناً من عادٍ وثمود ، وقيل الضمير يعود على الجميع أي أن عاداً وثمود وقوم نوح كانوا أظلم وأطغى من كفار قريش وفي ذلك تصبيرٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وتسليةً له أن الأنبياء عليهم السلام قد عانوا من أقوامهم أكثر مما عانيت .

﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ لَقَبُ قومِ لوط ، سموا بالمؤتفكة أي المنقلبة لأن جبريل عليه السلام رفع قرى قوم لوطٍ عليه السلام في السماء ثم قلبها على وجهها وأهوى بها إلى الأرض . وقيل المؤتفكة أي المنخسفة لأنهم قد انخسفت بهم الأرض بعدما حلّ بهم العذاب فهووا في باطنها ، وقيل سموا بالمؤتفكة من الإفك وهو الكذب قال بن عباس ﴿ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي المكذبين أهلك .كما نقله الطبري . والهوي السقوط من أعلى إلى أسفل ، وذلك حين رفع جبريل عليه السلام قراهم إلى السماء ثم قلبها فأهوى بها إلى الأرض فأسقطها من أعلى إلى أسفل ، أو حين انخسفت بهم الأرض فسقطوا في باطنها ، وفسرت بمعنى أهلك لأن من حلّ به عذاب الله فهو أعظم الهاوين .

﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ من العذاب الأليم ، والإبهام للتفخيم ، أي لا تستطيعون أن تدركوا الذي غشيهم من العذاب على حقيقته من شدته . والغشاء الغطاء واللباس فكأن العذاب قد غطى قرى قوم لوطٍ جميعها فلم يفلت منها أحد . قال قتادة : غشاها صخراً منضوداً . وقال بن زيد : الحجارة التي رماهم بها من السماء .

وقيل الآية تعود على جميع الأمم المذكورة وهم عاد وثمود وقوم نوح والمؤتفكة أي قد ألبسهم الله جميعاً من العذاب ما ألبسهم . فهذه الآية مبهمة قد جاء تفسيرها في آياتٍ أُخر حيث بيَّن الله فيها نوع العذاب الذي حلَّ بكل قومٍ من هؤلاء.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ فبأي نعماء ربك أيها الإنسان تشك وتجادل وتكذب . قال في تاج العروس : قال الزجَّاج : أي تَتَشَكَّك . وقالَ الفرَّاء : أَي تُكَذِّبُ أَنَّها ليسَتْ منه .انتهى والمرية والامتراء والتماري الشك كما قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾سورة الدخان أي تشكون . وقال تعالى ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾من (١٧) سورة هود أي في شك . والمراء الجِدَالُ كما قال تعالى ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾من (٢٢) سورة الكهف أي لا تجادل أهل الكتاب في أصحاب الكهف إلا ما أظهرنا لك من خبرهم . وأصل الكلمة واحد ولذلك قال بن الأثير : المُمَارَاةُ المُجادَلَةُ عَلى مَذْهبِ الشَّكِّ والرِّيبةِ .انتهى وأما تفسير بعضهم الآية بالتكذيب فذلك لأن الشك في الشيء تكذيبٌ به ولذلك كان الشك في أصول الإيمان كفر لأنه في الحقيقة تكذيبٌ بها ، فالذي يشك مثلاً في وجود الله فهو في الحقيقة مكذبٌ بوجود الله ويريد دلائل حتى يصدق بوجود الله وهكذا البقية .

والخطاب للإنسان الكافر ، ويمكن أن يكون للإنسان عموماً ، وقال ابن جريج الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم . وقال الطبراني : قال ابنُ عبَّاس : يُرِيدُ : فَبأَيِّ نِعَمِ رَبكَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تُشَكِّكُ وَتُكَذِّبُ يَا وَلِيدُ . يعني الوليدَ بن المغيرةِ. انتهى وقال البغوي ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ ﴾ نِعَمِ ربك أيها الإنسان ، وقيل: أراد الوليد بن المغيرة ﴿ تَتَمَارَىٰ ﴾ تشك وتجادل وقال ابن عباس: تكذب .انتهى

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾ اختُلِفَ في المشار إليه بالنذارة فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم قال قتادة : أَنْذَرَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا أَنْذَرَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِهِ . وهو قول بن جريج ومحمد بن كعب وفسر الآية به الفراء وابن كثير والبغوي والطبراني والسعدي .

وقيل هو القران وأنه نذير بما أنذرت به الكتب الاولى . ونسبه القرطبي إلى قتادة .

وقيل : هو العذاب الذي حلَّ بالأمم المذكورة نذيرٌ لكم كما أُنذِرت به الأمم قبلكم . وهو قول أبو مالك وأبو صالح واختيار بن جرير . قال أبو مالك ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾ مِمَّا أَنْذَرُوا بِهِ قَوْمَهُمْ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى. قال بن جرير : وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي ذُكِرَ عَنْ أَبِي مَالِكٍ أَشْبَهُ بِتَأْوِيلِ الآيَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي سِيَاقِ الآيَاتِ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا أَنَّهَا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى الَّتِي جَاءَتِ الأُمَمَ قَبْلَكُمْ كَمَا جَاءَتْكُمْ فَقَوْلُهُ ﴿ هَٰذَا ﴾ بِأَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى مَا تَقَدَّمَه مِنَ الْكَلامِ أَوْلَى وَأَشْبَهَ مِنْهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ .انتهى

ويمكن تفسير الآية بكل هذه المعاني فإنه لا تضاد بينها .

﴿ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ ﴾ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ . كما قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وابن جريج ومقاتل . وقال الطبري : دَنَتِ الدَّانِيَةُ . وَإِنَّمَا يَعْنِي : دَنَتِ الْقِيَامَةُ الْقَرِيبَةُ مِنْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ يُقَالُ مِنْهُ : أَزِفَ رَحِيلُ فُلَانٍ إِذَا دَنَا وَقَرُبَ .انتهى

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي لا أحد يستطيع الكشف عن وقتها وساعة قيامها إلا الله ، وقيل المراد لا أحد يستطيع كشف ورفع ما يكون فيها من أهوال إلا الله . قال بن كثير : أي : لا يدفعها إذًا من دون الله أحد ، ولا يطلع على علمها سواه .انتهى

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ أفمن القران وما فيه من النذارة والبشارة ونحو ذلك تعجبون تعجب المنكر .

﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ تكذيباً واستهزاءً ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ خوفاً من الله وطمعاً في رحمته وتصديقاً بوعده ووعيده .

﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ قال البخاري : قال مجاهد : الْبَرْطَمَةُ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ يَتَغَنَّوْنَ بِالْحِمْيَرِيَّةِ .انتهى. قال بن كثير : قال سفيان الثوري عن أبيه عن ابن عباسٍ قال : الغناء ، هي يمانية اسْمِد لنا: غَنِّ لنا. وكذا قال عكرمة. وفي رواية عن ابن عباس ﴿ سَٰمِدُونَ ﴾ معرضون. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وفي رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السدي .انتهى قال بن جرير ﴿ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ وأنتم لاهون عما فيه من العِبر والذكر ، معرضون عن آياته ؛ يقال للرجل: دع عنا سُمودَك ، يراد به: دع عنا لهوك ، يقال منه : سَمَدَ فلان يَسْمُد سُمُودا. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل وإن اختلفت ألفاظهم بالعبارة عنه فقال بعضهم: غافلون. وقال بعضهم: مغنون. وقال بعضهم: مُبَرْطمون .انتهى والمراد بالبرطمة أي عضُّ البراطم وهي الشفاه غضباً وكرهاً للشيء المذكور له يريد دفعه ومنعه . وقال بعض أهل اللغة أن السمود هو رفع الرأس تكبراً . وقد اجتمعت في المشركين كل هذه الصفات من الاستكبار والبرطمة والإعراض والغفلة واللهو ، فكأنه جيء بهذه الكلمة لتدل على كل هذه المعاني ، والعلم عند الله تعالى .

﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي أخلصوا لله العبادة والخضوع ولا تشركوا معه غيره . وقيل هو أمرٌ بالسجود في الصلاة وقيل عند تلاوة القران وسماعه ، وقد سجد النبي صلى الله عليه وسلم عند هذه الآية وسجد معه من سمعه من الإنس والجن مؤمنهم وكافرهم كما تقدم في أول السورة .

أولاً / عظم المخلوقات يدل على عظمة الخالق فجبريل له ستمائة جناح قد سد الأفق ، وسدرة المنتهى غشيها من البهاء والحسن ما لم يستطع النبي صلى الله عليه وسلم أن يصفه ، فكيف بالخالق العظيم جل وعلا .

ثانياً / أنه ينبغي أخذ التفسير من المصادر الموثوقة فإن التفاسير قد دخلها من الإسرائيليات والحكايات الملفقة كقصة الغرانيق وغيرها فينبغي الرجوع في أخذ التفاسير إلى ما جاء توضيحه وبيانه في القران أو ما صح من الأحاديث أو ما كان موافقاً لقواعد الشرع دون ما خالف ذلك فإنه يعلم بطلانه بذلك .

ثالثاً / تحقير المشركين وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله منهجٌ قرآني ما لم تحصل مفسدة أكبر كسب الله جل وعلا فحينئذٍ يمتنع عنها لأجل ذلك ، وأما من يمتنع عن ذلك لمجرد احترام الأديان كما يقول أو نحو ذلك فهو في ضلال وقد خالف منهج القران .

مكية وآياتها (٥٥)

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اشهدوا) رواه البخاري وعنه قَالَ : انْشَقَّ الْقَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَصَارَ فِرْقَتَيْنِ فَقَالَ لَنَا (اشْهَدُوا اشْهَدُوا) رواه البخاري وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : انْشَقَّ الْقَمَرُ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم. رواه البخاري وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ .رواه البخاري وعنه أيضاً بلفظ : فأراهم القمر شِقَّين حتى رأوا حِرَاء بينهما . رواه البخاري كما نقله بن كثير . وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الأضحى والفطر بِ (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) وَ (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) رواه مسلم

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ انشقاق القمر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من علامات قرب القيامة . وقال بعض المفسرين أن هذه الآية لم تقع بعد وأن انشقاق القمر سيكون عند قيام الساعة قال القرطبي : قال الحسن : اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية. وقيل ﴿ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ أي وضح الامر وظهر، والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح ... وقيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها . انتهى من تفسيره . وأقوالهم هذه تعارض ما ثبت في الصحاح والمسانيد عن جمعٍ من الصحابة أن هذه الآية قد مضت وأن القمر قد انشق على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ويشهد لذلك سياق الآيات بعدها . وقال مجاهد في معنى الآية : يقول كما رأيتم القمر منشقاً فإن الذي أخبرتكم عن ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ حق .

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ أعرض المشركون عن الإيمان بهذه الآية وقالوا سحرنا محمد وزعموا أنه ساحر مستمرٌ في الإتيان بالسحر . وذهب أكثر المفسرين إلى أن معنى مستمر أي ذاهب ، من قولهم : قَدْ مَرَّ هَذَا السِّحْرُ إِذَا ذَهَبَ . أي يقولون أن ما يأتيهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات سحرٌ يوشك أن يذهب وينتهي كما انتهى عمل السحرة من قبل . وذهب بعضهم إلى أن معنى مستمر أي شديد . مِنْ قَوْلِهِمْ : قَدْ مَرَّ الْحَبْلُ : إِذَا صَلُبَ وَقَوِيَ وَاشْتَدَّ . ذكر ذلك الطبري في تفسيره . وقال القرطبي ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾: أي ذاهب ، من قولهم : مر الشيء واستمر إذا ذهب ، قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء والكسائي وأبو عبيدة واختاره النحاس. وقال أبو العالية والضحاك: محكم قوي شديد ، وهو من المرة وهي القوة... وقال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شدة فتله. وقيل: معناه مر من المرارة. يقال: أمر الشيء صار مراً ، وكذلك مر الشيء يمر بالفتح مرارةً فهو مر ، وأمره غيره ومره. وقال الربيع: مستمر نافذ. يمان: ماض. أبو عبيدة: باطل. وقيل: دائم. وقيل: يشبه بعضه بعضاً ، أي قد استمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيءٍ له حقيقة بل الجميع تخييلات. وقيل: معناه قد مر من الأرض إلى السماء .انتهى .

قال السيوطي : أخرج ابن جرير وَابن المنذر وَابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق مسروق عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة فقالوا : انتظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم فجاء السفار فسألوهم فقالوا : نعم قد رأيناه فأنزل الله ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ انتهى من الدر . وقرأت لبعض النصارى إنكار ذلك وأنه لو وقع لما أغفله مؤرخو النصارى . قلت : بلى يغفلونه ، لأن فيه تصديق النبي صلى الله عليه وسلم وذلك دعوة للإسلام ، وقد حرفوا كلام الله تعالى في التوراة والإنجيل للصد عن الإسلام ، أفلا يحرفون التأريخ وينكرون بعض الوقائع . ثم الأوقات تختلف من بلدٍ إلى بلد فليس وقت أهل المشرق هو نفس وقت أهل المغرب فقد يكون وقت الليل في بلد هو وقت النهار في بلدٍ آخر أو في ساعاتٍ مختلفة منه لم يخرج فيها القمر بعد عند ذلك البلد أو قد غاب ومضى عند البلد الآخر ، هذا إذا قلنا بشفافيتهم وصدقهم فيما نقلوه من التواريخ .

﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ وكذبوا بهذه الآية وبما جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم واتبعوا ما تمليه عليهم رغباتهم وشهواتهم ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ ﴾ الواو استئنافية وليست للعطف والمعنى كل أمرٍ من خيرٍ أو شر سيبلغ منتهاه الذي كتبه الله في اللوح المحفوظ ، فينتهي الشر بأهله إلى النار ، وينتهي الخير بأهله إلى الجنة . قال الطبري : وكلّ أمرٍ من خيرٍ أو شرّ مستقرٌ قراره ، ومتناهٍ نهايته ، فالخير مستقرّ بأهله في الجنة ، والشرّ مستقرّ بأهله في النار .انتهى وقال السعدي أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه ، وسيصير الأمر إلى آخره ، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم ومغفرة الله ورضوانه والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه .انتهى. وقال مقاتل : هذا وعيد ، يعني لكل حديث منتهى وحقيقة ، يعني العذاب في الدنيا القتل ببدر ، ومنه في الآخرة عذاب النار .انتهى وقال السدي : واقع . قال ابن جريج : مستقرّ بأهله . وقال قتادة : أي بأهل الخير الخير ، وبأهل الشر الشر .

وقيل الواو للعطف على﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ فالمعنى اقترب استقرار الأمور يوم القيامة. ذكره القرطبي . ونقل بن كثير عن مجاهد قوله ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ ﴾ أي : يوم القيامة .

ويمكن أن يكون العطف على ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي اتبعوا شهواتهم ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ ﴾ أي واتبعوا ما استقرَّ في نفوسهم مما تلقوه عن آبائهم ، وقد قيل أنهم كانوا إذا رأوا خسوفاً قالوا هذا من فعل السحرة .

قال القرطبي : وقرأ شيبة (مستقَرٌ) بفتح القاف ، أي لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر .انتهى

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ ﴾ أي جاءهم في القران من أخبار الأمم السابقة وما نزل بهم من العذاب ما فيه رادعٌ لهم يردعهم عن الاستمرار في التكذيب . فمزدجر من الزجر وهو الانتهاء ، يقال زجرته فانزجر أي كففته فكف وانتهى .

﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾ وما جاءهم من الأنباء التي فيها مزدجر حكمة تمنع من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم المكذبة ، فإن الحكمة تمنع صاحبها من الوقوع في السفه والردى ، والحكيم هو الذي يضع الأمور في مواضعها ، ووصفها بأنها بالغة من المبالغة أي بلغت منتهاها في التحذير والزجر ، وقيل المراد بلّغها الله إليكم فهي من الإبلاغ .

﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ ﴾ ما نفعتهم تلك الحكمة وتلك النذارة لإعراضهم عنها وعدم قبولها كما قال تعالى ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ من (١٠١) سورة يونس

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أعرض عنهم كما أعرضوا هم عن قبول الحق فلم يستفيدوا من النذارة في الدنيا فإن أمامهم في الآخرة يومٌ شديد ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾ وذلك يوم يناد المنادِ إلى أمرٍ فظيعٍ مهول وهو يوم القيامة .

﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ أي خاضعةً ذليلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار وإن كان المراد أهلها ، لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان . ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ أي القبور ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ ﴾ صفتهم يوم يخرجون من قبورهم كصفة الجراد المنتشر من كثرتهم وإسراعهم نحو الداعي وذكر في آيةٍ أخرى أنهم كالفراش المبثوث فهم أول ما يخرجون يكونون كالفراش المبثوث الذي لا يعرف له وجهة ، فإذا سمعوا المنادي اتجهوا إليه فكانوا كالجراد المنتشر لأن الجراد له وجهة يقصدها وهذا من بلاغة التشبية في القران . وذكر أهل البلاغة أيضاً أن القران يستعمل لفظ الجدث في حال الخروج من القبور مسرعين نحو أمرٍ معين كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ ﴾ سورة المعارج وقوله ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ ﴾ سورة يس أي يسرعون . قالوا لأن لفظ الجدث يشبه لفظ الجدثة وهو صوت الخف والحافر عند الركض ، فلعل لفظ الأجداث هنا اشتمل على المعنيين القبر والإسراع ، وأما لفظ القبر فيستعمل في حال السكون كقوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ ﴾ سورة فاطر وقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣ ﴾ سورة الممتحنة وقوله ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ ﴾ سورة العاديات

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾ قال بن عباسٍ : ناظرين . وقال سفيان : هكذا أبصارهم شاخصةً إلى السماء . وقال الضحاك : مقبلين . وقال قتادة : عامدين . وقال أبو عبيدة : مسرعين . وقال عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت . قال القرطبي : والمعنى متقارب. يقال: هطع الرجل يهطع هطوعاً إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه ، وأهطع إذا مد عنقه وصوب رأسه ، وبعيرٌ مهطع في عنقه تصويب خلقة ، وأهطع في عدوه أي أسرع .انتهى وقد فصلنا الكلام على معنى مهطعين في سورة المعارج عند قوله تعالى ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ ﴾ فراجعه إن شئت .

﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ لما يذوقون فيه من الكرب والعذاب .

وإن كان هؤلاء قد كذبوا بما جئت به يا محمد فليسوا ببدعٍ من المكذبين بالرسل فقد ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ نوحاً حين أرسلناه إليهم و لم يكتفوا بالتكذيب بل وصفوه بالألقاب المشينة ﴿ وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ ﴾ لا يعقل ما يقول ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ زجروه ونهوه عن دعوتهم وهددوه بالعذاب والقتل . قال بن زيد : اتهموه وزجروه وأوعدوه لئن لم يفعل ليكوننّ من المرجومين وقرأ ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾سورة الشعراء . قال الحسن: تهددوه بالقتل . وهذا إخبارٌ من الله عن قولهم وتهديدهم لنوحٍ عليه السلام . وقال مجاهد ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ أي استطير جنوناً . فجعله من تتمة قول قوم نوحٍ عن نوحٍ عليه السلام .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ قال الرازي : هذا الترتيب في غاية الحسن لأنهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه أني مغلوب .انتهى وقوله ﴿ مَغْلُوبٌ ﴾ يحتمل أمرين : الأول : غلبني الكفار فلم أقدر عليهم . والثاني : غلبتني نفسي فلم أعد أطيق الصبر عليهم . وقوله ﴿ فَٱنتَصِرْ ﴾ يحتمل أمرين : الأول : فانتصر لي فإني ضعيف مهزوم لا نصرة لي إلا بك . والثاني: فانتصر لك ولدينك فإني قد غُلبت وعجزت عن الانتصار لك ولدينك .

ولا شك أن الأول في الاحتمالين هو الأرجح ، وذلك أولاً : لأن الأنبياء في غاية التأدب مع الرب جل وعلا ، ولا يمكن أن يظهروا تبرماً من الدعوة إلى الله وإلى دينه ، وإنما يشكون إلى الله حالهم مع المدعوين لا مع الدين . وثانياً : أن سياق الآيات في تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه ولو كان مغلوباً في بداية الدعوة فإن الله سينصره على أعداءه ، وفي ذلك تفريحٌ لقلبه وأنه هو الغالب المنتصر بنصر الله له .

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ أي كثير التدفق والانصباب ، فجعل الله المطر الذي هو في الأصل نعمة ، جعله عذاباً ونكالاً على هؤلاء ، ليعلم هؤلاء المكذبين وأمثالهم أن الله قد يحيل النعمة فيجعلها عذاباً إذا شاء .

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ يجري منها الماء ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ التقى الماء النازل من السماء مع الماء الخارج من الأرض و لم يثني المائين لأنهما لما التقيا صارا ماءً واحداً . قال القرطبي : قرا الجحدري (فالتقى الماءان) وقرا الحسن (فالتقى الماوان) وهما خلاف المرسوم .انتهى ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ لأمرٍ قد قدره الله وهو غرق هؤلاء المكذبين من قوم نوح عليه السلام . وقيل المراد على مقدارٍ من الماء قد حُدِّدَ لا يزيد ولا ينقص ، والجمع بين المعنيين ممكن .

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ وحملنا نوحاً عليه السلام يعني ومن معه من المؤمنين والدواب على سفينةٍ قد صنعت من ألواحٍ ومسامير . قال بن عباسٍ في رواية الوالبي وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد وقتادة والقرظي : يعني المسامير التي دسرت بها السفينة أي شدت . وقال بن عباسٍ في رواية العوفي والحسن وشهر بن حوشب وعكرمة : هي صدر السفينة التي تضرب بها الموج سميت بذلك لأنها تدسر الماء أي تدفعه . وقال الليث : الدسار خيط من ليف تشد به ألواح السفينة. وفي الصحاح: الدسار واحد الدسر وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة . ذكر ذلك عنهم القرطبي في تفسيره .

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ أي بمرأى منا نحفظها ونرعاها﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي كان هذا العقاب وهو الغرق جزاء لمن كفر بالله . وقيل المراد هذا الإنجاء على ظهر السفينة جزاءً لنوحٍ المكفور به . والجمع بين المعنيين ممكن . ولذا جمع بينهما بن كثيرٍ فقال : أي جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارًا لنوحٍ عليه السلام .انتهى وقال البغوي : قال مقاتل بن حيان : يعني فعلنا به وبهم من إنجاء نوح وإغراق قومه ثوابًا لمن كان كُفِرَ به وجُحِدَ أمره وهو نوح عليه السلام .انتهى وقال القرطبي : قرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد (كَفَر) بفتح الكاف والفاء بمعنى : كان الغرق جزاءً وعقاباً لمن كفر بالله .انتهى

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً ﴾ أي السفينة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ فهل من متعظٍ تكون له ذكرى . وقد أبقى الله السفينة على ظهر الجودي وهو جبل في تركيا إلى عصرنا الحاضر . وكان قتادة يقول : أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الأمة . خشي أن لا يدركها أواخر هذه الأمة فينكرون التنزيل ، وما علم أن الله إذا أراد أن يبقي آيةً جعلها باقيةً إلى آخر الدهر كجسد فرعون فقال تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ سورة يونس وكان بن كثيرٍ رحمه الله يرى أن المراد بالآية جنس السفن لا سفينة نوحٍ بذاتها استناداً إلى قوله تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾سورة يس وقوله ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾سورة الحاقة وهو قول الطبراني ولكن يمكن الجمع بأن جنس السفن آية وسفينة نوحٍ بذاتها وبقاءها إلى هذا الزمن آية أخرى وهي أشد عظةً في صدور الناس من السفن التي يصنعونها بأنفسهم فلعل بعضهم لا يدرك أن صناعتها وراثةً عن صناعة نوحٍ عليه السلام ، وأن الله هو الذي ثبتها لهم على ظهر الماء وجعلها تجري فوقه ، وإن شاء منعها من الحركة أو أغرقها كما قال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾سورة الشورى

وقيل المراد بالآية قصة قوم نوح وما عاقبهم الله به من الغرق وإنجائه لنوحٍ عليه السلام ومن معه .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ الاستفهام للتعظيم أي كان عذابي شديداً وإنذاري بليغاً . قال السعدي : أي : فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقي لأحدٍ عليه حجة .انتهى . ولعل في اللفظ تقديمٌ وتأخير أي كان

إنذاري لهم بليغاً والإنذار التخويف والتحذير فلمَّا لم يستفيدوا منه أنزلت بهم عذاباً أليماً ، وقيل المراد بالنذر أي الرسل أي كيف كان إنجائي ونصري لهم . قال بن كثير : أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي و لم يتعظ بما جاءت به نُذُري ، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر .انتهى

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ أي سهلنا لفظه ومعناه للتلاوة والفهم لمن أراد أن يتعظ بآياته ويعتبر ويستفيد من حِكَمِه وأحكامه . وقيل المراد سهلناه للحفظ فهل من طالبٍ لحفظه فيعان عليه . وقال الطبراني : أي سهَّلنَاهُ للحِفْظِ والقراءةِ والكتابة .انتهى

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾ كذبت عادٌ هوداً عليه السلام كما كذبت قوم نوحٍ نوحاً فكان عذابي بهم شديداً وإنذاري لهم بليغاً . ثم بيَّن نوع العذاب الذي أصابهم فقال﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ الصرصر صيغة مبالغة وتعظيم من صرَ مثل كبكبوا صيغة مبالغة من كُبَّ كقوله تعالى ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾ سورة الشعراء فذلك أبلغ مما لو قال فكبوا . والريح الصر هي الشديدة البرودة التي لها صوت من شدة عصفها . قال تعالى ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ سورة آل عمران

﴿ فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ فيه مسائل أولها لماذا وصف اليوم بالنحاسة وهل يعارض ذلك حديث (لا تسبوا الدهر؟) وثانيها هل كان النحس عليهم يوماً واحداً أم كان لعدة أيام كما قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾من (١٦) سورة فصلت وقال تعالى ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ سورة الحاقة والجواب عن الأول أن السبب ليس لليوم وإنما بيانٌ لحال القوم في ذلك اليوم ، وأن النحاسة وقعت عليهم في ذلك اليوم . والعلماء يقولون أن وصف الدهر غير سب الدهر فسب الدهر محرم وهو لعنه وتقبيحه كقول بعضهم (الله يلعنه من يوم) وقولهم (يا خيبة الدهر) وكانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل وذلك شركٌ أكبر أو يعتقدون أنه سبب في حصول الفعل فذلك شركٌ أصغر . ولكن وصف الدهر جائز كقول (يومٌ بارد ، يومٌ حار ، يومٌ عصيب ، يومٌ شديد ، يوم نحس ، يوم سوء ، سنوات خداعات) ونحو ذلك فهذه أوصافٌ للزمن تطلق والمراد ما يقع على الأشخاص فيها ، وتكون من غير اعتقادٍ أن الدهر هو الفاعل أو سبب في حصول الفعل ، وإنما وصفٌ لما وقع فيه من سوءٍ على شخصٍ أو أشخاص .

وأما الجواب عن الثاني فإن العرب تصف الوقائع العظام بالأيام ولو كانت ممتدةً لأكثر من يوم مثل قولهم يوم القادسية رغم أن معركة القادسية استمرت أربعة أيام هذا غير التحضيرات والتجهيزات قبلها . وقيل المراد اليوم الأول الذي بدأ فيه الشيء

وتكون بقّيت الأيام تابعةً له ، فقولهم يوم القادسية يعني اليوم الذي ابتدأت فيه معركة القادسية ثم بقيت الأيام تتبع له وقد يقال أيام القادسية فلا يحصل تعارض بين القولين . فكذلك قوله تعالى﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ لا يعارض قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾من (١٦) سورة فصلت فإن الآية الأولى يراد بها ابتداء النحس عليهم وتكون بقية الأيام تابعةً له ، وفي الآية الثانية ذكر الأيام النحسات كلها إذ استمرت النحاسة عليهم لعدة أيام وهي سبع ليال وثمانية أيام كما في سورة الحاقة وهذا تفسير مستمر في قوله ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ أي كان يوم نحس ثم استمر بهم هذه الأيام وهذا قول مقاتل بن سليمان وقال قتادة : يستمر بهم إلى نار جهنم . فيكون معنى مستمر أي دائمٌ أبدي . وقال الضحاك : كان مُراً عليهم . فجعله من المرارة وليس من الاستمرار . وقيل : هو من المرة بمعنى القوة. أي في يومٍ مستحكم الشؤم . وتفسيره بالاستمرار أقوى في الجمع بين الآيات ، وإن كانت المعاني الأُخر لا تؤدي إلى التعارض بينها .

﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ تقلع الناس من أماكنهم ثم تلقي بهم حتى صاروا بعد القلع كأنهم النخل حين تقلع من أصولها فتسقط على الأرض . قال مجاهد : تقلعهم من الأرض فترمي بهم على رؤوسهم فتدق أعناقهم وتبين رؤوسهم عن أجسادهم . نقله القرطبي عنه . والنزع : القلع . وعجز الشيء مؤخره ، والنخيل أصولها . ومنقعر أي منقلع من أصله ، وقيل مقطع ، وقيل ساقط . قال بن كثير : وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس .انتهى وقال السعدي : أي كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي اقتلعته الريح فسقط على الأرض .انتهى وقال القاسمي : أي أصول نخل منقلع من مغارسه . وأصل﴿ مُّنقَعِرٍ ﴾ ما أخرج من القعر .انتهى

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾ هذا يؤيد أن المراد بالنذر الرسل ، وثمود قوم صالح عليه السلام .﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ أنتبع بشراً واحداً يخالفنا الرأي ونحن الجماعة ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ لإن فعلنا ذلك واتبعناه لكنا واقعين في الانحراف ومستحقين للعذاب ، يعني من آلهتهم حين يتركون عبادتها . والضلال الانحراف والبعد عن الصواب . والسعر قيل هو العذاب وقيل الاحتراق وقيل العناء والمعنى واحد وقيل هو الجنون .

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ أأنزل الوحي عليه واختير بالرسالة من بيننا يعني وفينا من هو خير منه استنقاصاً وتكذيباً له قال القرطبي : أي خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً . وهو استفهام معناه الإنكار. انتهى وقال الطبري : يعنون بذلك : أنزل الوحي وخصّ بالنبوّة من بيننا وهو واحد منا ، إنكاراً منهم أن يكون الله يُرسل رسولا من بني آدم .انتهى ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ رموه بالكذب وإرادة التعاظم أو الكذب العظيم يعني الزائد عن

المعتاد . قال الطبري : يَعْنُونَ بِالأَشِرِ : الْمَرِحَ ذَا التَّجَبُّرِ وَالْكِبْرِيَاءِ .انتهى وقال البغوي : بطرٌ متكبر يريد أن يتعظم علينا بادعائه النبوة .انتهى وقال بن كثير : الأشر المتجاوز في حد الكذب .انتهى وقال ابن زيد وعبد الرحمن ابن حماد: الأشر الذي لا يبالي ما قال . وهذه عادة الكفار يستنقصون الأنبياء ويتهمونهم بالكذب ويزعمون أن الله لا يوحي إلى بشر كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ سورة إبراهيم وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة المؤمنون وقال تعالى عن قوم صالح عليه السلام ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾سورة المؤمنون

ورد الله عليهم في سورة الأنعام بقوله ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾من (٩١) سورة الأنعام فجعل ذلك انتقاصاً له جل وعلا وعدم تعظيمٍ لقدره يعني حين يوصف بأنه ترك عباده هملاً و لم يرسل إليهم رسلاً ولا أنزل عليهم كتباً تدلهم على الصراط المستقيم . فأين كرمه وجوده ؟ وأين رأفته ورحمته ؟ وأين برد ولطفه ؟ وأين مدلولات أسمائه الحسنى وصفاته العلا ؟ فقولهم هذا فيه انتقاصٌ لأسمائه وتعطيل لصفاته ، ولذلك كان انتقاصاً لقدره .

وقال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾سورة الإسراء وهذا من تمام عدله وفضله أن يرسل رسولاً من جنس المرسل إليهم حتى يفهموه ويكونوا قادرين على أن يفعلوا مثل فعله .

وهنا قال ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾ توعدهم الله جل وعلا لافترائهم على نبيه صالح عليه السلام . وذكر الغد للتقريب والمراد يوم يترل بهم العذاب قيل في الدنيا وقيل في الآخرة . والجمع ممكن . وإن كان سياق الآيات يدل على أن المراد عذابهم في الدنيا . ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ طلبوا من نبي الله صالح آيةً تدل على صدق نبوته واشترطوا أن تكون ناقةً عشراء فأوحى الله إلى نبيه صالح عليه السلام ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي ابتلاءً وامتحاناً فإن امنوا وصدقوا نجوا وإن كذبوا بعد هذه الآية حل بهم العذاب ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ ﴾ أي انتظر ما يصنعون ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي اصبر أشد الصبر على آذاهم . ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ﴾ وأخبرهم أن الماء مقسومٌ بينهم وبين الناقة يومٌ لهم ويومٌ للناقة ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ من الحضور فتحضر الناقة يوم شربها ويحضرون هم يوم شربهم . قال الجزائري : أي كل نصيبٍ خاصٌ بصاحبه يحضره دون غيره . انتهى وقيل يحضرون يوم شربهم ويحضرون يوم شرب الناقة لأخذ لبنها . وقيل هو من الحظر وهو المنع أي يُمْنَعُون من الحضور يوم شرب الناقة وتمنع الناقة من الحضور يوم شربهم وهذا كله من تمام العدل معهم ، وكانت الناقة تشرب الماء كله يوم وردها ويحتلبونها فيكفيهم جميعاً لبنها وهذا يدل على ضخامتها ، غير أنهم لم يؤمنوا بها ولم تعجبهم هذه الحالة فسعوا في التخلص منها ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ ﴾ أحيمر ثمود وكان عزيزاً منيعاً في قومه وكانوا يرونه شجاعاً مقداماً فيهم وكان اسمه كما قيل قدار بن سالف ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ فتناول الناقة ﴿ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فقتلها . قال بن جرير : قال بن عباسٍ ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ تناولها بيده .انتهى وهو قول أكثر المفسرين أن التعاطي هنا بمعنى التناول . وما زال الناس يقولون فلانٌ يتعاطى الشيء أي يتناوله كقولهم فلانٌ يتعاطى المخدرات يعني يتناولها . وقال السعدي ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ أي: انقاد لما أمروه به من عقرها .انتهى وقال العثيمين : تعاطى تفاعل من العطاء يعني بذل نفسه وبسرعة ، ويدل على السرعة الفاء في قوله ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ من حين نادوه وافق ﴿ فَعَقَرَ ﴾ عقر الناقة – نسأل الله العافية – قطع أطرافها أولاً ثم نحرها ثانياً .انتهى ويمكن أن يكون المعنى ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾ الأسباب التي يقتل الناقة بها كتجهيز السيف وكمنه لها بالطريق ونحو ذلك . قال الرازي ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾: يحتمل وجوها : الأول : تعاطى آلة العقر فعقر . الثاني: تعاطى الناقة فعقرها وهو أضعف . الثالث : التعاطي يطلق ويراد به الإقدام على الفعل العظيم والتحقيق هو أن الفعل العظيم يُقَدِّم كل أحدٍ فيه صاحبه ويبرئ نفسه منه فمن يقبله ويقدم عليه يقال : تعاطاه كأنه كان فيه تدافع فأخذه هو بعد التدافع. الرابع : أن القوم جعلوا له على عمله جعلاً فتعاطاه وعقر الناقة .انتهى وقال الشوكاني : أي : تناول الناقة بالعقر فعقرها أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر . قال محمد بن إسحاق : كمن لها في أصل شجرة على طريقها فرماها بسهمٍ فانتظم به عضلة ساقها ثم شدّ عليها بالسيف فكسر عرقوبها ثم نحرها ، والتعاطي : تناول الشيء بتكلف .انتهى

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ ﴾ تقدم تفسيره . ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ بيان لنوع العذاب الذي حل بهم وهو الصيحة فكانوا على أثرها كالشجر والشوك الذي جمعه صاحب الغنم ليتخذ منه حظيرةً لغنمه فغدا يابساً بالياً من طول الزمان . قال الطبري : قال الضحاك : هي الْحَظِيرَةُ تُتَّخَذُ لِلْغَنَمِ فَتَيْبَسُ فَتَصِيرُ هَشِيماً .انتهى. وقال بن كثير : قال ابن زيد : كانت العرب يجعلون حِظَارًا على الإبل والمواشي من يَبِيس الشوك فهو المراد من قوله ﴿ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ انتهى. وقال القرطبي: قال بن عباس: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرةً بالشجر والشوك فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم. وعنه : كحشيش تأكله الغنم. وعنه أيضاً : كالعظام النخرة المحترقة ، وهو قول قتادة. وقال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح. وقال سفيان الثوري: هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا . وقال بن زيد : العرب تسمي كل شيءٍ كان رطباً فيبس هشيماً. انتهى وذكر عن المهدوي أنه قال : من فتح الظاء من (المحتظر) فهو مصدر ، والمعنى كهشيم الاحتظار. قال القرطبي : وهي قراءة الحسن وقتادة وأبو العالية .انتهى

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ تقدم تفسيره

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ﴾ فلم يؤمنوا بلوط عليه السلام ولا بما خوفهم به من عذاب الله .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ من الحصباء وهي الحجارة الصغيرة وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم بطرف جناحه ثم رفعهم إلى السماء حتى سمعت الملائكة في السماء نباح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبهم فلطم بهم الأرض واتبعهم الحجارة ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ السحر قبيل الفجر فأمروا بالرحيل قبل نزول العذاب بالقوم وكان ذلك ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ من عند الله جل وعلا أنعم بها على لوطٍ عليه السلام ومن معه إذ أنجاهم من العذاب وخلصهم من القوم الفاسقين ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ليست هذه النعمة خاصة بلوط عليه السلام ومن معه بل هي لكل من شكر نعمة الله عليه بالتوحيد والطاعة فإن الله ينجيه من العذاب ويخلصه من القوم الفاسقين في الدنيا قبل الآخرة .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ ولقد أنذر لوطٌ عليه السلام قومه عقوبتنا فَشَكّوا في صدقه وكذبوه وردوا قوله . قال البخاري ﴿ فَتَمَارَوْا۟ ﴾ قال إبراهيم : كذّبوا .انتهى وهو من المرية وهي الشك والشك في الدين تكذيبٌ وكفر .

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ طلبوا من لوط أن يسلم إليهم أضيافه ليفعلوا بهم الفاحشة على عادتهم في الغرباء ، والمراودة تدل على تكرار الطلب والإلحاح فيه ، فعاقبهم الله فطمس أعينهم قيل معناه أعماهم وقيل ذهب بعيونهم فلم يعد لهم في وجوههم عيون والله على كل شيءٍ قدير . قال بن كثير : فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية .انتهى وقال القرطبي : روي أن جبريل عليه السلام

ضربهم بجناحه فعموا. وقيل: صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق كما تطمس الريح الاعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: لا ، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم .انتهى قال البغوي : أي صيرناها كسائر الوجه لا يُرى لها شق ، هذا قول أكثر المفسرين. وقال الضحاك: طمس الله أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: قد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا، فلم يروهم فرجعوا .انتهى وقال الماوردي : وفي طمس أعينهم وجهان : أحدهما : أنهم اختفوا عن أبصارهم حتى لم يروهم مع بقاء أعينهم ، قاله الضحاك . الثاني : أعينهم طمست حتى ذهبت أبصارهم وعموا فلم يروهم ، قاله الحسن وقتادة .انتهى وقول الضحاك بعيد لأن الله جل وعلا قال بعد ذلك ﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ واختفاء الملائكة عن أبصارهم مع بقاء أبصارهم سليمة ليس عذاباً لهم .

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً ﴾ جاءهم في الصباح الباكر قال سفيان : عند طلوع الفجر .﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ عذابٌ استقر عليهم حتى أهلكهم جميعاً ، وقيل﴿ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي عذابٌ دائم لا زوال له ابتداءً من عذاب الدنيا إلى عذاب البرزخ إلى عذاب النار لا ينقطع عنهم العذاب أبداً . قال الطبراني : عذابٌ دَائِمٌ متَّصِلٌ بعذاب الآخرةِ .انتهى

﴿ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾ فأذاقهم الله العذاب جزاء تكذيبهم بالنذر . والنذر الرسل والتخويف السابق من العذاب . وتكراره يدل على أنه عذاباً آخر غير عذاب طمس الأعين .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ تقدم تفسيره ، وتكراره بعد كل حادثة للاتعاظ بها .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ ﴾ أي جاء اتباع فرعون النذر ، والنذر الرسل وهم موسى وهارون عليهما السلام .

﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا ﴾ كذبوا بالبينات والحجج والمعجزات التي جاءهم بها موسى دالةً على التوحيد ومصدقة للأنبياء حتى جاءهم موسى بتسع آياتٍ معجزات وهي (اليد ، والعصا ، والطمس ، والسنين ، والطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم) فكذبوا بها كلها و لم يؤمنوا فعاقبهم الله جزاء تكذيبهم ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُمْ ﴾ عاقبناهم ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ عقوبة قويٍ لا يذل ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ ذو قدرةٍ لا يعجزه شيء . فأغرقهم الله جميعاً .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ يا معشر قريش﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ ﴾ الذين حلت بهم العقوبة ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ أم عندكم براءة من العذاب وهبها الله لكم ووجدتموها في كتب الله المتقدمة التي أنزلت على أنبياء الله . وقيل المراد بقوله ﴿ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أي في اللوح المحفوظ نقله القرطبي عن بن عباس وقال القرطبي في معنى ﴿ بَرَآءَةٌ ﴾ أي سلامة من العقوبة .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ أم كان سبب تكذيبهم أنهم يقولون نحن جماعة منتصرة لا نهزم لكثرة عددنا وقوة عتادنا فردَّ الله عليهم فقال ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ قال المفسرون فكان ذلك يوم بدرٍ حين انهزم جمعهم وولوا أدبارهم فارين من المؤمنين. وفي صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوم بدرٍ من قبته وهو يثب في الدرع ويقول ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ ثم توعدهم بما هو أشد عليهم من الهزيمة والفرار في الدنيا وهو يوم القيامة فإن ذلك أعظم بلاءً وأشد مرارةً عليهم من هزيمتهم وفرارهم في الدنيا ، والداهية الأمر العظيم . عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ رواه البخاري .

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ الضلال الانحراف والبعد عن الصواب . والسعر قيل هو العذاب وقيل الاحتراق وقيل العناء والمعنى واحد وقيل هو الجنون .

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ يوم القيامة تسحبهم الملائكة على وجوههم ويقال لهم ذوقوا مس سقر ، وسقر من أسماء جهنم أي ذوقوا عذابها .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ قال الماوردي : فيه وجهان : أحدهما : على قدر ما أردنا من غير زيادةٍ ولا نقصان ، قاله ابن بحر . الثاني : بحكمٍ سابق وقضاءٍ محتوم .انتهى وقد نص العلماء على أن الآية إذا احتملت أكثر من معنى ولا تعارض بينها أنها تحمل على كل المعاني التي تحتملها ، وإن كانت هذه الآية في إثبات التقدير أقرب منها في إثبات المقدار . فإن الآيات في سياق ما قُدِّر على الكافرين من العذاب ، وقد ورد حديثٌ في سبب نزولها رواه الإمام مسلم وغيره قال السيوطي: خرَّج أحمد ومسلم وعَبد بن حُمَيد والترمذي وَابن ماجة وَابن جَرِير وَابن المنذر وَابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء مشركو قريش إلى النَّبيّ صلى الله عليه وسلم يخاصمونه في القدر فنزلت ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ .انتهى وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ من (٣٨) سورة الأحزاب وهي من أبرز الأدلة على إثبات القدر وأنه لا يقع شيء إلا بتقدير الله ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة وقد تواترت النصوص وكلام السلف على إثبات القدر وأن من أنكره فليس بمؤمن ومنها حديث جبريل عليه السلام وفيه قال (فأخبرني عن الإيمان) قال النبي صلى الله عليه وسلم (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) متفق عليه وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن

أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب . قال : رب وماذا أكتب؟ قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من مات على غير هذا فليس مني) رواه أبو داود وعند الترمذي (إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فجرى بما هو كائنٌ إلى الأبد) وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) رواه مسلم وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال يا غلام (احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف). وعن ابن الديلمي قال : أتيت أُبيَّ بن كعب فقلت له قد وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيءٍ لعل الله أن يذهبه من قلبي قال : لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحدٍ ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار . قال ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك قال ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . وفي لفظٍ أن أبياً قال : ولا عليك أن تأتي أخي عبد الله بن مسعود فتسأله ، فأتيت عبد الله فسألته فذكر مثل ما قال أُبي وقال لي ولا عليك أن تأتي حذيفة ، فأتيت حذيفة فسألته فقال مثل ما قالا وقال ائت زيد بن ثابت فاسأله ، فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكره .

﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي لا نحتاج إلى تكرار الأمر مرةً ثانية ، إنما يكون أمرنا مرةً واحدةً فيكون واقعاً كلمح البصر . وقيل المعنى وما أمرنا للشيء إذا أردنا تكوينه إلا بكلمة واحدة وهي كن فيكون بلمح البصر . كقوله تعالى ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾من (٤٧) سورة ال عمران وقوله ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾سورة النحل وقوله ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾سورة يس

﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ ﴾ أمثالكم في الكفر من الأمم السابقة ، وقيل اتباعكم وأعوانكم . ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ ﴾ فهل من متعظ يتعظ بما جرى على الأمم السابقة .

﴿ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي في الكتب ، قيل في كتب الحفظة ، وقيل في اللوح المحفوظ . ويمكن أن يكون المعنى مكتوبٌ قبل أن يفعلوه في اللوح المحفوظ ، ومكتوب بعد أن فعلوه في كتب الحفظة . والضمير يعود على الأشياع قال الألوسي : والضمير المرفوع للأشياع كما روي عن ابن عباس والضحاك وقتادة وابن زيد .انتهى ويمكن أن يعود على كفار قريش . قال بن عاشور : يجوز أن يكون الضمير المرفوع في قوله ﴿ فَعَلُوهُ ﴾ عائداً إلى ﴿ أَشۡيَاعَكُمۡ ﴾ والمعنى :

أهلكناهم بعذاب الدنيا وهيأنا لهم عذاب الآخرة فكتب في صحائف الأعمال كل ما فعلوه من الكفر وفروعه فالكتابة في الزبر وقعت هنا كناية عن لازمها وهو المحاسبة به فيما بعد وعن لازم لازمها وهو العقاب بعد المحاسبة. وهذا الخبر مستعمل في التعريض بالمخاطبين بأنهم إذا تعرضوا لما يوقع عليهم الهلاك في الدنيا فليس ذلك قصارى عذابهم فإن بعده حساباً عليه في الآخرة يعذبون به وهذا كقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾من (٤٧) سورة الطور ويجوز عندي أن يكون الضمير عائداً إلى الجمع من قوله ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ ﴾ إلى ﴿ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ في قوله ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ الخ والمعنى : كل شيءٍ فعله المشركون من شركٍ وأذىً للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معدودٌ عليهم مهيأٌ عقابهم عليه لأن الإخبار عن إحصاء أعمال الأمم الماضية قد أغنى عنه الإخبار عن إهلاكهم ، فالأجدر تحذير الحاضرين من سوء أعمالهم .انتهى

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي كل شيء مكتوب أي في اللوح المحفوظ ، فهو بيان لقوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ أي مقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ . وعليه فتكون الآية للتعميم بالأشياء كلها بعد التخصيص بالفعل ويمكن أن تكون الآية تفصيل للآية السابقة للتأكيد والشمول أي كل شيءٍ فعلوه سواءً كان صغيراً أو كبيراً فهو مكتوبٌ عليهم في اللوح المحفوظ وفي كتب الحفظة .

تنبيه : إن قلنا أن الآيتين في سياق التهديد فينبغي أن يكون المراد كتب الحفظة وما سجلته عليهم من أعمالهم ، وأما المكتوب في اللوح المحفوظ فهو قدر الله بعلمه الأزلي فلا يكون التهديد به ، ولكنهم يُهَدَدون بما سيعملون بمقتضى إرادتهم ، وأن الملائكة سوف تسجله عليهم ، فحينئذٍ يرتدع من وفقه الله فيعود إلى الحق . بخلاف ما لو قيل له قد كتبه الله عليك في اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ، فلن يكون حينئذٍ رادعاً له للعودة بل سيقول قد كُتِبَ عليَّ وانتهى الأمر فلن أعود ، وإنما نزل القران للهداية لا لإغلاق باب التوبة. وقد أنكر الألوسي كون المراد اللوح المحفوظ في الآية الأولى فقال : وتفسير الزُّبُرِ باللوح المحفوظ كما حكاه الطبرسي ليس بشيء .انتهى وفسر بن كثير الآيتين بأنها كتب الحفظة فقال : وقوله ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أي: من أعمالهم ﴿ مُّسْتَطَرٌ ﴾ أي: مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم ، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها .انتهى

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ قوله ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ لبيان الجنس وليس للإفراد أي في جناتٍ وأنهار . وقال الفراء : أي في ضياءٍ وسعة قال : وسمعت بعض العرب ينشد : إنْ تَكُ لَيْلِيًّا فإنّي نَهِرْ...متى أتى الصُّبْحُ فَلا أنْتَظِر .أي صاحب النهار. انتهى قال الألوسي : والمراد بالسعة سعة المنازل على ما هو الظاهر ، وقيل : سعة الرزق والمعيشة ، وقيل : ما يعمهما .انتهى

وقال البغوي ﴿ وَنَهَرٍ ﴾ أي أنهار ، ووحَّده لأجل رؤوس الآي ، وأراد أنهار الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل. وقال الضحاك: يعني في ضياءٍ وسعة ومنه النهار. وقرأ الأعرج "ونُهُر"، بضمتين جمع نهار يعني : نهارًا لا ليل لهم .انتهى

وقال الماوردي : فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن النهر أنهار الماء ، والخمر ، والعسل ، واللبن ، قاله ابن جريج .

الثاني : أن النهر الضياء والنور ، ومنه النهار ، قاله محمد بن إسحاق ، ومنه قول الراجز :

لولا الثريدان هلكنا بالضمر ثريد ليلٍ وثريدٌ بالنهر

الثالث : أنه سعة العيش وكثرة النعيم ، ومنه اسم نهر الماء ، قاله قطرب .انتهى

قال الألوسي : قرأ الأعرج ومجاهد وحميد وأبو السمال والفياض بن غزوان «ونَهْر» بسكون الهاء ، وهو بمعنى «نَهَر» مفتوحها ، وقرأ الأعمش وأبو نهيك وأبو مجلز واليماني «ونُهُر» بضم النون والهاء ، وهو جمع نهر المفتوح أو الساكن كأَسَد وأُسُد ، ورَهَن ورُهُن - وقيل : جمع نهار ، والمراد أنهم لا ظلمة ولا ليل عندهم .انتهى

﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ قيل المعنى : في مجلس حقّ لا لغوٌ فيه ولا تأثيم . وقيل : في المكان الذي صدق الله أولياؤه وعده لهم به وهو الجنة . وقيل : في مقعدٍ يشتمل على كل ما يحمده القاعد فيه . فإنه يقال صديق صدقٍ أي اكتملت معاني الصداقة الحقة فيه . قال الألوسي : أي في مكانٍ مرضي على أن الصدق مجاز مرسل في لازمه أو استعارة ، وقيل : المراد صدق المبشر به وهو اللّه تعالى ورسوله صلى اللّه تعالى عليه وسلم ، أو المراد أنه ناله من ناله بصدقه وتصديقه للرسل عليهم السلام فالإضافة لأدنى ملابسة وقال جعفر الصادق رضي اللّه تعالى عنه : مدح المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق . وهو المقعد الذي يصدق اللّه تعالى فيه مواعيد أوليائه بأنه يبيح عز وجل لهم النظر إلى وجهه الكريم ، وإفراد المقعد على إرادة الجنس. وقرأ عثمان البتي - في مقاعد - على الجمع وهي توضح أن المراد بالمقعد المقاعد .انتهى

﴿ عِندَ مَلِيكٍ ﴾ صيغة مبالغة من ملك أي عند صاحب الملك العظيم ، والعندية هنا للتقريب والرفعة والإعزاز .

﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي ذو القدرة المطلقة . قال الطاهر بن عاشور : المليك : فعيل بمعنى المالك مبالغةً وهو أبلغ من ملك ومقتدر: أبلغ من قادر ، وتنكيره وتنكير مقتدر للتعظيم . والعندية عندية تشريفٍ وكرامة .انتهى

وقال الماوردي : ويحتمل وصف نفسه بالاقتدار ها هنا وجهين :

أحدهما : لتعظيم شأن من عنده من المتقين لأنهم عند المقتدر أعظم قدراً ، وأعلى مجزاً .

الثاني : ليعلموا أنه قادر على حفظ ما أنعم به عليهم ودوامه لهم ، والله أعلم .انتهى

أولاً / أن الهداية بيد الله وأن من طبع الله على قلبه فلن يرجع عن غيه ولن تفيده الآيات والنذر ، فالمشركين رغم رؤيتهم لانشقاق القمر عياناً إلا أنهم أنكروه وقالوا سحرنا محمد و لم يؤمنوا .

ثانياً /أن التهديد والتخويف أسلوب رباني فمن لم تنفع معه المواعظ الحسنة والتذكير فينبغي أن يخوف ويذكر له ما يرهبه لعله ينتفع بالترهيب إذ لم ينتفع الترغيب .

ثالثاً / يذكر الله جل وعلا قصص الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم من المعاندة والمشآقة والتكذيب ثم يذكر نصره لأوليائه وانتقامه من أعدائه ليكون سلوةً للدعاة إلى الله لكي يصبروا ويستمروا في الدعوة ويثقوا بنصر الله ، وليكون عظةً وعبرةً للكفار والمكذبين أن يعودوا إلى الله قبل أن يصيبهم ما أصاب الأمم المكذبة من العذاب .

رابعاً / أن الإيمان بالقدر من أركان الإيمان التي لا يتم الإيمان إلا بها فمن أنكر القدر فهو كافرٌ وليس بمؤمن .

تفسير سورة الرحمن

مكية وآياتها (٧٨)

روى البيهقي عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لِكُلِّ شَيءٍ عروسٌ ، وعرُوسُ القرآنِ سُورة الرَّحمنِ جل ذكرهُ) وروى الواحدي والثعلبي في تفسيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (مَنْ قَرَأَ سُورة الرَّحْمَنِ رحِمَ الله ضعفهُ ، وأدّى شُكْرَ مَا أنْعَمَ اللّهُ عزّ وجلّ عليه)

والحديث الأول ضعيف والثاني موضوع وإنما أوردناهما للتنبيه عليهما .

فأما حديث (لِكُلِّ شَيءٍ عروسٌ ، وعرُوسُ القرآنِ سُورة الرَّحمنِ ، جل ذكرهُ) فقد قال الألباني : ضعيف . كما في ضعيف الجامع برقم (٤٧٢٩) وقال في السلسلة الضعيفة : منكر أورده السيوطي في الجامع الصغير من رواية البيهقي في شعب الإيمان وكذا في المشكاة وقد كشف عن علته المناوي فقال في الفيض : وفيه أحمد بن الحسن (دبيس) عده الذهبي في الضعفاء والمتروكين وقال الدارقطني : ليس بثقة . قلت : وترجمه الخطيب في تاريخه (٨٨/٤) وقال : وكان منكر الحديث.. قرأت بخط الدارقطني.. ليس بثقة .انتهى

وأما حديث (مَنْ قَرَأَ سُورة الرَّحْمَنِ رحِمَ الله ضعفهُ ، وأدّى شُكْرَ مَا أنْعَمَ اللّهُ عزّ وجلّ عليه) فهو من جملة حديثٍ طويل في فضائل السور وقد قال ابن الجوزي عن هذا الحديث : قد فرَّق هذا الحديث أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره فذكر عند كل سورة منه ما يخصها ، وتبعه أبو الحسن الواحدي في ذلك ، ولا أعجب منهما لأنهما ليسا من أصحاب الحديث ، وإنما عجبت من أبي بكر بن أبي داود كيف فرَّقه على كتابه الذي صنفه في فضائل القرآن وهو يعلم أنه حديث مُحال. ثم قال : حديث فضائل السور مصنوع بلا شك . وقال: نفس الحديث يدل على أنه مصنوع فإنه قد استنفد السور وذكر في كل واحدةٍ ما يناسبها من الثواب بكلامٍ ركيك في نهاية البرودة لا يناسب كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال في ري الظمآن بتحقيق الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن : قلت : والحديث له طرق كلها تالفة: الطريق الأولى: تفرد بها أبو الخليل بزيع بن حبان ، قال الدارقطني : وهو متروك. الطريق الثانية: تفرد بها مخلد بن عبد الواحد قال ابن حبان في المجروحين : منكر الحديث جداً ينفرد بأشياء مناكير لا تشبه أحاديث الثقات فبطل الاحتجاج به. الطريق الثالثة: تفرد بها ميسرة بن عبد ربه ، قال عبد الرحمن بن مهدي: قلت لميسرة بن عبد ربه: من أين جئت بهذه الأحاديث: من قرأ كذا فله كذا؟ قال: وضعته أرغب الناس فيه. الطريق الرابعة: تفرد بها هارون بن كثير ، قال ابن عدي: وهارون غير معروف و لم يحدث به عن زيد بن أسلم غيره ، وهذا الحديث غير محفوظ عن زيد . وروى العقيلي في الضعفاء (١٧٥/١): عن عبد الله بن المبارك قال في حديث أبي بن كعب في فضائل السور: أظن الزنادقة وضعته. وقال العجلوني في كشف الخفاء (٤١٩/٢): فضيلة قراءة كل سورة ، رووا ذلك وأسندوه إلى أبي بن كعب ، ومجموع ذلك مفترى وموضوع بإجماع أهل الحديث .انتهى

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ ﴾ من أسماء الله جل وعلا المختصة به ، وهو مشتقٌ من الرحمة ، ويدل على سعة رحمة الله وشمولها للخلائق كلها ، وكانت العرب تعرف اسم الله الرحمن قبل الإسلام . وانكارهم له في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ من (٦٠) سورة الفرقان وقولهم (ما نعرف إلا رحمان اليمامة) إنما هو من باب الكبر والطغيان والمخاصمة ولكن الكذب صاحبه مفضوح ولذا لما أرادوا أن يخاصموا الرسول صلى الله عليه وسلم في المشيئة قالوا كما أخبر الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم ﴾ من (٢٠) سورة الزخرف

﴿ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ ﴾ سهله للقراءة والفهم كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧ ﴾ سورة القمر قال قتادة : نعمة والله عظيمة . وصدق والله ، فلولا أن الله جل وعلا تفضل علينا بتعليمنا القران وإلا ضعنا في متاهات الضلال . قال الطبري : الرحمن أيها الناس برحمته إياكم علمكم القرآن فأنعم بذلك عليكم إذ بصَّركم به ما فيه رضا ربكم وعرّفكم ما فيه سخطه لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم وعملكم بما أمركم به وبتجنبكم ما يُسخطه عليكم فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه وتنجوا من أليم عقابه .انتهى وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي أنزل عليه القران .

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾ أي جنس الإنسان أي الناس جميعاً ، وقيل المراد آدم عليه السلام ، وقيل محمد صلى الله عليه وسلم ، والأول أرجح .

﴿ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ﴾ أي الكلام سمي بياناً لأنه به يبين الإنسان عما في نفسه ، وقيل البيان أي بيَّن له الحلال والحرام وما يفعل وما يذر . ورجح بن كثير الأول قال : لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن وهو أداء تلاوته وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها .انتهى ورجح الطبري الشمول فقال : والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: أن الله علَّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام، والمعايش والمنطق، وغير ذلك مما به الحاجة إليه، لأن الله جلّ ثناؤه لم يخصص بخبره ذلك، أنه علَّمه من البيان بعضاً دون بعض، بل عمّ فقال: علَّمه البيان ، فهو كما عمّ جلّ ثناؤه .انتهى

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾ أي يجريان في منازلهما بحسابٍ محددٍ لا يضطرب كقوله تعالى ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ سورة يس وقال تعالى ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٩٦ ﴾ سورة الأنعام وقيل المراد يحسب بهما الناس الزمان . فهاهم يحسبون التقويم الهجري بحساب القمر ويحسبون التقويم الميلادي بحساب الشمس . وقيل المراد يُحْسَبُ لهما أجل محدد فإذا جاء أجلهما هلكا كما يهلك الناس . وقيل المعنى يدوران في فلكٍ دائري كما يدور الرحى بحسبانه وهو قطبه فإنه يسمى الحسبان . وكل ذلك واقع ، فإن الله جل وعلا قد أجرى كل واحدٍ منهما في مسارٍ لا يحيد عنه ، ووقتٍ لا يتجاوزه

في شروقهما وغروبهما ، والناس تحسب بهما الزمان ، ولهما أجلٌ كأجل الناس وأجلهما قيام القيامة . وهما يدوران في فلكٍ دائري ، فإن الأرض دائرية ، والسماوات دائرية ، والشمس والقمر يدوران بينهما .

قال القرطبي : أي يجريان بحسابٍ معلوم فأضمر الخبر. قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: أي يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها. وقال ابن زيد وابن كيسان: يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال الأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً لو كان الدهر كله ليلاً أو نهارا. وقال السدي: تقدير آجالهما أي تجري بآجال كآجال الناس فإذا جاء أجلهما هلكا نظيره ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾من (١٣) سورة فاطر وقال الضحاك: بقدر. مجاهد: بحُسْبانٍ كحسبان الرحى يعني قطبها يدوران في مثل القطب .انتهى

﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾ النجم اسم جنس أي النجوم يعني التي في السماء . وقيل المراد بالنجم هو الذي لا ساق له من النبت وأما الشجر فما له ساق ، وهذا مذكورٌ عن ابن عباسٍ وغيره ، وسواءً كان ذا أو ذا فكلها تسجد لله على كيفيةٍ يعلمها الله جل وعلا لا نعلمها أو يسجدان بمعنى يخضعان ويطيعان وينقادان لما يأمرهما به جل وعلا من مصالح العباد.

قال بن كثير: قال ابن جرير: اختلف المفسرون في معنى قوله ﴿ وَٱلنَّجْمُ ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق فروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض يعني من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير والسدي وسفيان الثوري. وقد اختاره ابن جرير رحمه الله. وقال مجاهد: النجم الذي في السماء. وكذا قال الحسن وقتادة. وهذا القول هو الأظهر والله أعلم لقوله تعالى﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾من (١٨) سورة الحج . انتهى

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ خلقها مرفوعةً فوق الأرض بلا أعمدة . ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾ أنزله في الأرض كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ من (٢٥) سورة الحديد قال مجاهد وقتادة : الميزان العدل . وقال الحسن والضحاك : هو الميزان الذي يوزن به . وهو مرويٌ عن قتادة أيضاً .

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾ على القول بأن الميزان العدل فيكون المعنى : ألا تتجاوزوا ما وزن لكم ربكم من الحقوق والأشياء فتظلموا غيركم . وعلى القول بأنه الميزان الذي يوزن به فمعنى الآية : ألا تتجاوزوا الميزان المقدر فتزيدوا لأنفسكم وتُنْقِصوا لغيركم . قال الطبري : ألا تظلموا وتبخسوا في الوزن . قال قتادة : اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك وأوف كما تحب أن يوفى لك ، فإن بالعدل صلاح الناس .انتهى وقد قيل أن اللام لام النهي أي لا تفعلوا ذلك لا تطغوا في

الميزان ، وقيل هي لام النفي أي وضع الميزان لئلا أو لأجل ألا تطغوا في الميزان فتزيدوا أو تنقصوا الحق المقدر فتظلموا أنفسكم أو تظلموا الناس دون أن تشعروا . فوضع الله الميزان لحفظ حقوقكم .

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ أقيموا الوزن فيما بينكم بالعدل ، ولا تنقصوا الوزن إذا وزنتم للناس لتظلموهم كقوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ سورة المطففين وروى الطبري بسنده أن ابن عباسٍ رأى رجلاً يزن قد أرجح فقال: أقم اللسان، أقم اللسان، أليس قد قال الله﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ وهذه الآية ترجح قول الحسن والضحاك أن المراد بالميزان هو هذا الذي توزن به الأشياء . وعلى قول مجاهد وقتادة تكون الواو استئنافية وليست واو عطف .

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ أي خفضها للأنام حتى كانت تحت أقدامهم يستفيدون من كل المصالح التي فيها . عن ابن عباسٍ ومجاهد وقتادة وابن زيد : أن الأنام : الخلق . وعن بن عباس : الناس . وعنه : كل شيءٍ فيه الروح . وقال الضحاك : كل شيءٍ يدب على الأرض . وقال الحسن : الجن والانس .

﴿ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾ قال بن عباس وابن زيد وابن جريج : أوعية الطلع . وعن الحسن وقتادة : الليف الذي يكون عليها . ورجح الطبري الشمول . والأكمام جمع كم وهو الغطاء الذي يكون على الشيء ومنه كم الثوب لأنه يغطي ما تحته ، والنخلة متكممةٌ في ليفها ، وطلعها متكممٌ في جفه . فلذلك وصفها الله بأنها ذات الأكمام .

﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾ قيل هو التبن . وقيل هو القشر الذي يكون على الحب . وقيل هو أول النبات ، وقيل ساقه ، وقيل ورقه ، وقيل هو المأكول من الحب والزرع ، وقيل غير ذلك .

﴿ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ قيل هو النبت المعروف ذو الرائحة الطيبة . وقيل هو كل بقلةٍ طيبة الريح . وقيل : هو الرزق . وقيل ورق الزرع ، وقيل خضرته ، وقيل زهوره ، وقيل ساقه ، وقيل هو ما لم يؤكل من الحب والزرع ، وقيل غير ذلك .

والمقصود أن الله امتن على عباده بما أخرج لهم من الأرض من النبات والثمار والحبوب فكان رزقاً لهم يستفيدون منه أخضراً ويابساً لهم ولدوابهم .

قال الطبري : واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ فقرأ ذلك عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض المكيين وبعض الكوفيين بالرفع عطفاً به على الحبّ بمعنى : وفيها الحبّ ذو العصف ، وفيها الريحان أيضاً. وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفيين (وَالرَّيْحَانِ) بالخفض عطفاً به على العصف بمعنى : والحبّ ذو العصف وذو الريحان . انتهى

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ فبأي نعمةٍ من نعم ربكما أيها الثقلان الجن والانس تكذبان .

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾ خلق الله الإنسان والمراد به في هذه الآية أصل الإنسان وهو آدم عليه السلام ﴿ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ اختلف العلماء في الصلصال على أقوال :

القول الأول / أنه الطين اليابس كالذي يصنع منه الفخار غير أنه لم يطبخ كما يطبخ الفخار ولكنه يصوت كما يصوت الفخار حين يضرب . وهذا معنى قول بن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة . قال بن عباسٍ : الصلصال هُوَ التُّرَابُ الْيَابِسُ الَّذِي يُبَلُّ بَعْدَ يُبْسِهِ . وعنه : الصَّلْصَالُ: الْمَاءُ يَقَعُ عَلَى الأَرْضِ الطَّيِّبَةِ ثُمَّ يَحْسِرُ عَنْهَا فَتَشَقَّقُ ، ثُمَّ تَصِيرُ مِثْلَ الْخَزَفِ الرِّقَاقِ. وعنه : خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ ثَلاَثَةٍ : مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ ، وَصَلْصَال ، وَحَمَأ مَسْنُونٍ . وَالطِّينُ اللاَّزِبُ: اللاَّزِقُ الْجَيِّدُ ، وَالصَّلْصَالُ: الْمُدَقَّوَقُ الَّذِي يُصْنَعُ مِنْهُ الْفَخَّارُ . وَالْمَسْنُونُ: الطِّينُ فِيهِ الْحَمْأَةُ . وقال مجاهد : هو التراب اليابس . وعنه : الصلصال هو الَّذِي يُصَلْصِلُ مِثْلَ الْخَزَفِ مِنَ الطِّينِ الطَّيِّبِ . وقال قتادة : الصلصال هو الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة .

قال الطبري : خَلَقَ اللَّهُ الإِنْسَانَ وَهُوَ آدَمُ مِنْ صَلْصَالٍ : وَهُوَ الطِّينُ الْيَابِسُ الَّذِي لَمْ يُطْبَخْ ، فَإِنَّهُ مِنْ يُبْسِهِ لَهُ صَلْصَلَةٌ إِذَا حُرِّكَ وَنُقِرَ كَالْفَخَّارِ ؛ يَعْنِي أَنَّهُ مِنْ يُبْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَطْبُوخًا ، كَالَّذِي قَدْ طُبِخَ بِالنَّارِ ، فَهُوَ يُصَلْصِلُ كَمَا يُصَلْصِلُ الْفَخَّارُ وَالْفَخَّارُ : هُوَ الَّذِي قَدْ طُبِخَ مِنَ الطِّينِ بِالنَّارِ .انتهى

القول الثاني : أن الصلصال هو الطين المخلوط برمل . قال الضحاك : الصلصال : طِينٌ صُلْبٌ يُخَالِطُهُ الْكَثِيبُ . وقال عكرمة : الصَّلْصَالُ : طِينٌ خُلِطَ بِرَمْلٍ فَكَانَ كَالْفَخَّارِ.

القول الثالث : أن الصلصال هو الطين المنتن . مِنْ قَوْلِهِمْ: صَلَّ اللَّحْمَ وَأَصَلَّ: إِذَا أَنْتَنَ . وهو مرويٌ عن مجاهد .

وأنكر ذلك الطبري وقال : لَوْ كَانَ مَعْنَاهُ فِي ذَلِكَ الْمُنْتِنَ لَمْ يُشَبِّهْهُ بِالْفَخَّارِ ، لِأَنَّ الْفَخَّارَ لَيْسَ بِمُنْتِنٍ .انتهى

وذكر الماوردي عن عكرمة قولٌ رابع أنه الطين الرطب الذي إذا عصرته خرج الماء من بين أصابعك . وذكر أيضاً قولاً خامساً أنه الطين الأجوف الذي إذا ضرب بشيء صلّ وسُمِع له صوت . ولم ينسبه لأحد إلا أنه قال بعد ذكر الأقوال الخمسة قال عبد الله بن سلام : خلق الله آدم من تراب من طين لازب ، فتركه كذلك أربعين سنة ، ثم صلصله كالفخار أربعين سنة ، ثم صوره فتركه جسداً لا روح فيه أربعين سنة ، فذلك مائة وعشرون سنة ، كل ذلك والملائكة تقول سبحان الذي خلقك ، لأمر ما خلقك .انتهى .

تنبيه : ذكر الله جل وعلا في آيات أنه خلق آدم من تراب كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾سورة آل عمران وقوله ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ﴾من (١١) سورة فاطر وذكر في آياتٍ أنه خلقه من طين كقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ﴾سورة السجدة وفي آيةٍ أخرى قال ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ ﴾سورة الصافات وفي هذه الآية ذكر

أنه خلق آدم من صلصالٍ كالفخار وفي آيةٍ أخرى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾سورة الحجر وهذه الآيات ليس بينها تناقض والحمد لله ولكن تدل على أن خلق الإنسان مرَّ بمراحل قال القرطبي : وذلك متفق المعنى ، وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طيناً ، ثم انتقل فصار كالحمأ المسنون ، ثم انتقل فصار صلصالاً كالفخار .انتهى فأوله التراب ثم بل التراب بماءٍ فأصبح طيناً ثم شدَّ هذا الطين حتى أصبح لازباً أي جيداً متلاصقاً ثم ترك زمناً طويلاً حتى تغير هذا الطين واسود وأنتن فذلك الحمأ المسنون كما فسره بن عباسٍ ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وقال آخرون : الحمأ المتغير إلى السواد ، والمسنون المصور على هيئة . وقيل المسنون : المتغير . وعن بن عباسٍ أن الحمأ المسنون هو الطين الرطب . قال بن كثير : من حمأ وهو: الطين. والمسنون: الأملس كما قال الشاعر :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي في مرمرٍ مسنون أي: أملسٍ صقيل .

ولهذا روي عن ابن عباسٍ أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب. انتهى وقد يكون الطين اللازب بعد الحمأ المسنون كما روى الطبري بسنده عن ابن عباسٍ قال : خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ ، وَاللاَّزِبُ : اللَّزِجُ الطَّيِّبُ مِنْ بَعْدِ حَمَإٍ مَسْنُونٍ مُنْتِنٍ . قَالَ : وَإِنَّمَا كَانَ حَمَأً مَسْنُونًا بَعْدَ التُّرَابِ . قَالَ : فَخَلَقَ مِنْهُ آدَمَ بِيَدِهِ قَالَ : فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً جَسَدًا مُلْقًى فَكَانَ إِبْلِيسُ يَأْتِيهِ فَيَضْرِبُهُ بِرِجْلِهِ فَيُصَلْصِلُ فَيُصَوِّتُ قَالَ : فَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ يَقُولُ : كَالشَّيْءِ الْمُنْفَرِجِ الَّذِي لَيْسَ بِمُصْمَتٍ .انتهى وعلى هذا التفسير يكون قوله ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ صفة الإنسان فيكون قوله ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي خلق الله الإنسان من طينٍ يابسٍ أو منتنٍ أو مخلوطٍ برمل فجعله أجوف كالفخار . وعلى الأول صفة الصلصال فيكون قوله ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي خلق الله الإنسان من طينٍ كالطين الذي يصنع منه الفخار وهو الطين اليابس أو المنتن أو المخلوط برمل .

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾ وخلق الله الجآن والمراد أبوهم ولم يذكر لنا ما اسم أبيهم قال بعضهم هو إبليس والصحيح أن إبليس من ولد الجآن وليس هو أبو الجآن وإنما هو أبو الأبالسة وهم الشياطين . ﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ عن بن عباسٍ : من لهب النار وعنه من شهب النار وعنه من خالص النار. وعن قتادة من لهب النار . وعن مجاهد : اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت. وعن سعيد بن جبير : الخضرة التي تقطع من النار السواد الذي يكون بين النار وبين الدخان. عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارجٍ من نار ، وخلق آدم كما وصف لكم) رواه مسلم .

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾ قال بن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة : مشرق الشمس في الشتاء ومغربها ومشرقها في الصيف ومغربها .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ تدل كلمة مرج على الخلط وتدل على التخلية والإرسال فالله جل وعلا أرسل البحرين العذب والمالح بعضهما على بعض وجعلهما يختلطان عند التقائهما إلا أنه مع ذلك جعل بينهما حاجزاً بحيث لا يتجاوز أحدهما على الآخر بل يبقى العذب عذباً والمالح مالحاً لمصلحة العباد وهذا من عجائب قدرة الخالق جل وعلا ، ولو خلط إنسانٌ مائين أحدهما مالح والآخر عذب في كوب أو بركة لاختلطا وبغى أحدهما على الآخر وما استطاع أن يحجز بينهما إلا بحاجزٍ من غيرهما .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ اللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل هو صغار اللؤلؤ وقيل كباره وقيل هو الخرز الأحمر . قال بن كثير ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ أي من مجموعهما ، فإذا وجد ذلك لأحدهما كفى كما قال تعالى ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾من (١٣٠) سورة الأنعام والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن ، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد وقتادة وأبو رزين والضحاك. وروي عن علي. وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس وحكاه عن السدي عمن حدثه عن ابن عباس. وروي مثله عن علي ومجاهد أيضاً ومرة الهمداني. وقيل: هو نوعٌ من الجواهر أحمر اللون. قال السدي عن أبي مالك عن مسروق عن عبد الله قال: المرجان: الخرز الأحمر. قال السدي وهو البُسَّذ بالفارسية .انتهى

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ ولله السفن التي أنشئت لتجري في البحر كأنها الجبال . فهو الذي علمكم صنعتها وجعلها ترسوا فوق البحر وتجري فيه ولا تغرق . كما أن الصانع للسفن وهو الإنسان مصنوعٌ لله فكان صنعة المصنوع صنعاً لمن صنعه فهو الذي جعل فيه اليدين والعقل المفكر والقدرة على العمل ، ولو أن بشراً صنع روبورتاً وهو البشر الآلي فصنع هذا الربورت شيئاً لنسب هذا الصنع لمن صنع الربورت لأنه هو الذي جعله يصنع هذه المصنوعات ولله المثل الأعلى ولذا قال الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾سورة الصافات

قال الطبري : اخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ ، فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْكُوفَةِ (الْمُنْشِئَاتُ) بِكَسْرِ الشِّينِ ، بِمَعْنَى : الظَّاهِرَاتُ السَّيْرِ اللاَّتِي يُقْبِلْنَ وَيُدْبِرْنَ . وَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْبَصْرَةِ وَالْمَدِينَةِ وَبَعْضُ الْكُوفِيِّينَ ﴿ الْمُنْشَآتُ ﴾ بِفَتْحِ الشِّينِ بِمَعْنَى الْمَرْفُوعَاتُ الْقِلاَعِ اللاَّتِي تُقْبِلُ بِهِنَّ وَتُدْبِرُ. وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ صَحِيحَتَا الْمَعْنَى مُتَقَارِبَتَاهُ ، فَبِأَيَّتِهِمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ .انتهى قال مجاهد : مَا رُفِعَ قِلْعُهُ مِنَ السُّفُنِ فَهِيَ مُنْشَآتٌ ، وَإِذَا لَمْ يُرْفَعْ قِلْعُهَا فَلَيْسَتْ بِمُنْشَأَةٍ .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي كل شيءٍ على ظهر الأرض سيفنى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ لا باقي إلا الله وعبَّر بالوجه عن الذات لأنه أعظم الصفات ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ صاحب العظمة والإكرام والنعت للوجه لأن ذو مرفوعة وفي قراءة ابن مسعود (ذي الجلال والإكرام) ليكون النعت عائداً على ﴿ رَبِّكَ ﴾ والقراءة الأولى أشهر وتعظيم الوجه تعظيمٌ لصاحبه .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْئَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يفزع إليه في المسألة أي الدعاء والطلب كل من في السماوات والأرض يعني كل المخلوقات تطلبه وتسأله ليقضي حاجاتها ، وحاجات الخلائق لا تنتهي ولذلك قال ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ عن ابن عباسٍ قال : يَعْنِي مَسْأَلَةَ عِبَادِهِ إِيَّاهُ الرِّزْقَ وَالْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي ذَلِكَ . وقال قتادة : لاَ يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَلاَ أَهْلُ الأَرْضِ ، يُحْيِي حَيًّا ، وَيُمِيتُ مَيِّتًا ، وَيُرَبِّي صَغِيرًا ، وَيَفِكُّ أَسِيرًا ، وَهُوَ مَسْأَلُ حَاجَاتِ الصَّالِحِينَ ، وَمُنْتَهَى شَكْوَاهُمْ ، وَصَرِيخُ الأَخْيَارِ. وقال أيضاً : يَخْلُقُ مُخَلَّقًا ، وَيُمِيتُ مَيِّتًا ، وَيُحْدِثُ أَمْرًا. وقال مجاهد : مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعْطِيَ سَائِلاً ، وَيَفُكَّ عَانِيًا ، وَيُجِيبَ دَاعِيًا وَيَشْفِيَ سَقِيمًا.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ هذا للتهديد والوعيد بلسان العرب فإن القائل منهم يقول سأفرغ لك ولو لم يكن به شغلاً عنه ولكن لتهديده وتخويفه . والله جل وعلا لا يشغله شيءٌ عن شيءٍ ، وإنما أراد التخويف والتهديد للإنس والجن لأنهما المكلفان وعليهما الحساب . قال بن عباس : وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ لِلْعِبَادِ ، وَلَيْسَ بِاللَّهِ شُغْلٌ ، وَهُوَ فَارِغٌ . وقيل معنى سنفرغ لكم أي سنقصد لكم أي لمحاسبتكم . وقيل المراد سنفرغ مما وعدناكم حين نوصل كلاً إلى ما وعدناه . قال بن كثير : قال بن جريج أي سنقضي لكم . وقال البخاري: سنحاسبكم . لا يشغله شيء عن شيء ، وهو معروف في كلام العرب ، يقال لأتفرغن لك وما به شغل ، يقول: لآخذنك على غِرَّتك .انتهى . وقال البغوي : وليس المراد منه الفراغ عن شغل ، لأن الله تعالى لا يشغله شأن عن شأن ، ولكنه وعيد من الله تعالى للخلق بالمحاسبة ، كقول القائل: لأتفرغن لك وما به شغل ، وهذا قول ابن عباس والضحاك ، وإنما حسن هذا الفراغ لسبق ذكر الشأن . وقال آخرون: معناه: سنقصدكم بعد الترك والإمهال ونأخذ في أمركم كقول القائل للذي لا شغل له: قد فرغتَ لي. وقال بعضهم: إن الله وعد أهل التقوى وأوعد أهل الفجور ثم قال: سنفرغ لكم مما وعدناكم وأخبرناكم فنحاسبكم ونجازيكم وننجز لكم ما وعدناكم ، فيتمَّ ذلك ويفرغ منه ، وإلى هذا ذهب الحسن ومقاتل .انتهى . والثقلان الجن والانس سميا بذلك تشريفاً لهما لتكليفهما فإنه يقال لمن كان له قدر ومنزلة إنه لذو ثقل . وقال جعفر الصادق : لأنهما مثقلان بالذنوب .

قال الطبري : اخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾ فَقَرَأَتْهُ قَرَأَةُ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَبَعْضُ الْمَكِّيِّينَ ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ بِالنُّونِ . وَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَّةُ قَرَأَةِ الْكُوفَةِ (سَيَفْرُغُ لَكُمْ) بِالْيَاءِ وَفَتْحِهَا رَدًّا عَلَى قَوْلِهِ ﴿ يَسْئَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ

وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : يَسْأَلُنَا مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ فَأَتْبَعُوا الْخَبَرَ الْخَبَرَ. وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ مُتَقَارِبَتَا الْمَعْنَى فَبِأَيَّتِهِمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ .انتهى

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي إن استطعتم أن تجوزوا من أرجاء السماوات والأرض فجوزوا لا تستطيعون فعل ذلك إلا بسلطان . قال مجاهد وعكرمة : إلا بحجة . وقال قتادة : إلا بملكةٍ من الله . وقيل : إلا بسلطان العلم . وقد اختُلِفَ في معنى هذه الآية على ثلاثة أقوال :

الأول / أن ذلك يقال لهم يوم القيامة أي أن استطعتم الهرب من الله ومن عذاب الله فاهربوا ولكن لا مهرب لكم إلا بحجة وهي الإيمان والعمل الصالح .

الثاني / أن المراد الهرب من الموت وأينما هربتم إلا كان ملك الله وسلطان الله عليكم فلا مهرب لكم منه .

الثالث / أن ذلك في الحياة أي أن استطعتم أن تجوزوا من أرجاء السماوات والأرض فتعلموا ما فيهما فجوزوا لا تستطيعون ذلك إلا بملكةٍ من الله يملككم إياها وهي العلم . ومن هنا للتبعيض فإن الجن والانس مهما بلغوا من التقدم والرقي في العلم والتكنولوجيا فلن يستطيعوا الاطلاع على كل ما في السماوات والأرض ولكن بعضاً منه وهو القليل .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا ﴾ إذا أردتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فسيرسل الله عليكم ﴿ شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ ﴾ أي لهب من نار لا دخان فيه . ﴿ وَنُحَاسٞ ﴾ وقد اختلفوا فيه فقيل هو النحاس المعروف قال قتادة : يخوفهم بالنار وبالنحاس . وقال بن عباسٍ : الصفر يعذبون به . ونحوه عن مجاهد وسفيان . وقيل هو دخان النار وهو مرويٌ عن ابن عباسٍ وسعيد ورجحه الطبري . ﴿ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ فلا أحد يمنعكم من الله . قال القرطبي : والمعنى على كل قولٍ : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا .انتهى

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ يوم القيامة ﴿ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ فكانت كالدابة الوردة وهو قول بن عباس والضحاك وأبو صالح . قال الفراء : أراد بالوردة الفرس الوردة تكون في الربيع وردةً إلى الصفرة ، فإذا اشتد البرد كانت وردةً حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وردةً إلى الغبرة ، فشبه تلوّن السماء بتلون الوردة من الخيل ، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه .انتهى . وقيل: المعنى تصير في حمرة الورد وجريان الدهن ، أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم ، وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها. ذكره القرطبي وقال الماوردي : فيه وجهان : أحدهما : وردة البستان وهي حمراء ، وقد تختلف ألوانها لكن الأغلب من ألوانها الحمرة ، وبها يضرب المثل في لون الحمرة قال عبد بني الحسحاس : فلو كنت وردًا لونه لعشقتني ولكن ربي شانني بسواديا

كذلك تصير السماء يوم القيامة حمراء كالورد ، قاله ابن بحر .

الثاني : أنه أراد بالوردة الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي الشتاء أغبر ، فشبه السماء يوم القيامة في اختلاف ألوانها بالفرس الورد ، لاختلاف ألوانه ، قاله الكلبي والفراء .انتهى

وقوله ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ أي صافيةً كصفاء الدهن وإشراقه وهو مرويٌ عن مجاهد والضحاك وابن زيد وأبو الجوزاء ورجحه الطبري . وقيل رقيقة ذائبة كذوبان الدهن ورقته ذكره القرطبي ، وقيل متلونة كألوان الدهن وهو قول الفراء . وعن ابن عباسٍ ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ أي كالأديم الأحمر . ونُسِبَ إلى أبي عبيد والفراء ، وهو معنى قول سعيد بن جبير وقتادة : أنها تكون حمراء . وقال عطاء : لون السماء كلون دهن الورد في الصفرة . وقال زيد ابن أسلم: تصير كعكر الزيت.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ قيل لا يسألهم الله لأنه أعلم بأعمالهم وقيل لا يسأل بعضهم بعضاً لأن كلاً مشغولٌ بذنبه ، وقيل لا تسأل عنهم الملائكة لتأخذهم إلى العذاب لأنهم معروفون بسيماهم .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ هذا تفسير للآية السابقة أي لا يسألون عن ذنوبهم لأنهم معروفون بسيماهم قال الحسن وقتادة : سواد الوجه وزرقة العيون . ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ أي تأخذهم الملائكة إلى النار تحملهم بنواصيهم وهي مقدمة الرأس وأقدامهم فتقذفهم في النار . وهذا يؤيد قول من قال في الآية السابقة لا تسأل عنهم الملائكة .

تنبيه : قد يقع اختلافٌ عند بعض الناس بين هذه الآية ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ ومثلها قوله تعالى ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ من (٧٨) سورة القصص وبين قوله تعالى ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة الصافات وقوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ سورة الحجر وقوله ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ سورة الأعراف وقوله ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة القصص وقد أجيب عن ذلك بعدة إجابات :

أولاً / أنهم لا يسألون سؤال استعلامٍ واستخبار ، وإنما يسألون سؤال توبيخٍ وتقريع .

ثانياً / أن يوم القيامة يوم طويل فيسألون في أوله ولا يسألون في آخره . وقيل يسألون في موقف الحساب ولا يسألون في موقف العقاب . قال قتادة : قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم .

ثالثاً / أن المنفي السؤال عن الذنوب خاصة فقوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ وقوله ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ هي في الذنوب خاصة . وأما المثبت فعامٌ في بقية الأعمال يشهد لذلك قوله تعالى ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾ سورة الأحزاب وقوله ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الى قوله ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ من (١١٦) الى (١١٩) سورة المائدة ولعل الراجح هو الجواب الأول لأن بقية الأجوبة يمكن الاعتراض عليها .

قال الشنقيطي : قوله تعالى ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ سورة الأعراف هذه الآية الكريمة تدل على أن الله يسأل جميع الناس يوم القيامة ونظيرها قوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ سورة الحجر وقوله ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة الصافات وقوله ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة القصص وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾: سورة الرحمن وكقوله ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ من (٧٨) سورة القصص

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه :

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه وهو أن السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقريع ، وأداته غالبا (لم) وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبا (هل) فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع ، والمنفي هو سؤال: الاستخبار والاستعلام ، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في القرآن كله توبيخ وتقريع كقوله ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة الصافات وكقوله ﴿ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة الطور وكقوله ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ من (١٣٠) سورة الأنعام وكقوله ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ من (٨) سورة الملك إلى غير ذلك من الآيات ، وسؤال الله للرسل ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموؤدة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها.

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة ففي بعضها يسألون وفي بعضها لا يسألون.

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل ، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه ، ويدل لهذا قوله تعالى ﴿ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ من (٦٥) سورة القصص والعلم عند الله تعالى .انتهى

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ يقال لهم ذلك ليزدادوا ألماً وحسرةً على تكذيبهم بها حين كانوا في ساعة الإمهال في الدنيا ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ يطوف المجرمون بين النار المحرقة والماء المغلي الذي بلغ غايته في الحرارة . قال بن عباسٍ وسعيد وسفيان والحسن والضحاك وقتادة : قد انتهى حره . وقال بن زيد : الآني : الحاضر . قال: يطوفون بينها وبين حميمٍ حاضر .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾

ولما ذكر الله جل وعلا مصير الكفار والمشركين أهل النار أعقبه بذكر مصير المتقين أهل الجنة وهم صنفان : المقربون وأصحاب اليمين . فالمقربون لهم جنتان ، وأصحاب اليمين لهم جنتان ، فابتدأ بذكر مصير المقربين وما أعدَّ لهم فقال تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي خاف مقامه بين يدي ربه يوم القيامة . قال بن زيد : مقامه حين يقوم العباد يوم القيامة وقرأ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾سورة المطففين وقال: ذاك مقام ربك . وقال مجاهد : هو الرجل يهمّ بالذنب فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركه ، فله جنتان. قال القرطبي : والمعنى خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية. ف (مَقَامَ) مصدر بمعنى القيام. وقيل: خاف قيام ربه عليه أي إشرافه واطلاعه عليه ، بيانه قوله تعالى﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾من (٣٣) سورة الرعد .انتهى

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾ أي فيهما ألوان الملاذ . قال بن عباسٍ ومجاهد وأبو سنان والضحاك : ذواتا ألوان . زاد الضحاك : من الفاكهة . وقال قتادة : يعني فضلهما وسعتهما على ما سواهما. وعن مجاهد أيضاً وعكرمة: إن الأفنان ظل الأغصان على الخيطان. وقال مقاتل : يعني ذواتا أغصان يتماس أطراف شجرها بعضه بعضاً كالمعروشات . قال أبو منصور : واحد الأفنان إذا أردت بها ألوان فن . وإذا أردت بها الأغصان فواحدها فنن .

قال بن كثير : أي: أغصان نَضِرَة حسنة ، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة . هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة: إن الأفنان أغصان الشجَر يمس بعضُها بعضا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عمرو بن علي حدثنا مسلم بن قتيبة حدثنا عبد الله بن النعمان سمعت عكرمة يقول﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ يقول: ظِل الأغصان على الحيطان ألم تسمع قول الشاعر حيث يقول:

ما هاجَ شَوقَكَ من هَديل حَمَامَةٍ ... تَدْعُو على فَنَن الغُصُون حَمَاما

تَدْعُو أبا فَرْخَين صادف طاويا ... ذا مخلبين من الصقور قَطاما

وحكى البغوي عن مجاهد وعكرمة والضحاك والكلبي: أنه الغصن المستقيم طوالا . قال: وحدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد السلام بن حرب حدثنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ ذواتا ألوان. قال: وقد

روي عن سعيد بن جبير والحسن والسدي وخُصَيف والنضر بن عربي وأبي سِنَان مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنوناً من الملاذ واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غصنٍ يجمع فنوناً من الفاكهة . وقال الربيع بن أنس﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ ﴾ واسعتا الفناء . وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينها ، والله أعلم. وقال قتادة:﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ ﴾ ينبئ بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها. وقال محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن أسماء قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر سدرة المنتهى فقال (يسير في ظل الفَنَن منها الراكب مائة سنة أو قال: يستظل في ظل الفَنَن منها مائة راكب فيها فراش الذهب ، كأن ثمرها القِلال) .انتهى

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ قيل في كل واحدةٍ عيناً . وروي عن بن عباسٍ والحسن أن إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل وقد جاء في الكتاب ﴿ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٖ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ وقال تعالى ﴿ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ﴾ سورة الانسان قال بعضهم : جرت دموع المتقي على عينيه رغبةً ورهبةً من ربه فأجرى الله له عينان في الجنة .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾ قال الطبراني : أي نَوعَان وصِنفَان : حلوٌ وحامضٌ وأحمرٌ وأصفرٌ ، ورَطبٌ ويابسٌ. ويقال : صِنفَان : صنفٌ عَهِدُوهُ في الدُّنيا ، وصنفٌ لم يَعهَدوهُ ولا خطرَ في قلوبهم .انتهى

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا ﴾ البطائن جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة يعني تكون في الداخل وقيل هي التي تلي الأرض ﴿ مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ ما غلظ من الحرير. نبه بالأدنى على فضل الأعلى . وقيل لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾من(١٧) سورة السجدة وقال ابن عباسٍ: إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم ، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله .﴿ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي ثمرها قريب يتناوله القائم والقاعد والمضطجع .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ أي نظرهن مقصورٌ على أزواجهن فلا يرين غيرهم أحدا . قال مجاهد : قَصُر طرفهنّ عن الرجال فلا ينظرن إلا إلى أزواجهنّ . ﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ ﴾ أي لم يجامعهن قبلهم أحد .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ الياقوت حجر يشف ما وراءه من صفائه فإذا أدخلت فيه سلكاً رأيت السلك من وراء الحجر . وتقدم تفسير السلف للمرجان عند قوله تعالى ﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ

﴿ ٢٢ ﴾ بأنه صغار اللؤلؤ وبعضهم قال كباره وبعضهم قال هو الخرز الأحمر . واللؤلؤ أبيض . ولذلك قال مجاهد والحسن وقتادة والسدي وسفيان وابن زيد : صفاء الياقوت وبياض المرجان . والجمع بين البياض والحمرة في النساء ممكن بل أجمل شيءٍ في النساء هو البياض المشوب بحمرة فإذا اجتمع مع ذلك صفاء البشرة ورقتها ونعومتها فقد بلغت الغاية في الجمال .

قال عمرو بن ميمون : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلةً فيرى مخ ساقها من وراء ذلك كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء . وعنه عن بن مسعودٍ أنه قال : أن المرأة من أهل الجنة لتلبس سبعين حلةً من حرير فيرى بياض ساقها وحسنه ، ومخّ ساقها من وراء ذلك ، وذلك لأن الله قال﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ ألا ترى أن الياقوت حجر، فإذا أدخلت فيه سلكاً رأيت السلك من وراء الحجر .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ استفهام تقريري أي ليس جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب ، وشتان بين حسنٍ يصنعه المخلوق وحسنٍ يصنعه الخالق . قال قتادة : عملوا خيراً فجوزوا خيراً . وقال بن المنكدر : هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا الجنة .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي أقل منهما في الدرجة وهي درجة أصحاب اليمين قال بن زيد : هما أدنى من هاتين لأصحاب اليمين .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ قال بن عباسٍ وابن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة وأبو صالح وعطية: خضراوان من الري . زاد قتادة : إذا اشتدت الخضرة ضربت إلى السواد . وقال بن زيد : من شدة خضرتهما كادتا تكونان سَوْداوين. وقال مجاهد : مسودتان . وقال الحسن وقتادة أيضاً : ناعمتان .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ فوارتان . والنضخ أكثر من النضح صباً للماء . لكنه أقل من الجري .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ من ذكر الخاص بعد العام كقوله تعالى ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾سورة البقرة فإن جبريل وميكال من الملائكة كما أن النخل والرمان من الفاكهة ، ويذكر الخاص بعد العام إما لسببٍ أوجب ذكره أو لبيان مزيته على بقية أفراد العام .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ قيل المعنى في الجنتين خيرٌ كثيرٌ حسن فخيرات جمع خير وقيل نساء صالحات حسان وعلى هذا المعنى قرأ قتادة وابن السميقع وأبو رجاء العطاردي وبكر بن حبيب السهمي (خيِّرات)

بالتشديد . كما قال القرطبي . وقال الزهري وقتادة : خَيِّرات الأخلاق حِسان الوجوه . قال القرطبي : في الحديث (إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصواتٍ لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها : نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ، ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ، ونحن خيرات حسان ، حبيبات لأزواج كرام) خرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه. وقالت عائشة رضي الله عنها : إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن المصليات وما صليتن ، ونحن الصائمات وما صمتن ، ونحن المتوضئات وما توضأتن ، ونحن المتصدقات وما تصدقتن . فقالت عائشة رضي الله عنها : فغلبنهن والله .انتهى.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ ﴾ الحور نساء الجنة سمين بالحور قيل لأن العين تختار في حسنهن وجمالهن وقيل من حور العيون وهي شدة سواد السواد وبياض البياض في العين . ﴿ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ أي محبوسات في الخيام فلا تخرج من خيمة زوجها أبداً ، وخيام الجنة من لؤلؤة مجوفة . وقيل محبوسات على أزواجهن فلا يردن بدلاً منهم . وعليه يكون قوله تعالى﴿ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾ له معنىً جديد أي مكانهن في الخيام .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾ لم يمسسهن أحدٌ قبلهم لا من الإنس ولا من الجان . وهذا يدل على أن للجن حوريات كما أن للإنس حوريات . فنفي الطمث المتقدم لهن عن الثقلين يدل على أنه سيحصل لهن الطمث منهم في الجنات .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ عن علي بن أبي طالب وابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد : أنها المحابس . وقال مقاتل : المحابس الخضر على الفرش . وعن ابن عباسٍ وسعيد بن جبير : رياض الجنة . وقال مجاهد: فضول الفرش . وقال الحسن وابن كيسان : مرافق خضر . وعن الحسن قال : هي البسط. وقال عاصم الجحدري : هي الوسائد .

فأما من قال : رياض الجنة . فقيل سميت بالرفرف من رفّ النبت إذا نعم وحسن . قلت : ويمكن لأنه حين يضربها الهواء ترفرف أي تتحرك وتهتز . يقال رفرف الطير إذا حرَّك جناحَيه حول الشيء يريد أن يقع عليه . وأنت ترى كثيراً من الناس في الدنيا تحب أن تجلس على الرياض الخضر بلا فرش فكيف برياض الجنة .

وأما من قال : هي وسائد . فقيل سميت بالرفرف لأن الرفرف يدل على العلو فكلما رفرف الطائر كلما علا وكذلك الوسائد يعلوا عليها الجالس أو النائم أو المتكئ وبه فسر الشيخ عبد الرحمن بن معاضة الشهري قول السلف هي المحابس قال: أي الوسائد . وهذا غريبٌ منه فإن المعروف أن الوسائد عند العرب تسمى النمارق . وقيل : المحابس جمع محبس وهو ثوب يطرح على ظهر الفراش الموضوع على السرير الذي ينام الإنسان عليه . قال في حاشية تفسير القرطبي : . المحابس: جمع

محبس كمقعد ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه .انتهى وقال بن كثير : قال العلا : الرفرف على السرير كهيئة المحابس المتدلي .انتهى فيظهر أن معنى المحابس هي مفارش الأسرة وسميت رفارف إما لنعومتها وحسنها وإما لزيادتها عن حجم السرير ونزولها منه فترفرف أي تتحرك مع الهواء والعلم عند الله تعالى . قال السعدي : متكأهم على الرفرف الأخضر وهي الفرش التي فوق المجالس العالية التي قد زادت على مجالسهم فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم لزيادة البهاء وحسن المنظر .انتهى

وأما من قال : مرافق فمعناه المساند . ويمكن أن تدخل ضمن الوسائد لأن الوسائد يستند عليها أيضاً .

وأما قول مجاهد والحسن أنها بسط أو فرش فيمكن أن يكونوا فسروها بقوله تعالى ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾سورة الواقعة قال الرازي : الرفرف إما أن يكون أصله من رف الزرع إذا بلغ من نضارته فيكون مناسباً لقوله تعالى ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ ويكون التقدير أنهم متكئون على الرياض والثياب العبقرية ، وإما أن يكون من رفرفة الطائر وهي حومه في الهواء حول ما يريد النزول عليه فيكون المعنى أنهم على بسطٍ مرفوعة كما قال تعالى ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ .انتهى

وبهذا يتبين لنا أن أقوال السلف ثلاثة : فالأول المحابس وتشمل الفرش والبسط ، والثاني الوسائد وتشمل المرافق والمساند والثالث رياض الجنة . وعليها تدور أقوال المفسرين . وهناك قولٌ رابع قاله بعض المفسرين أنه مقعد يرفرف بصاحبه كالمراجيح . قال القرطبي : واشتقاق الرفرف من رف يرف إذا ارتفع ومنه رفرفة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء. وربما سموا الظليم رفرافاً بذلك لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو. ورفرف الطائر أيضاً إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه. والرفرف أيضاً كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها الواحدة رفرفة. وفي الخبر في وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة أي رفع طرف الفسطاط. وقيل: أصل الرفرف من رف النبت يرف إذا صار غضاً نضيراً حكاه الثعلبي. وقال القتبي: يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النعمة والغضاضة حتى كاد يهتز: رف يرف رفيفاً حكاه الهروي. وقد قيل: إن الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمرجاح يميناً وشمالاً ورفعاً وخفضاً يتلذذ به مع أنيسته قاله الترمذي الحكيم في (نوادر الأصول) وقد ذكرناه في (التذكرة) .انتهى

﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ أي بسطٍ جميلة . قال ابن عباس وقتادة وسفيان بن عيينة : يعني الزرابي. وقال سعيد بن جبير : عتاق الزرابي . يعني جيادها . وقال مجاهد: الديباج . وقال الحسن وابن زيد : الطنافس . وعن الحسن بسط الجنة. وقال مقاتل: يعني الزرابي وهي الطنافس المخملة . وقال أبو عبيدة العبقري عند العرب البسط .انتهى وقولهم هي الزرابي يعني البسط الفاخرة كقوله تعالى ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ يعني بسط فاخرة مفرقة في أماكن متعددة من المجالس . وقولهم : هي الطنافس قال أهل اللغة أنها تطلق على البسط والثياب والحصير الذي من سعف وعرضه ذراع . وقيل واحده طنفسة وهي النمرقة التي فوق الرحل .

واختلفوا في تسميتها بالعبقري فقال أبو عبيدة : العبقري نسب إلى قرية يقال لها عبقر يصنع فيها ضروب البرود والوشي . وقال ابن الأنباري: إن الأصل فيه أن عبقر قرية يسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل. وقال الجوهري: العبقري موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن...ثم نسبوا إليه كل شيء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوته فقالوا : عبقري. وقال الخليل: كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقري. ومنه قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عمر رضي الله عنه (فلم أر عبقرياً من الناس يفري فرية) قال أبو عمرو بن العلاء : أي رئيس قومٍ وجليلهم.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ تبارك تفاعل من البركة أي تكاثر خيره وعم وثبت ودام . واسم ربك أي جنس أسماء ربك فكل أسماءه خيرٌ وبركة كما قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾من (١٨٠) سورة الأعراف أي كل أسمائه حسنى فادعوه بها لتنالكم بركتها. قال الماوردي ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾: فيه وجهان : أحدهما : معناه ثبت اسم ربك ودام . الثاني : أن ذكر اسمه يمن وبركة ، ترغيباً في مداومة ذكره .انتهى وقال بن الجوزي : فيه قولان : أحدهما : أن ذِكْر الاسم صِلَة ، والمعنى : تبارك ربُّك . والثاني : أنه أصل . قال ابن الأنباري : المعنى : تفاعل من البَرَكة ، أي : البَرَكة تُنال وتُكْتَسَب بذِكْر اسمه . انتهى وقال الغنيمان : المعنى أن البركة تكتسب وتنال بذكر اسمه .انتهى وقال الطبري : تبارك ذكر ربك يا محمد .انتهى وقال الطبراني : أي عَظُمَتِ البركةُ في اسمِ ربكَ فاطلُبُوا البركةَ في كلِّ شيءٍ يُذكَرُ فيه اسمُهُ . انتهى وذكر القرطبي أن المراد به اسمه الرحمن فقال : وكأنه يريد الاسم الذي افتتح به السورة فقال﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ ﴾ فافتتح بهذا الاسم ، فوصف خلق الإنسان والجن وخلق السموات والأرض وصنعه وأنه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ ووصف تدبيره فيهم ، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها وصفه النار ثم ختمها بصفة الجنان. ثم قال في آخر السورة ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ أي هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة ، كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتي ، فمن رحمتي خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار ، فهذا كله لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه . انتهى ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ قال بن عباسٍ : ذي العظمة والكبرياء . وقال مقاتل : العظيم الكريم . وقال القرطبي : جليل في ذاته ، كريم في أفعاله. قال الهراس ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ ﴾ صَاحِبِ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ سُبْحَانَهُ ، الَّذِي لَا شَيْءَ أَجَلُّ وَلَا أَعْظَمُ مِنْهُ . ﴿ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ الَّذِي يَكْرُمُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَقِيلَ : الَّذِي يُكْرِمُ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ بِأَنْوَاعِ الْكَرَامَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . انتهى

أولاً /في قوله تعالى﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾ بيان أن القران نعمة عظيمة أنعم الله بها على العباد إذ بعلمه واتباعه يحصل لهم الفلاح في الدنيا والآخرة .

ثانياً / في قوله تعالى﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ بيان أن النطق والتحدث والتعبير باللسان عن ما في الضمير من النعم العظيمة التي ينبغي الاكثار من شكر الله عليها فكم من أبكمٍ يتمنى هذه النعمة ليستأنس بالحديث مع الناس ولكنه حرمها وأعطيتها أنت فاشكر ربك قولاً وعملاً بطاعته وابتغاء مرضاته .

ثالثاً /في قوله تعالى ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ بيان أن من نعم الله التي ينبغي أن تذكر فتشكر نعمة الشمس والقمر فبالشمس يحصل الضوء والدفء في النهار والقمر ينير في الليل ويعرف بهما الحساب ويزينان السماء وفيهما من الفوائد ما الله به عليم فينبغي التفكر فيهما وشكر المنعم بهما على عباده .

رابعاً / أن بالعدل قوام الحياة واستقامتها وبالظلم يحصل الفساد في الأرض ولذلك أنزل الله الميزان الذي يعرف كل واحد مقدار ما له وما عليه به منعاً للظلم والتجاوز ولذلك نهى عن الطغيان فيه بمجاوزته زيادةً أو نقصاً على وجه الظلم .

خامساً / في هذه السورة ذكر المولى جل وعلا عدداً من نعمه على عباده ليتفكر العباد فيها ويعرفوا فضل الله عليهم فيشكروه ويوحدوه ولا يشركوا معه أحدا .

سادساً / أسلوب الترغيب والترهيب من أنفع الأساليب في الدعوة إلى الله ولذلك اشتملت هذه السورة على آياتٍ عدة في الترهيب من النار وما أعد الله لأهلها وفي الترغيب في الجنة وما أعد الله لأهلها .

سابعاً / أن الجن كالأنس مكلفون ويجري عليهم الوعد والوعيد فمنهم من هو من أهل النار ومنهم من هو من أهل الجنة وعذابهم كعذاب الانس ونعيمهم كنعيمهم في كل ما ذكر من أمور الآخرة .

ثامناً / أن الخير كل الخير والبركة في الاكثار من ذكر الله جل وعلا فبه ترفع الدرجات وتحط السيئات وتطمئن القلوب التقية وتنشرح الصدور المؤمنة وتزكوا النفوس وتطيب الحياة وتحصل السعادة ، وبالغفلة عن ذكر الله تستوحش القلوب وتتكمش الصدور وتتكدر الحياة وتذهب السعادة ويحصل الشقاء . فشتان بين الذاكرين والغافلين .

تفسير سورة الواقعة

مكية وآياتها (٩٦)

عن أبي ظبية قال: مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: ألا آمر لك بعطاء ؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: يكون لبناتك من بعدك؟ قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلةٍ سورة الواقعة إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا) قال السيوطي في الدر : أخرج أبو عبيد في فضائله وَابن الضريس والحارث بن أبي أسامة وأبو يعلى وَابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا)

قال الألباني : ضعيف . أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (١٧٨ - من زوائده) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٦٧٤) وابن لال في حديثه (١١٦ / ١) وابن بشران في الأمالي (٢٠ / ٣٨ / ١) والبيهقي في الشعب وغيرهم من طريق أبي شجاع عن أبي طيبة عن ابن مسعود مرفوعاً . وهذا سندٌ ضعيف ، قال الذهبي : أبو شجاع نكرة لا يعرف عن أبي طيبة ، ومن أبو طيبة ؟ عن ابن مسعود بهذا الحديث مرفوعاً . وقد أشار بهذا الكلام إلى أن أبا طيبة نكرة لا يعرف وصرح في ترجمته بأنه مجهول . ثم إن في سند الحديث اضطراباً من وجوه ثلاثة بينها الحافظ ابن حجر في اللسان في ترجمة أبي شجاع هذا فليراجعه من شاء ، وفي فيض القدير للمناوي : وقال الزيلعي تبعاً لجمع : هو معلول من وجوه : أحدها : الانقطاع كما بينه الدار قطني وغيره . الثاني : نكارة متنه كما ذكره أحمد . الثالث : ضعف رواته كما قاله ابن الجوزي . الرابع : اضطرابه ، وقد أجمع على ضعفه أحمد وأبو حاتم وابنه والدارقطني والبيهقي وغيرهم . وقال المناوي في التيسير : والحديث منكر .انتهى

وقال محقق تفسير بن كثير في الحاشية : وقد أعل الزيلعي رحمه الله هذا الحديث بأربع علل ترجح بعدها ضعفه: الأولى: الانقطاع كما ذكره الدارقطني وابن أبي حاتم في علله نقلا عن أبيه. الثانية: نكارة متنه قاله الإمام أحمد. الثالثة: ضعف رواته: السري بن يحيى وشجاع كما ذكره ابن الجوزي. الرابعة: الاضطراب فمنهم من يقول: أبو طيبة بالطاء المهملة ومنهم من يقول: أبو ظبية بالظاء المعجمة. ومنهم من يقول: أبو فاطمة ومنهم من يقول: شجاع ومنهم من يقول: أبو شجاع وقد اجتمع على ضعفه: الإمام أحمد وأبو حاتم وابنه والدارقطني والبيهقي وابن الجوزي تلويحاً وتصريحاً والله أعلم .انتهى

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا) قال الألباني : موضوع . رواه الديلمي من طريق أحمد بن عمر اليمامي بسنده إلى ابن عباس رفعه ذكره السيوطي في ذيل الأحاديث الموضوعة (١٧٧) وقال : أحمد اليمامي كذاب .انتهى

وعن أنسٍ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سورة الواقعة سورة الغنى فَاقْرَءُوهَا وعلموها أولادكم) وفي رواية (من قرأ سورة الواقعة وتعلمها لم يكتب من الغافلين ، و لم يفتقر هو وأهل بيته) قال الألباني : موضوع . أورده السيوطي في ذيل الأحاديث الموضوعة (٢٧٧) من رواية أبي الشيخ بسنده عن عبد القدوس بن حبيب عن الحسن عن أنس رفعه . وقال السيوطي : عبد القدوس بن حبيب متروك . قلت : وقال عبد الرزاق : ما رأيت ابن المبارك يفصح بقوله : كذاب إلا لعبد القدوس وقد صرح ابن حبان بأنه كان يضع الحديث .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (علموا نساءكم سورة الواقعة فإنها سورة الغنى) قال الألباني : ضعيف أخرجه الديلمي في مسند الفردوس ص٢٦٨ - مصورة الجامعة الإسلامية عن علي بن الحسين بن حبيب : حدثنا موسى بن فرقد البصري عن أنس مرفوعا . قلت : وهذا إسناد ضعيف مظلم ، فيه جماعة لم أجد لهم ترجمة منهم موسى هذا والراوي عنه .انتهى

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنساء : لا تعجز إحداكن أن تقرأ سورة الواقعة. قال عيد فهمي : أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (٢٥٨) موقوفاً وسنده منقطع .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، قد شبتَ ؟ قال (شيَّبتني هود والواقعة والمرسلات وعَمَّ يتساءلون وإذا الشمس كورت) قال الحمادي : أخرجه الترمذي في سننه (٣٢٩٧) وفي الشمائل (٤١) وأبو يعلى في مسنده (١٠٢/١) والحاكم في المستدرك (٤٦٧/٢) وغيرهم. وهو حديثٌ مضطربٌ سنداً ومتناً كما بين الحافظ الدار قطني في العلل (١٩٣/١) والحافظ ابن حجر في النكت (٧٧٤/٢) وغيرهما. قال الدار قطني: شيبتني هود وأخواتها معتلةٌ كلها . كما في سؤالات السهمي ، وقد جاءت شواهد متعددة لهذا الحديث من حديث ابن مسعود وعمران بن حصين وأبي جحيفة وغيرهم إلا أنها ضعيفة جداً ولا يمكن تقويةُ الحديث بها .انتهى

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور . قال الحمادي : أخرجه ابن خزيمة (٥٣١) وابن حبان (١٨١٣) والحاكم في المستدرك (٢٤٠/١) والبيهقي في الكبير (١١٩/٣) وكذا عبدالرزاق في المصنف (٢٧٢٠) ومن طريقه أحمد في مسنده (٥٠٤/٣٤) والطبراني في الكبير (١٩١٤) من طرق عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة . وإسناده لابأس به على اختلافٍ يسيرٍ وقعَ في متنه ، فقد روى الحديثَ مسلم في صحيحه (٤٥٨) وأبو عوانة (١٦٠/٢) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٠/٣٤، ٤٣٢ ، ٤٩٢ ، ٥٠١، ٥١١) والطبراني في الكبير (١٩٣٧، ١٩٣٨، ٢٠٠٠، ٢٠٥٢) وغيرهم من طرق عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة. وفيه﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ بدل (الواقعة) وأخشى أن يكون هذا الاختلافُ من سماك نفسه فإن في حفظه شيئاً. انتهى

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ ﴾ أي إذا قامت القيامة كقوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ ﴾سورة الحاقة

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ ﴾ أي هي كائنة حقاً وليست كذباً . وقيل المعنى : لا يستطيع أحدٌ تكذيبها إذا وقعت ، لأنها تدرك القريب والبعيد . فيكون تفسيرها الآية التي تليها . وقيل المعنى : لا يردها شيء إذا وقعت. قال بن كثير : أي ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارفٌ يصرفها ولا دافعٌ يدفعها كما قال﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ من (٤٧) سورة الشورى وقال﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ ﴾سورة المعارج .انتهى

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ قيل أسمعت القريب والبعيد ، وهو قول بن عباسٍ وعكرمة والضحاك . وقيل خفضت أعداء الله إلى النار ، ورفعت أولياؤه إلى الجنة ، وهو قول عثمان بن عبد الله بن سُراقة . وجمع قتادة بينهما فقال : تخللت كلّ سهلٍ وجبل حتى أسمعت القريب والبعيد ، ثم رفعت أقواماً في كرامة الله ، وخفضت أقواماً في عذاب الله .انتهى وقيل ﴿ خَافِضَةٌ ﴾ أسمعت أهل الأرض ﴿ رَّافِعَةٌ ﴾ أسمعت أهل السماء .

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾ حُرِّكت حركةً شديدة وهي زلزلة القيامة .

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد وعكرمة وإسماعيل السدي وأبو صالح : فُتِّتت فتاً . قال الطبري : البسيسة عند العرب: الدقيق والسويق تلتّ وتتخذ زاداً . قال : يقول تعالى ذكره: فتتت الجبال فتاً فصارت كالدقيق المبسوس ، وهو المبلول .انتهى

﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ الهباء هو شعاع الشمس الذي يدخل من النافذة كهيئة الغبار وهذا قول بن عباسٍ وسعيد ومجاهد وروي عن علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أنه رهج الدواب أي الغبار المتطاير من ركضها قال : يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء. وعن ابن عباسٍ أنه ما تطاير من النار إذا اضطرمت من الشرر ونحوه فإذا وقع لم يكن شيئاً . وقال قتادة: يبس الشجر تذروه الرياح . والمنبث : المتفرق . من بثّ الشيء إذا فرّقه . قال القرطبي : وقرأ مسروق والنخعي وأبو حيوة (منبتا) بالتاء المثناة أي منقطعا من قولهم : بته الله أي قطعه .انتهى.

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ ﴾ أي أصنافاً ثلاثة . ثم بيَّن هذه الأصناف فقال ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾ هؤلاء أصحاب اليمين وهم أكثر أهل الجنة ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ ﴾ هؤلاء أصحاب الشمال وهم أهل النار ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون الذين سبقوا إلى فعل الخيرات

وترك المنكرات وهؤلاء أعلى أهل الجنة درجة ولذلك قال ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ عند ربهم ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ فهم في أعلى الجنة وأقربها إلى الرحمن ثم بيَّنهم فقال ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي جماعة كثيرة من الأولين وجماعة قليلة من الآخرين . وقد اختلفوا في المراد بالأولين والآخرين ، فقيل الأولون الأمم المتقدمة ، والآخرون أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول الحسن وابن جريج والطبري . وقيل بل الأولون هم صدر أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم والآخرون من بعدهم ، أي كلهم من هذه الأمة ، وهذا قول مجاهد . وقيل الأولون صدر كل أمةٍ ، والآخرون من جاء بعدهم من تلك الأمة . وهذا قول قتادة .

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ قال بن عباسٍ والضحاك : أي مصفوفة . كقوله تعالى ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾من (٢٠) سورة الطور وعن بن عباسٍ والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد ومقاتل ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ مرمولة . يعني منسوجة مشبكة . قال الضحاك : الْوَضْنُ التَّشْبِيكُ وَالنَّسْجُ ، يَقُولُ : وَسَطُهَا مُشَبَّكٌ مَنْسُوجٌ . وقال قتادة : مرملة مشبكة . وعنه : الموضونة المرملة وهو أوثق الأسرة . قال الطبري : فَوْقَ سُرَرٍ مَنْسُوجَةٍ قَدْ أُدْخِلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ كَمَا يُوضَنُ حَلَقُ الدِّرْعِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ مُضَاعَفَةً .انتهى ثم اختلفوا فيما كان نسجها وتشبيكها فقال بن عباسٍ ومجاهد وسعيد بن جبير : مرمولة بالذهب. وقال عكرمة : مشبكةً بالدر والياقوت. وقال السُّدِّيّ : مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال مقاتل: مشبكةً أوساطها بقضبان الدر والياقوت والزبرجد. وقال بن زيد : مرمولة بالجلد . قال بن كثير : مضفورة بالذهب واللآلئ . انتهى قال القرطبي: وفي التفاسير ﴿ مَّوْضُونَةٍ ﴾ أي منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد .انتهى

وعند أهل اللغة : قال الزبيدي في تاج العروس : وَضَنَ الشَّيءَ يَضِنُه وَضْناً فهو مَوْضُونٌ ووضِينٌ إذا ثَنَى بعضَه على بعضٍ وضاعَفَهُ... والمَوْضُونَةُ : الدِّرْعُ المَنْسوجَةُ عن شَمِرٍ . أَو المُقارِبَةُ النَّسْجِ المُداخَلَةُ الحِلَقِ بعضُها في بعضٍ ... أَو المَنْسوجَةُ حَلْقَتَيْنِ حَلْقَتَيْنِ نَقَلَهُ الزَّمَخْشرِيُّ أَو المَنْسوجَةُ بالجَواهِرِ... والوَضْنُ : نَسْجُ السَّرِيرِ بالدرِّ والثِّيابِ . وسَرِيرٌ مَوْضونٌ : مُضاعَفُ النَّسْجِ ومنه قَوْلُه تعالى ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ .انتهى

وقال الأزهري في تهذيب اللغة : قال الفرّاء : المَوْضُونةُ : المَنْسُوجةُ ، وإنما سَمّت العربُ وَضِينَ الناقةِ وَضِيناً لأنه منسوج . ويقال : وضَنَ فلانٌ الحجر والآجُر بعضُه فوق بعضٍ : إذا أشْرَجه : فهو مَوْضون . وقال الليث : الوَضْن : نسجُ السَّرِيرِ وأشباهِه بالجوهر والثياب ، وهو مَوْضُونٌ .قال : والوَضِينُ : البِطَانُ العَرِيض . .انتهى

وقال الخليل بن أحمد في العين : الوَضينُ : بطانُ البعير إذا كان مَنْسُوجاً بَعضُه في بعض يكونُ من السُّيُور وهو فَعيل في موضع مفعُول وجمعُه أوضِنة قال : (إليكَ تَعْدو قَلِقاً وضينُها ... مُعترِضاً في بَطنِها جَنينُها) والوَضْنُ : نَسْجُ السَّرِيرِ وشِبْهه بالجَوْهَر والثِّياب فهو مَوْضُونٌ وقوله تعالى ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ أي مَنسُوجَةٍ بالدُّرِّ بعضُها في بعضٍ مضاعَفٍ .انتهى

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ بوجوههم . قال بن عباسٍ ومجاهد : لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه . قال بن كثير : أي: وجوه بعضهم إلى بعض ، ليس أحدٌ وراء أحدٍ .انتهى

﴿ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي يدور عليهم خدمٌ لا يموتون ، بل هم باقون في خدمتهم دائماً . قال مجاهد : لا يموتون ولا يكبرون . وقال مقاتل (ولدان) يعني غلمانٌ لا يكبرون (مخلدون) لا يموتون .

﴿ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ ﴾ أي يطوف الولدان عليهم﴿ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ ﴾ ممتلئةً بما يشتهونه من أنواع الشراب﴿ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴾ أي كأس خمرٍ من عينٍ جارية . قال القرطبي : المعين الجاري من ماءٍ أو خمر ، غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون. وقيل: الظاهرة للعيون فيكون ﴿ مَّعِينٖ ﴾ مفعولاً من المعاينة. وقيل: هو فعيلٌ من المعن وهو الكثرة. وبيَّن أنها ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصرٍ وتكلفٍ ومعالجة .انتهى.

﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا ﴾ لا تصيبهم بالصداع ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ولا تذهب بعقولهم كخمر الدنيا . وقيل : أي لا ينفد شرابهم . قال الطبري : اخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَتِهِ ، فَقَرَأَتْ عَامَّةُ قَرَأَةِ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ (يُنْزَفُونَ) بِفَتْحِ الزَّايِ ، وَوَجَّهُوا ذَلِكَ إِلَى أَنَّهُ لاَ تُنْزَفُ عُقُولُهُمْ ، وَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قَرَأَةِ الْكُوفَةِ (وَلاَ يُنْزِفُونَ) بِكَسْرِ الزَّايِ بِمَعْنَى : وَلاَ يَنْفَدُ شَرَابُهُمْ. وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ صَحِيحَتَا الْمَعْنَى ، فَبِأَيَّتِهِمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ فِيهَا الصَّوَابَ .انتهى

﴿ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ويطوف عليهم الولدان بما يطلبونه من أنواع الفواكه .

﴿ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ ويطوف عليهم الولدان بما يشتهونه من لحوم الطيور .

﴿ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ رفعت على الابتداء لأن الحور العين مما لا يطاف به . أي ولهم حورٌ عين . أو وعندهم حورٌ عينٌ والحوراء قيل هي البيضاء ، وقيل هي التي تختار العين في حسنها وجمالها . وقيل هو من حور العيون وهي شدة بياض البياض في العين مع شدة سواد السواد فيها . والعِين أي الواسعة العيون .

وقرأها بعض قراء الكوفة كحمزة والكسائي وبعض المدنيين كأبي عبد الرحمن السلمي بالجر (وَحُورٍ عِينٍ) معطوفاً على ﴿ بِأَكۡوَابٖ ﴾ اتباعاً في اللفظ (أي الإعراب) واختلافاً في المعنى لأنه لا يطاف بالحور . وهذا قول الفراء ، وقال الزجاج بل هو على المعنى لأن المعنى يتنعمون بأكوابٍ وفاكهةٍ ولحمٍ وحورٍ . وقال قطرب: هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حملٍ على المعنى ، ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذة. وقيل عطفت على ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ

﴿ ١٢ ﴾ بتقدير مضافٍ محذوف والتقدير (في جناتِ النعيمِ في معاشرةِ حورٍ) ولا شك أن قول قطرب على قراءة الجر أقرب إلى الصواب ما دام المعنى ممكناً وهو كذلك ، وذلك أولى من تقدير ألفاظٍ ومعانٍ لم يأتِ بها النص .

وقرأها الأشهب العقيلي والنخعي وعيسى بن عمر الثقفي بالنصب (وحوراً عيناً) وكذلك هي في مصحف أبي وذلك على تقدير إضمار فعل أي : ويزوجون حوراً عيناً. ذكره القرطبي .

﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ هن في صفاء بياضهن وحسنهن أشبهن اللؤلؤ المحفوظ في كنِّه وهو الصدف .

﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي اعطوا هذا النعيم ثواباً لأعمالهم الصالحة في الدنيا .

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ قيل اللغو الباطل ، والتأثيم الكذب . وقيل اللغو ما لا فائدة فيه من الكلام ، والتأثيم ما فيه إثم من القول كالكذب والزور ونحو ذلك . وقيل التأثيم يشمل القول والفعل ، وإنما نفى سماع اللغو وتبعه في النفي التأثيم وقد يكون غير مسموع وهذا كقول : أكلت خبزاً ولبناً . واللبن يشرب ولا يؤكل ، ولكن صح فيه اللفظ اتباعاً للمأكول ، فكذلك التأثيم صح فيه لفظ السماع اتباعاً للغو ولو كان الاثم فعلاً ، والعلم عند الله تعالى .

﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ لا يسمعون في الجنة إلا قولاً طيباً سليماً من اللغو والتأثيم ، وقيل لا يسمعون قولاً يكرهونه كما يكون في الدنيا من سماع أخبار المصائب والنكبات ، وقيل المراد كثرة تسليم الملائكة عليهم كقوله تعالى ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾سورة الرعد وقيل تسليم بعضهم على بعض كقوله تعالى﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾من (٢٣) سورة إبراهيم وقيل تسليم الرب جل وعلا عليهم كقوله تعالى ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾سورة يس .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ هؤلاء الصنف الثاني من أصحاب الجنة وهم في منزلة أقلّ من السابقين وهم الذين اقتصروا على الفرائض أو عملوا بعض السيئات التي غفرها الله لهم . ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ ماذا أعددنا لهم في الجنة . قال السيوطي: أخرج عَبد بن حُمَيد وَابن جَرِير والبيهقي في البعث عن مجاهد قال : كانوا يعجبون من وج وظلاله من طلحه وسدرة فأنزل الله ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ .انتهى

﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ أي منزوع الشوك وهو قول بن عباسٍ وعكرمة وقتادة وأبو الأحوص وغيرهم ، وقيل موقر الحمل . وهو قول بن عباسٍ أيضاً وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم .

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ الطلح هو الموز كما قاله علي بن أبي طالب وابن عباسٍ وأبو سعيد الخدري وعطاء ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم . وقال أبو عبيد في مجاز القران : زعم المفسرون أنه الموز ، وأما العرب فالطلح عندهم شجرٌ عظيمٌ كثير الشوك .انتهى. قال البغوي ﴿ وَطَلْحٍ ﴾ أي موز واحدها طلحة عن أكثر المفسرين. وقال الحسن: ليس هو بالموز ولكنه شجر له ظلٌ باردٌ طيب. قال الفراءُ وأبو عبيدة: الطلح عند العرب: شجرٌ عِظامٌ لها شوك. انتهى والمنضود المتراكب بعضه على بعض كقوله تعالى ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾سورة ق وروي عن عليٍ رضي الله عنه أن رجلاً قرأ عنده ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ فقال ما بال الطلح إنما هي (وطلعٍ منضود) وقرأ ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾سورة ق في روايةٍ وفي الرواية الأخرى قرأ ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ من (١٤٨) سورة الشعراء فقيل له : يا أمير المؤمنين أنحكها من المصاحف؟ فقال: لا يهاج القرآن اليوم . ذكره بن جرير والانباري . قال بن كثير : قال الجوهري: والطلح لغةً في الطلع .ثم ذكر بن كثير الرواية عن عليٍ ثم قال : فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر فكأنه وصفه بأنه مخضود وهو الذي لا شوك له ، وأن طلعه منضود وهو كثرة ثمره والله أعلم .انتهى وقال الألوسي في روح المعاني بعد أن ذكر الرواية عن عليٍ رضي الله عنه قال: وهي رواية غير صحيحة كما نبه على ذلك الطيبي ، وكيف يقر أمير المؤمنين كرم اللّه تعالى وجهه تحريفاً في كتاب اللّه تعالى المتداول بين الناس ، أو كيف يظنّ بأن نقلة القرآن ورواته وكتّابه من قبل تعمدوا ذلك أو غفلوا عنه ؟ هذا واللّه تعالى قد تكفل بحفظه ، سبحانك هذا بهتان عظيم .انتهى

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي دائم لا ينقطع كما قال تعالى ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾من (٣٥) سورة الرعد وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لاَ يَقْطَعُهَا وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ متفق عليه وعن أبي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه عَنِ النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا) متفق عليه قال أبو عبيدة: العرب تقول للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع ممدود .انتهى وقال الطبري : يَقُولُ : وَهُمْ فِي ظِلٍّ دَائِمٍ لاَ تَنْسُخُهُ الشَّمْسُ فَتُذْهِبُهُ ، وَكُلُّ مَا لاَ انْقِطَاعَ لَهُ فَإِنَّهُ مَمْدُودٌ ، كَمَا قَالَ لَبِيدٌ :غَلَبَ الْبَقَاءَ وَكُنْتُ غَيْرَ مُغَلَّبٍ دَهْرٌ طَوِيلٌ دَائِمٌ مَمْدُودُ. انتهى

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ ﴾ أي مصبوب أي كثير الصب والجريان من العيون والأنهار . قال مقاتل : يعني منصباً كثيراً . وقال بن جريج : أي جارٍ . وقال الثوري : يجري في غير أخدود . قال القرطبي : أي جارٍ لا ينقطع . وأصل السكب الصب يقال: سكبه سكباً ، والسكوب انصبابه ، يقال: سكب سكوباً ، وانسكب انسكاباً ، أي وماءٍ مصبوبٍ يجرى الليل والنهار في غير أخدودٍ لا ينقطع عنهم. وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء ، فوعدوا في الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا وهي الأشجار وظلالها والمياه والأنهار واطرادها .انتهى

﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ويتنعم أهل الجنة بفاكهة كثيرة لا تنقطع عنهم كفاكهة الدنيا التي تتقيد بالأزمنة كفاكهة الصيف تنقطع في الشتاء والعكس . وليست ممنوعةً عنهم بسببٍ من الأسباب كعدم المقدرة على شرائها لقلة ذات اليد أو بسبب مرضٍ يمنع من أكل أنواعٍ منها أو بسبب الشوك الذي يحول بينهم وبينها أو بسبب ارتفاع شجرها وبعدها عنهم ، فكل ذلك منتفٍ في فواكه الجنة ، فهي دائمة لا تنقطع ، سهلة لا تمتنع .قال بن عباس : لا تنقطع حيناً وتجيء حيناً مثل فاكهة الدنيا ، ولا ممنوعة كما تمنع في الدنيا إلا بثمن .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ قيل مرفوعة أي على الأسرة وقيل مرفوعة أي طويلة عالية وقيل مرفوعة بعضها فوق بعض وقيل الفرش كناية عن نساء الجنة أي عاليات القدر يدل عليه سياق الآيات بعدها . قال القرطبي : وقيل أراد بالفرش النساء والعرب تسمى المرأة فراشاً ولباساً على الاستعارة﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفعن بالجمال والفضل على نساء الدنيا .انتهى

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾ أي خلقناهن خلقاً جديداً بعد أن كن في الدنيا عجائز هرمات لا رغبة لأحدٍ فيهن خلقناهن خلقاً آخر في الجنة ﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾ أي عذارى ويدل على شبابهن وصغر سنهن ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ العروب المتحببة إلى زوجها والأتراب يعني في سنٍ واحدة . قال القرطبي : قيل : هن الحور العين ، أي خلقناهن من غير ولادة. وقيل: المراد نساء بني آدم ، أي خلقناهن خلقاً جديداً وهو الإعادة ، أي أعدناهن إلى حال الشباب وكمال الجمال. والمعنى أنشأنا العجوز والصبية إنشاءً واحداً .انتهى

قال بن كثير : قال موسى بن عُبَيدة الرَّبَذِي عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾ قال (نساء عجائز كُنّ في الدنيا عُمْشًا رُمْصًا) رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم. ثم قال الترمذي: غريب وموسى ويزيد ضعيفان وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا آدم يعني: ابن أبي إياس حدثنا شيبان عن جابر عن يزيد بن مُرَّة عن سلمة بن يزيد قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾ يعني (الثيب والأبكار اللاتي كُنَّ في الدنيا) . انتهى وقال المحقق في الحاشية : ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٧/٤٠) وأبو نعيم في صفة الجنة برقم (٣٨٩) من طريق شيبان به ، وجابر بن يزيد ضعيف .انتهى قال بن كثير : وقال عبد بن حُمَيد حدثنا مصعب بن المقدام حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: أتت عجوز فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة. فقال (يا أم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز) قال: فَوَلَّت تبكي، قال (أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾ وهكذا رواه الترمذي في الشمائل عن عبد بن حميد .انتهى قلت : هذا حديثٌ مرسل والمرسل من أنواع الضعيف كما هو معلومٌ عند أهل المصطلح .

﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي هذا النعيم أُعدَّ لأصحاب اليمين وهم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي جماعة كثيرة من الأولين وجماعة كثيرة من الآخرين . والأولين هم القرون المتقدمة على هذه الأمة وقيل هم صدر هذه الأمة وقيل أوائل كل أمة . والآخرين هم هذه الأمة أو أواخرها أو أواخر كل أمة .

ولما ذكر الله ما يكون لأصحاب الجنة من النعيم أعقبه بذكر ما يكون لأصحاب النار من العذاب من باب الترهيب بعد الترغيب فقال ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ أي ما يكون حالهم ، وسماهم أصحاب الشمال لأنهم يأخذون كتبهم بشمالهم . وقال الطبري : الذين يؤخذ بهم ذات الشمال من موقف الحساب إلى النار .انتهى

﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ السموم الهواء الحار ، والحميم الماء المغلي ، والمراد أنهم في سموم جهنم وحميمها .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي من دخانٍ شديد السواد ، قال بن عباسٍ ومجاهد وعكرمة وأبو مالك وقتادة وابن زيد : الدخان . ومرادهم دخان جهنم . والعرب تصف الشديد السواد باليحموم . قال القرطبي : اليحموم في اللغة : الشديد السواد وهو يفعول من الحم وهو الشحم المسود باحتراق النار. وقيل: هو مأخوذ من الحمم وهو الفحم. قال : أي من دخان جهنم أسود شديد السواد .. وقيل : أي من النار يعذبون بها كقوله تعالى ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ من (١٦) سورة الزمر . انتهى

﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي لا يجدون برد الظل ولا كرامة لهم به ، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم . قال الطبري : ليس ذلك الظلّ ببارد كبرد ظلال سائر الأشياء ولكنه حارٌ لأنه دخانٌ من سعير جهنّم ، وليس بكريم لأنه مؤلم من استظلّ به والعرب تتبع كلّ منفيّ عنه صفة حمد نفي الكرم عنه فتقول: ما هذا الطعام بطيبٍ ولا كريم ، وما هذا اللحم بسمينٍ ولا كريم ، وما هذه الدار بنظيفة ولا كريمة .انتهى وقال قتادة : لا بارد المنزل ، ولا كريم المنظر. ونحوه عن سعيد بن جبير .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ يعني في الدنيا كانوا منعَّمين فلم يشكروا الله على نعمائه . وقال القرطبي : أي إنما استحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا متنعمين بالحرام. والمترف : المنعم . عن ابن عباسٍ وغيره .انتهى

﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ وكانوا يتمسكون بالذنب العظيم وهو الشرك بالله . والإصرار على الذنب الإقامة عليه وترك الإقلاع عنه . قال مجاهد والحسن ﴿ يُصِرُّونَ ﴾ يدمنون . وقال بن زيد : لا يتوبون ولا يستغفرون . وقال مقاتل والطبري : يقيمون . وقال بن كثير : يصممون ولا ينوون توبة . والمعنى واحد . وقال بن عباسٍ وابن زيد وقتادة والضحاك ومقاتل ﴿ ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الشرك . وقال مجاهد : الذنب العظيم . وقال الشعبي : اليمين الغموس . وكان المشركون

يقسمون أن لا بعث وأن الأصنام أنداد الله كما قال تعالى﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾من (٣٨) سورة النحل والحنث في اليمين عدم ابرارها ، فكان حلفهم بإنكار البعث حنثٌ عظيم .

﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ استبعاداً للبعث .

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أن الأولين من آبائهم ومن الأمم المتقدمة والآخرين منهم وممن بعدهم من الأمم اللاحقة سوف يجمعهم الله جل وعلا في وقتٍ محدد في يومٍ معلومٍ عند الله جل وعلا وهو يوم القيامة .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ ﴾ في ذلك اليوم ﴿ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ المنحرفون عن الصراط المستقيم ﴿ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ بالبعث والحساب ﴿ لَءَاكِلُونَ ﴾ من شدة الجوع ﴿ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ وهو شجرٌ ينبت في جهنم يكون عذاباً على أهلها وصفه الله في سورة الدخان فقال﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾وقال في الصافات ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ وقال هاهنا﴿ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ ﴾ أي الماء المغلي ﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي شاربون من الحميم شرب الإبل التي أصابها داء الهيام وهو داء يجعل الإبل تعطش منه عطشاً شديداً فتشرب شرباً كثيراً .

قال بن كثير : قال ابن عباسٍ ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر وعكرمة: الهِيم: الإبل العطاش الظماء. وعن عِكْرِمَة أنه قال: الهيم: الإبل المراض تَمص الماء مَصًّا ولا تَرْوَى. وقال السدي: الهيم: داء يأخذ الإبل فلا تَرْوَى أبدًا حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبدًا .انتهى

وقال القرطبي : الهيم الإبل العطاش التي لا تروى لداءٍ يصيبها عن ابن عباسٍ وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم ... وقال الضحاك والأخفش وابن عيينة وابن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل. وروي أيضا عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء. المهدوي: ويقال لكل مالا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء. وفي الصحاح: والهُيام بالضم أشد العطش. والهيام كالجنون من العشق. والهيام داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى. يقال: ناقة هيماء. والهَيماء أيضاً المفازة لا ماء بها. والهَيام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك أن يسيل من اليد للينه والجمع هيم مثل قذال وقذل. والهِيام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان ، وناقة هيماء مثل عطشان وعطشى. انتهى

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ هذا الزقوم والحميم هو ضيافتهم في يوم الجزاء والحساب وهو يوم القيامة .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ في الدنيا ولم تكونوا شيئاً ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أننا سنعيد خلقكم في الآخرة ، فإن القادر على الخلق الأول قادرٌ على إعادة الخلق مرةً أخرى .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ عند جماع زوجاتكم ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ في أرحامهن ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ يعني إذا أقررتم أنا نخلقكم في بطون أمهاتكم من ماءٍ مهين أفلا تقرون أننا نقدر أن نعيد خلقكم في الآخرة .

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ جعلناه بأجلٍ مقدر فمنكم المتقدم ومنكم المتأخر ، وقيل كتبناه على أهل الأرض وعلى أهل السماء فلا باقي إلا الله . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ولسنا بعاجزين ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ نذهب بكم ونأتي بآخرين من جنسكم . ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ ونخلقكم في ما لا تعلمون من الصور والأماكن . قال القرطبي: قال الحسن: أي نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم. وقيل: المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا فيجعل المؤمن ببياض وجهه ، ويقبح الكافر بسواد وجهه. وقال مجاهد: في أي خلقٍ شئنا. وقيل : المعنى ننشئكم في عالمٍ لا تعلمون ، وفي مكانٍ لا تعلمون .انتهى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ ﴾ أي خلقكم من نطفة ثم من علقة ...الخ وهو قول مقاتل . وقال مجاهد : إذ لم تكونوا شيئاً . وقيل المراد : خلق آدم وهو قول الضحاك وأبو عمران الجوني وقال قتادة : يعني خلق آدم لستَ سائلاً أحدًا من الخلق إلا أنبأك أن الله خلق آدم من طين. ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ فهلا تذكرون فتعلمون أن القادر على خلقكم من المني وخلق أبيكم آدم من طين قادرٌ على إعادة خلقكم في دارٍ أخرى على صورٍ أخرى.

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ من الأرض للزراعة ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ ﴾ تخرجون زروعه ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ الذين أنبتنا الزرع . قال القرطبي : هذه حجة أخرى ، أي أخبروني عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر ، أنتم تنبتونه وتحصلونه زرعاً فيكون فيه السنبل والحب أم نحن نفعل ذلك؟ وإنما منكم البذر وشق الأرض ، فإذا أقررتم بأن إخراج السنبل من الحب ليس إليكم ، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى لأن الحرث فعلهم ويجري على اختيارهم ، والزرع من فعل الله تعالى . قال : وقال الماوردي: وتتضمن هذه الآية أمرين أحدهما: الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم. الثاني: البرهان الموجب للاعتبار ، لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر ثم جعله قوياً مشتداً أضعاف ما كان عليه ، فهو بإعادة من أمات أخف عليه وأقدر ، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة .انتهى

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ هشيماً لا تنتفعون به . ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ فأقمتم تتلاومون نادمين محزونين تتعجبون مما أصاب زرعكم ولا تستطيعون رد ما أصابه . قال بن عباسٍ ومجاهد وقتادة ومقاتل ﴿ تَفَكَّهُونَ ﴾ تعجبون . وقال الحسن

وقتادة : تندمون . وقال عكرمة : تلاومون . وقال بن كيسان : تحزنون . قال الطبري : أصله من التفكه بالحديث إذا حدّث الرجلُ الرجلَ بالحديث يعجب منه ويلهى به .انتهى وتقولون ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي معذبون بسبب ذنوبنا ومعصيتنا لله . قال قتادة : معذبون . وقال مجاهد وعكرمة ومقاتل : مولعٌ بنا . يعني من الغرام كأنهم أرادوا أصابتنا عين معجب . وعن مجاهد : ملقون للشر . والمعنى واحد أنهم أصابهم عذاب وإن اختلفت أسبابه . ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي ممنوعون من الخير ومقدرٌ علينا أن لا نرزق . قال مجاهد : محدودون . وقال قتادة : محارفون . وعنه : جوزينا فحرمنا . وقال مقاتل: حرمنا خيرها . والمحدود قليل الحظ الممنوع من الخير . والمحارف الذي لا ينمي له مال يعني يتكسب فلا يكسب شيئاً وقيل هو الذي اصابته جائحة .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي من السحاب ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ مالحاً لا تستفيدون منه ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ الله على نعمائه فتعبدونه ولا تشركون به .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ تُشْعِلُون . قال مقاتل : توقدون . وعن بن عباسٍ : تقدحون . قال بن كثير : تقدحون من الزناد . وقال الطبري : تستخرجون من زندكم . وقال البغوي : تقدحون وتستخرجون من زَنْدكم . وقال القرطبي : أي أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقدح من الشجر الرطب ، يقال: أوريت النار إذا قدحتها. ﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾ أأنتم خلقتم شجرتها التي تورون منها. قال القرطبي : يعني التي تكون منها الزناد وهي المرخ والعفار ، ومنه قولهم: في كل شجرٍ نار ، واستمجد المرخ والعفار ، أي استكثر منها ، كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما. ويقال: لأنهما يسرعان الوري .انتهى وقال بن كثير : أي بل نحن الذين جعلناها مودعةً في موضعها ، وللعرب شجرتان: إحداهما: المرخ . والأخرى: العَفَار . إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحُك أحدهما بالآخر ، تناثر من بينهما شرر النار .انتهى ويمكن أن يكون المراد الشجر الذي تحتطبون منه .قال الرازي : وفي شجرة النار وجوه أحدها : أنها الشجرة التي تورى النار منها بالزند والزندة كالمرخ . وثانيهما : الشجرة التي تصلح لإيقاد النار كالحطب فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار ، لأن النار لا تتعلق بكل شيء كما تتعلق بالحطب .انتهى ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الخالقون ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ تذكركم بنار جهنم . قال بن عباسٍ ومجاهد وقتادة : تذكرة للنار الكبرى . وقال الماوردي : فيه وجهان : أحدهما : تذكرة لنار الآخرة الكبرى ، قاله قتادة . الثاني : تبصرة للناس من الظلام ، قاله مجاهد .انتهى ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ أي لنفع المسافرين يعني في التدفئة وإصلاح الطعام ونحو ذلك . قال بن عباسٍ والحسن وقتادة والضحاك : للمسافرين. وقال مجاهد : للمستمتعين الناس أجمعين . وعنه : للحاضر والبادي .وقال بن زيد : للجائعين . قال الماوردي : فيه خمسة أقاويل : أحدها: منفعة للمسافرين قاله الضحاك . قال الفراء : إنما يقال للمسافرين إذا نزلوا القِيّ وهي الأرض القفر التي لا شيء فيها . الثاني: المستمتعين من حاضرٍ ومسافر ، قاله مجاهد . الثالث : للجائعين في إصلاح طعامهم ، قاله ابن زيد . الرابع : الضعفاء

والمساكين ، مأخوذ من قولهم قد أقوت الدار إذا خلت من أهلها ، حكاه ابن عيسى .والعرب تقول قد أقوى الرجل إذا ذهب ماله ، قال النابغة: يقوى بها الركب حتى ما يكون لهم إلا الزناد وقدح القوم مقتبس

الخامس : أن المقوي الكثير المال ، مأخوذ من القوة فيستمتع بها الغني والفقير .انتهى

قال الطبري : وَأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ عِنْدِي قَوْلُ مَنْ قَالَ : عُنِيَ بِذَلِكَ لِلْمُسَافِرِ الَّذِي لاَ زَادَ مَعَهُ وَلاَ شَيْءَ لَهُ وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ : أَقْوَتِ الدَّارُ : إِذَا خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا وَسُكَّانِهَا ؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

أَقْوَى وَأَقْفَرَ مِنْ نُعْمٍ وَغَيَّرَهَا .... هُوجُ الرِّيَاحِ بَهَابِي التُّرْبِ مَوَّارِ.

يَعْنِي بِقَوْلِهِ : أَقْوَى : خَلاَ مِنْ سُكَّانِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ الْمُقْوِي : ذَا الْفَرَسِ الْقَوِيِّ ، وَذَا الْمَالِ الْكَثِيرِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. .انتهى

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ أي نزه اسم ربك أن تدعوا به الالهة والأوثان كما يفعل المشركون حين يشتقون لمعبوداتهم أسماء من أسماء الله تعالى كاللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان ونحو ذلك . وقيل المعنى عظم ربك العظيم ونزه عما لا يليق به ، والاسم صلة أريد بها تعظيم المسمى ، ويؤيده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (اجعلوها في ركوعكم) فكانوا يقولون في الركوع (سبحان ربي العظيم) ولم يقولوا (سبحان اسم ربي العظيم) قال القاسمي : الاسم صلة . وسرُّ إيراده أن المنوَّه به إذا كان في غاية العظمة كثيراً ما تضاف ألفاظ التفخيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره ، كما يقال : سلامٌ على المجلس العالي . هذا ما ذكروه . وثمة وجهٍ آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى لاستحالة اكتناه ذاته العلية ، فأقحم تنبيهاً على ذلك . انتهى من تفسيره محاسن التأويل .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ . الفاء استئنافية ، واللام زائدة لتأكيد القسم كقولك (لا والله ما قلت كذا) ولو أنك قلت (والله ما قلت كذا) لكان قسماً كافياً لكنك أتيت باللام لتأكيد القسم . كقول عائشة رضي الله عنها (لا والله ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأةٍ قط) وقيل مزيدة للتنبيه ونظيره قوله تعالى ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ من (٨) سورة هود وقوله ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾ سورة هود وقيل (لا) للرد على الكفار في أكاذيبهم أي (لا ، ليس الأمر كما يقولون) ثم استأنف فقال (أقسم بموقع النجوم) وقيل هي للنفي أي الأمر أوضح من أن يحتاج إلى أن أقسم على شيءٍ فضلاً عن أن أقسم بهذا الأمر العظيم ، وقيل هي لام القسم نفسها (فلأقسم) لكن أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف . قال القرطبي : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ ﴿ فَلَآ ﴾ صلة في قول أكثر المفسرين والمعنى فأقسم بدليل قوله﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ ﴾ وقال الفراء: هي

نفي والمعنى ليس الأمر كما تقولون ، ثم أستأنف﴿ أُقْسِمُ ﴾ وقد يقول الرجل: لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفي اليمين ، بل يريد به نفي كلام تقدم. أي ليس الامر كما ذكرت ، بل هو كذا. وقيل﴿ فَلَآ ﴾ بمعنى إلا للتنبيه كما قال:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي . ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه ، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا. وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر (فلأقسم) بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حال ويقدر مبتدأ محذوف التقدير: فلانا أقسم بذلك .انتهى

﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ منازلها في السماء وقيل مغايبها . قال مجاهد ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ في السماء . ويقال: مطالعها ومساقطها . وقال عطاء بن أبي رباح وقتادة : منازلها . وعن قتادة : مساقطها . وقال الحسن : مغايبها . وعنه : انكدارها وانتثارها يوم القيامة . وقال الضحاك : الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا.

قال بن عاشور ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ جمع موقع يجوز أن يكون مكان الوقوع أي محال وقوعها من ثوابت وسيارة والوقوع يطلق على السقوط أي الهوي فمواقع النجوم مواضع غروبها ... ويطلق الوقوع على الحلول في المكان يقال وقعت الإبل إذا بركت ووقعت الغنم في مرابضها ومنه جاء اسم الواقعة للحادثة فالمواقع محال وقوعها وخطوط سيرها فيكون قريباً من قوله ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ ﴾سورة البروج والمواقع هي أفلاك النجوم المضبوطة السير في أفق السماء وكذلك بروجها ومنازلها . وذكر مواقع النجوم على كلا المعنيين تنويهٌ بها وتعظيمٌ لأمرها لدلالة أحوالها على دقائق حكمة الله تعالى في نظام سيرها وبدائع قدرته على تسخيرها .انتهى

وقيل ليس المراد بنجوم السماء وإنما المراد القران حيث نزل منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول بن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة ومقاتل والكلبي . قال السيوطي : أخرج ابن المنذر والأنباري في كتاب المصاحف وَابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أنزل القرآن إلى السماء الدنيا جملةً واحدة ثم أنزل إلى الأرض نجوماً ثلاث آيات وخمس آيات وأقل وأكثر فقال﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ وأخرج الفريابي بسندٍ صحيح عن المنهال بن عمرو رضي الله عنه قال : قرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ قال : بمحكم القرآن فكان ينزل على النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم نجوماً . وأخرج ابن نصر وَابن الضريس عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ قال : بمحكم القرآن. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ قال : مستقر الكتاب أوله وآخره. انتهى وقال القرطبي : وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. وقرأ حمزة والكسائي (بموقع) على التوحيد ، وهي قراءة عبد الله بن مسعود والنخعي والأعمش وابن محيصن ورويس عن يعقوب. الباقون على الجمع ، فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدي الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه .انتهى

وقال الرازي : فيه وجوه : الأول : المشارق والمغارب أو المغارب وحدها فإن عندها سقوط النجوم . الثاني : هي مواضعها في السماء في بروجها ومنازلها . الثالث : مواقعها في اتباع الشياطين عند المزاحمة . الرابع : مواقعها يوم القيامة حين تنتثر النجوم . وأما مواقع نجوم القرآن فهي قلوب عباده وملائكته ورسله وصالحي المؤمنين ، أو معانيها وأحكامها التي وردت فيها .انتهى

ورجح الطبري أن المراد مساقط النجوم ومغايبها في السماء قال : وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوَاقِعَ جَمْعُ مَوْقِعٍ ، وَالْمَوْقِعُ الْمَفْعِلُ مِنْ وَقَعَ يَقَعُ مَوْقِعًا ، فَالأَغْلَبُ مِنْ مَعَانِيهِ وَالأَظْهَرُ مِنْ تَأْوِيلِهِ مَا قُلْنَا فِي ذَلِكَ .انتهى أراد معنى الوقوع أي السقوط .

والجمع في نجوم السماء ممكن فإن اللفظ يحتمل معنى الوقوع وهو السقوط ويكون سقوط النجوم بغروبها أو برجمها على الشياطين أو بتناثرها يوم القيامة . ويحتمل معنى الموقع والموقع المكان ومكان النجوم منازلها التي تسير فيها ، وإذا احتملت اللفظة أكثر من معنى فإنها تحمل على كل المعاني التي تحتملها ما لم يكن بينها تضاد كما ذكروه في قواعد التفسير .

وأما قولهم أن المراد بنجوم القران فتحتمل معنى الوقوع أي النزول لأنه ينزل من السماء إلى الأرض ، وتحتمل معنى الموقع أي قلب النبي صلى الله عليه وسلم كما قال بن عباس : مستقر الكتاب أوله وآخره. أي مكان قراره .

وهل يمكن الجمع بين هذا القول الأخير وهو أن المراد نجوم القران وبين الأول أن المراد نجوم السماء فالذي يظهر لي أنه لا يمكن لأنه وإن كان لفظ النجوم يحتمل المعنيين لفظاً لكنه لا يحتملهما معنىً فلا يمكن اقترانهما وأن يقال أراد نجوم السماء وأراد نجوم القران فبينهما تباعد فإما أن يكون المراد نجوم السماء وإما نجوم القران والذي يظهر لي أن المراد نجوم السماء فإن ألفاظ القران تحمل على المعنى الظاهر المعروف عند العرب ما لم يدل الدليل على نقله إلى معنىً آخر ولا دليل هنا على أن المراد بالنجوم نجوم القران وليس في قوله ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ دليل على ذلك فإن جواب القسم كثيراً ما يذكر مغايراً للمقسم به كقوله تعالى ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾سورة الليل وقوله ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾سورة الضحى ونحو ذلك والعلم عند الله تعالى .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ قال السعدي : كان القسم عظيماً لأن في النجوم وجريانها وسقوطها عند مغاربها آيات وعبر لا يمكن حصرها .انتهى والضمير في قوله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ ﴾ قيل يعود على القسم أي (وإن هذا القسم لقسم عظيم) وقيل يعود على المقسم به وهو مواقع النجوم أي (وإن القسم بمواقع النجوم لقسم عظيم) وقيل يعود على المقسم عليه أي جواب القسم وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقوله ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ ﴾ نفي للعلم عنهم : أي لو كان عندكم علم لعظمتموه وعظمتم خالقه الذي صنعه على هذا التفصيل البديع . وقال الرازي : وإنه دليلٌ وبرهانٌ قوي لو تعلمون وجهه لاعترفتم بمدلوله وهو التوحيد والقدرة على الحشر .انتهى

قال صاحب الكشاف : جواب (لو) إما محذوف بالكلية لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، إذ المقصود هو نفي علمهم أي : أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم عظيم ولكنكم لا تعلمون قيمته ومنزلته . وإما أن يكون جوابها مقدراً فيكون المعنى : أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم عظيم لو كان عندكم علمٌ نافع لعظمتموه ولآمنتم بما أقسمنا عليه ، ولكنكم لم تعظموه و لم تؤمنوا لجهلكم ولانطماس بصائركم .انتهى وذكر بن عاشور أن المراد بنفي العلم عنهم أي العلم التفصيلي لأن المشركين لا يخلون من علمٍ إجماليٍ متفاوت بأن في تلك المواقع عبرة للناظرين . وذكر وجهاً آخر وهو أنه بكفرهم لم يقوموا بموجب ذلك العلم من توحيد الله وتعظيمه فكان علمهم كالعدم .

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ ﴾ جواب القسم بيان كرامة القران وعلو منزلته . قال بن كثير : أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتابٌ عظيم .انتهى وقال القرطبي : أي أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآنَ قرآنٌ كريم ، ليس بسحر ولا كهانة وليس بمفترى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين لأنه كلام ربهم وشفاء صدورهم ، كريم على أهل السماء لأنه تنزيل ربهم ووحيه. وقيل ﴿ كَرِيمٞ ﴾ أي غير مخلوق. وقيل ﴿ كَرِيمٞ ﴾ لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور. وقيل : لأنه يكرم حافظه ، ويعظم قارئه .انتهى . وقال الرازي : كريم بمعنى طاهر الأصل ، ظاهر الفضل ، لفظه فصيح ، ومعناه صحيح ، لكن القرآن أيضاً كريم على مفهوم العوام فإن كل من طلب منه شيئاً أعطاه ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه والحكيم يستمد به ويحتج به ، والأديب يستفيد منه ويتقوى به .انتهى

﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ ﴾ أي مصونٍ محفوظ عن أن يمسه سوء أو يخالطه باطل . قال بن جرير : في كتابٍ مصون .انتهى وقال بن كثير : في كتابٍ معظمٍ محفوظٍ موقر .انتهى وقال القرطبي : مصون عند الله تعالى. وقيل: مكنون محفوظ عن الباطل .انتهى

وقد اختلفوا فيه فقال مقاتل : هو اللوح المحفوظ . وقال بن عباسٍ وجابر بن زيد وأبي مميك : هو الكتاب الذي في السماء . وهو محتمل أنهم أرادوا اللوح المحفوظ . ويحتمل أنهم أرادوا القران المنزل إلى السماء الدنيا . فإن بن عباسٍ قد صرح بأن القران أنزل ليلة القدر جملةً إلى السماء الدنيا ثم صار ينزل نجوماً على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد الصحف التي بأيدي الملائكة . وقال مجاهد : القرآن في كتابه المكنون الذي لا يمسه شيء من ترابٍ ولا غبار.

قال القرطبي : والكتاب هنا كتابٌ في السماء قاله ابن عباس. وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضاً: هو اللوح المحفوظ. عكرمة: التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ومن ينزل عليه. السدي: الزبور. مجاهد وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا .انتهى

وأنكر بن العربي أن يكون المراد اللوح المحفوظ فقال : وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله في وقتٍ ولا تصل إليه بحال .انتهى

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ قال بن عباسٍ وأنس بن مالك ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل وأبو العالية والربيع بن أنس : الملائكة . قال قتادة : ذاكم عند ربّ العالمين ، فأما عندكم فيمسه المشرك النجس والمنافق الرَّجس. وقال أبو العالية : الملائكة عليهم السلام ليس أنتم يا أصحاب الذنوب . وقال الضحاك : زعموا أن الشياطين تنزلت به على محمد فأخبرهم الله أنها لا تقدر على ذلك ولا تستطيعه ، ما ينبغي لهم أن يتزلوا بهذا وهو محجوب عنهم .انتهى قال الإمام مالك : أحسن ما سمعت في قوله ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في (عبس وتولى) ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ .انتهى

وقيل المراد : لا يمس القران إلا من كان على طهارة ، واستدلوا بحديث (لا يمس القران إلا طاهر) قال القرطبي : وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أن كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونسخته (من محمد النبي إلى شرحبيل بن عبد كلال والحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال قيل ذي رعين ومعافر وهمدان أما بعد) وكان في كتابه (ألا يمس القرآن إلا طاهر) وقال ابن عمر: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر). وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ فقام واغتسل وأسلم .انتهى

قَالَ اِبْنُ عَبْدِ الْبَرِّ لَا خِلَافَ عَنْ مَالِكٍ فِي إِرْسَالِ هَذَا الْحَدِيثِ . وَقَدْ رُوِيَ مُسْنَدًا مِنْ وَجْهٍ صَالِحٍ وَهُوَ كِتَابٌ مَشْهُورٌ عِنْدَ أَهْلِ السِّيَرِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مَعْرِفَةً يُسْتَغْنَى بِهَا فِي شُهْرَتِهَا عَنْ الْإِسْنَادِ لِأَنَّهُ أَشْبَهَ الْمُتَوَاتِرَ لِتَلَقِّي النَّاسِ لَهُ بِالْقَبُولِ. اِنْتَهَى

وقال بن كثير : واحتجوا في ذلك بما رواه الإمام مالك في موطئه عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزم: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم: ألا يمس القرآن إلا طاهر . وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ولا يمس القرآن إلا طاهر) وهذه وِجَادةٌ جيدة. قد قرأها الزهري وغيره ومثل هذا ينبغي الأخذ به ، وقد أسنده الدار قطني عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص وفي إسناد كلٍ منها نظر .انتهى

قال بن باز : لا يجوز للمسلم مس المصحف وهو على غير وضوء عند جمهور أهل العلم وهو الذي عليه الأئمة الأربعة وهو الذي كان يفتي به أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد ورد في ذلك حديث صحيح لا بأس به من حديث عمرو بن حزم أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل اليمن (أن لا يمس القران إلا طاهر) وهو حديث جيد له طرق يشد بعضها بعضاً .

وقال السيوطي : أخرج عبد الرزاق وَابن أبي داود وَابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال : في كتاب النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم (لا تمس القرآن إلا على طهور) وأخرج الطبراني وَابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يمس القرآن إلا طاهر) وَأخرَج ابن المنذر عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان لا يمس المصحف إلا متوضئاً. وأخرج سعيد بن منصور وَابن أبي شيبة في المصنف وَابن المنذر والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا فخرج إلينا فقلنا : لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن فقال : سلوني فإني لست أمسه إنما يمسه المطهرون ثم تلا ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن كتب له في عهده أن لا يمس القرآن إلا طاهر .انتهى

قال في تحفة الأحوذي شرح الترمذي : لَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مَسُّ الْمُصْحَفِ إِلَّا لِمَنْ كَانَ طَاهِرًا ، وَلَكِنَّ الطَّاهِرَ يُطْلَقُ بِالِاشْتِرَاكِ عَلَى الْمُؤْمِنِ ، وَالطَّاهِرِ مِنْ الْحَدَثِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ ، وَمَنْ لَيْسَ عَلَى بَدَنِهِ نَجَاسَةٌ وَيَدُلُّ لِإِطْلَاقِهِ عَلَى الْأَوَّلِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ من (٢٨) سورة التوبة وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ (الْمُؤْمِنُ لَا يَنْجُسُ) وَعَلَى الثَّانِي ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ﴾ من (٦) سورة المائدة وَعَلَى الثَّالِثِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ (دَعْهُمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ) وَعَلَى الرَّابِعِ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي لَيْسَ عَلَيْهِ نَجَاسَةٌ حِسِّيَّةٌ وَلَا حُكْمِيَّةٌ يُسَمَّى طَاهِرًا ، وَقَدْ وَرَدَ إطْلَاقُ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ ، وَالَّذِي يَتَرَجَّحُ أَنَّ الْمُشْتَرَكَ مُجْمَلٌ فِي مَعَانِيهِ فَلَا يُعْمَلُ بِهِ حَتَّى يَبِينَ ، وَقَدْ وَقَعَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمُحْدِثِ حَدَثًا أَكْبَرَ أَنْ يَمَسَّ الْمُصْحَفَ وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ دَاوُد . وَأَمَّا الْمُحْدِثُ حَدَثًا أَصْغَرَ فَذَهَبَ اِبْنُ عَبَّاسٍ وَالشَّعْبِيُّ وَالضَّحَّاكُ إلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ مَسُّ الْمُصْحَفِ . وَقَالَ الْقَاسِمُ وَأَكْثَرُ الْفُقَهَاءِ : لَا يَجُوزُ . كَذَا فِي النَّيْلِ . قُلْتُ : الْقَوْلُ الرَّاجِحُ عِنْدِي : قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ تَعْظِيمُ الْقُرْآنِ وَإِكْرَامُهُ وَالْمُتَبَادَرُ مِنْ لَفْظِ الطَّاهِرِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ الْمُتَوَضِّئُ وَهُوَ الْفَرْدُ الْكَامِلُ لِلطَّهَارَةِ ... ثم ذكر تنبيهاً فقال : قَالَ الْحَافِظُ فِي بُلُوغِ الْمَرَامِ بَعْدَ ذِكْرِ الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ الَّذِي اِسْتَدَلَّ بِهِ الْأَكْثَرُونَ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ مَسِّ الْقُرْآنِ لِغَيْرِ الْمُتَوَضِّئِ مَا لَفْظُهُ : رَوَاهُ مَالِكٌ مُرْسَلًا وَوَصَلَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ وَهُوَ مَعْلُولٌ اِنْتَهَى . قَالَ صَاحِبُ السُّبُلِ : وَإِنَّمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ إنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مَعْلُولٌ لِأَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ وَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَى تَرْكِهِ كَمَا قَالَهُ اِبْنُ حَزْمٍ ، وَوَهِمَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الْيَمَانِيُّ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، بَلْ هُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الْخَوْلَانِيُّ وَهُوَ ثِقَةٌ أَثْنَى عَلَيْهِ أَبُو زُرْعَةَ وَأَبُو حَاتِمٍ وَعُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ وَجَمَاعَةٌ مِنْ الْحُفَّاظِ وَكِتَابُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ تَلَقَّاهُ النَّاسُ بِالْقَبُولِ قَالَ اِبْنُ عَبْدِ الْبَرِّ إنَّهُ أَشْبَهُ الْمُتَوَاتِرِ لِتَلَقِّي النَّاسِ لَهُ بِالْقَبُولِ وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ لَا أَعْلَمُ كِتَابًا أَصَحَّ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فَإِنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّابِعِينَ يَرْجِعُونَ إلَيْهِ وَيَدَعُونَ رَأْيَهُمْ وَقَالَ الْحَاكِمُ قَدْ شَهِدَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَإِمَامُ عَصْرِهِ الزُّهْرِيُّ بِالصِّحَّةِ بِهَذَا الْكِتَابِ وَفِي الْبَابِ مِنْ حَدِيثِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إلَّا طَاهِرٌ وَإِنْ كَانَ فِي إسْنَادِهِ مَقَالٌ ، إلَّا أَنَّهُ ذَكَرَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إلَّا طَاهِرٌ) قَالَ الْهَيْثَمِيُّ رِجَالُهُ مَوْثُوقُونَ وَذَكَرَ لَهُ شَاهِدَيْنِ . انتهى

وقال القرطبي : واختلف العلماء في مس المصحف على غير وضوء ، فالجمهور على المنع من مسه لحديث عمرو بن حزم. وهو مذهب علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد ابن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة، فروي عنه أنه يمسه المحدث ، وقد روي هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس والشعبي وغيرهما. وروي عنه أنه يمس ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه ، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر. ابن العربي: وهذا إن سلمه مما يقوي الحجة عليه لأن حريم الممنوع ممنوع. وفيما كتبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمرو ابن حزم أقوى دليل عليه. وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. و لم يمنع من حمله بعلاقة أو مسه بحائل. وقد روي عن الحكم وحماد وداود بن علي أنه لا بأس بحمله ومسه للمسلم والكافر طاهراً أو محدثاً ، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله. واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه. وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما المنع اعتباراً بالبالغ. والثاني الجواز لأنه لو منع لم يحفظ القرآن لأن تعلمه حال الصغر، ولأن الصبي وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة لأن النية لا تصح منه فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثاً .انتهى

مسألة : يجوز للمحدث حدثاً أصغر قراءة القران من غير مسٍ للمصحف ، وأما الجنب فيحرم عليه مس المصحف وقراءة القران مطلقاً لما روي عن علي بن أبي طالب أنه قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من الخلاء فيقرأ القران ويأكل معنا اللحم و لم يكن يحجبه عن القران شيء ليس الجنابة) وفي لفظ (لا يحجزه عن القران شيء إلا الجنابة) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وصححه الترمذي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم والبغوي وابن عبد البر وعبد الحق الإشبيلي وأحمد شاكر وعبد العزيز بن باز ، وضعفه الشافعي وأحمد والبيهقي والخطابي والألباني وسبب خلافهم أن فيه عبد الله بن سلمة المرادي وثقه جماعة وضعفه آخرون فممن وثقه بن حبان والعجلي ويعقوب بن شيبة وقال بن عدي : لا بأس به . وضعفه البخاري وأبو حاتم وقال عمرو بن مرة : كان عبد الله بن سلمة يحدثنا فكان قد كبر فكنا نعرف وننكر وقال بن حجر : صدوقٌ تغير حفظه . وبعضهم يحسن الحديث لاعتضاده بأحاديث أخر قال السبكي في طبقات الشافعية : وفي الباب أحاديث أخر ضعيفة وقد ينتهي مجموعها إلى غلبات الظنون ، وهي كافية في المسألة فالمختار ما عليه الجمهور .انتهى وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي : وقد وردت أحاديث في تحريم قراءة القران للجنب وفي كلها مقال لكن تحصل القوة بانضمام بعضها إلى بعض ومجموعها يصلح لأن يتمسك بها .انتهى ويعضد الحديث باشتهار مضمونه بين الصحابة فقد ثبت عن عبيدة السلماني أن عمر بن الخطاب كان يكره أن يقرأ القران وهو جنب . رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة في مصنفيهما وصحح إسناده البيهقي وابن كثير وابن حجر والكراهة عند السلف تعني التحريم . وقال علي بن أبي طالب : اقرءوا القران ما لم يصب أحدكم جنابة فإن أصابته جنابة فلا ولا حرفاً واحداً . رواه الدار قطني وقال : هو صحيح عن علي . وروى الطحاوي في شرح معاني الآثار عن سلمان الفارسي أنه أحدث فجعل يقرأ فقيل له : أتقرأ وقد أحدثت ؟ قال: نعم إني لست بجنب . وروى بن أبي شيبة عن بن مسعودٍ نحوه وروى مالك عن ابن عمر أنه قال (لا يسجد الرجل – يعني سجدة التلاوة – ولا يقرأ القران إلا وهو طاهر . وقد حمله العلماء على الطهارة الكبرى لأن ابن عمر كان يرى جواز

سجود التلاوة بلا وضوء . فهذه الآثار تدل على أن منع الجنب من قراءة القران مما كان معلوماً عند الصحابة . قال الماوردي في الحاوي الكبير : تحريم القراءة على الجنب قد كان مشهوراً في الصحابة منتشراً عند الكافة حتى لا يخفى على رجالهم ونسائهم .انتهى وقال الترمذي : هو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين ومن بعدهم مثل سفيان الثوري وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق . وقال بن تيمية : الأئمة الأربعة متفقون على منعه من ذلك . وقال الكاساني : ولا يباح للجنب قراءة القران عند عامة العلماء . وقال بن رجب في الفتح : والاعتماد في المنع على ما روي عن الصحابة .

وأما قول البخاري : و لم ير ابن عباسٍ بالقراءة للجنب بأساً . فليس على إطلاقه بل مراده الآية والآيتين قال بن حجر في تغليق التعليق (١٧١/٢) : وأما قول بن عباس فقال بن أبي شيبة في المصنف حدثنا الثقفي عن خالد عن عكرمة عن ابن عباسٍ أنه كان لا يرى بأساً أن يقرأ الجنب الآية والآيتين .انتهى ورواه بن المنذر في الأوسط من طريق الزهري عن عبد الرحمن بن مكمل عن ابن عباس قال : لا بأس أن يقرأ الجنب الآية ونحوها . وترخيصه في قراءة الآية والآيتين يدل على منعه من قراءة ما زاد على ذلك فهو يفيد أن ابن عباسٍ يرى المنع للجنب من قراءة القران لا الإباحة . وما رواه بن المنذر عن عكرمة أن بن عباسٍ كان يقرأ ورده وهو جنب . وصحح إسناده بن حجر في تغليق التعليق . فمراده بالورد الأذكار أي أذكار الصباح والمساء ونحوها وربما اشتملت على الآية والآيتين ونحوها ، وعلى فرضية أن المراد ورده من القران فيكون قد رأى أن ذلك من باب الترخيص للحاجة خشية أن ينسى القران كالحائض والنفساء ، وهو رأيٌ يخالف ما عليه الصحابة ممن نقلنا عنهم المنع وهم الأكثر ، وليس الجنب كالحائض والنفساء فإنه يستطيع رفع الجنابة عنه بالاغتسال بخلاف الحائض والنفساء فليس ذلك بمقدورهما . وقد استدل الظاهرية بذلك وليس لهم فيه مستدل ، واستدلوا بقول عائشة رضي الله عنها : كان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه . وليس لهم فيه مستدل أيضاً لأن ذكر الله أشمل وقال بن رجب : ذكر الله إذا أُطلق لا يراد به القران .انتهى وقال الماوردي : يحمل على الأذكار التي ليست قرآناً . واستدل الظاهرية بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة (اصنعي ما يصنع الحاج غير أن لا تطوفي) وليس لهم فيه مستدل لأن الحاج يعمل أعمالاً كثيرة غير قراءة القران فيحمل على تلك الأعمال . واستدلوا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر وفيها قرآناً وليس لهم فيها مستدل أولاً لضرورة تبليغ الدعوة وثانياً لأنا قد قدمنا أنه لا يمنع الجنب من قراءة الآية والآيتين .

مسألة : ويجوز للجنب سماع القران من غيره ولا يحرك لسانه بالقراءة خلفه بل يلتزم الصمت والتدبر .

مسألة : ويجوز للحائض والنفساء قراءة القران عن ظهر قلب في أصح قولي العلماء وهو مذهب مالك ورواية عن أحمد وهو اختيار بن تيمية والشوكاني وابن باز وأما حديث (لا تقرأ الحائض ولا الجنب شيئاً من القران) فهو حديث ضعيف لأنه من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين وروايته عنهم ضعيفة عند أهل الحديث . ومثل هذا الأمر مما تعم به البلوى فلو كان فيه منعٌ من الشارع لظهر و لم يكتفى فيه بهذا الحديث الضعيف ، ولا يصح قياسهما على الجنب لأن مدتهما تطول وليست

في أيديهما بخلاف الجنابة فمتى شاء أزالها بالاغتسال . وفي منعهن من القراءة تعريض لهن لنسيان القران وترك تعلمه وتعليمه وتفويت الأجر عليهن وليس في ذلك نصٌ صريح صحيح في المنع والأصل الإباحة .

ولا تمس الحائض ولا النفساء المصحف ، وإذا أرادتا القراءة من المصحف فرخص بعض العلماء في أن تمسكه من وراء حائل كخرقة أو قفاز ونحو ذلك أو تقلب أوراقه بقلمٍ أو عودٍ أو نحو ذلك ، وكذلك المحدث حدثاً أصغر . وأجاز كثير من العلماء المعاصرين القراءة لهم جميعاً سوى الجنب من الجوال لأنه ليس مصحفاً ولا يأخذ حكم المصحف ، وعلى قول من يقول إنه في حكم المصحف لأن القارئ إنما يقرأ في الشاشة من المصحف ، فيقال إن الشاشة تعتبر كالحائل ويجوز مس المصحف بحائل للمذكورين كما تقدم .

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ قال بن كثير : أي: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين ، وليس هو كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شِعر ، بل هو الحق الذي لا مِرْية فيه . انتهى وهذا يدل على أن الكتاب المكنون الذي لا يمسه إلا المطهرون هو القران لأنه هو المنزل من رب العالمين على النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام فإن سياق الآيات ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ يدل على ذلك والعلم عند الله تعالى .

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ أفبهذا القران الذي بينت لكم عِظَم شأنه تلاينون الكافرين المكذبين به مصانعةً ومجاراةً لهم على التكذيب والكفر . قال مجاهد : تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم . قال الطبري : أفبهذا القرآن الذي أنبأتكم خبره وقصصت عليكم أمره أيها الناس أنتم تلينون القول للمكذّبين به ، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر . انتهى وقال بن عباسٍ والضحاك وعطاء وأبو حَزْرَة والسُّدِّيّ ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴾ مكذبون . وقال قتادة ومقاتل بن سليمان : كافرون . وعن الضحاك : معرضون . يعني استحقاراً وكفراً وتكذيباً به . وأصل المداهنة المداراة والمصانعة وقيل إظهار الشخص خلاف ما يضمر ، فإذا كان ذلك في الدين كان نفاقاً وكفراً وتكذيبا . قال القرطبي : قال المؤرج : المدهن المنافق أو الكافر الذي يلين جانبه ليخفي كفره ، والادهان والمداهنة : التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللين ، وأن يسر خلاف ما يظهر .انتهى قال في المعجم الوسيط : داهن مداهنةً ودهاناً أظهر خلاف ما أضمر وفلاناً خدعه وغشه وداراه ولاينه .انتهى وقال الزبيدي في تاج العروس : قالَ شيْخُنا: الإدْهانُ في الأَصْل جعلَ نَحْو الأَدِيم مَدْهوناً بشيءٍ مَّا مِن الدّهْنِ ولَمَّا كانَ ذلِكَ مليناً له مَحْسوساً استُعْمل في اللِّينِ المَعْنويّ على التَّجوُّزِ به في مطلق اللِّين ، أَو الاسْتِعارَةِ له ، ولذا سُمِّيَت المُدارَةُ والمُلايَنَة مُداهَنَةٌ ، ثم اشْتهرَ هذا المجازُ وصارَ حَقِيقَةً عُرْفيَّةً ، فَتَجوزُ فيه على التَّهاون بالشيءِ واسْتِحْقارِه ، لأنَّ المُتهاونَ بالأَمْرِ لا يَتَصلَّبُ فيه كما في العنايَةِ .انتهى

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ أي بدل أن تشكروا الله على ما رزقكم كذبتم ونسبتم النعمة التي أنعم بها عليكم إلى غيره . قال الطبري : وتجعلون شكر الله على رزقه إياكم التكذيب . وذلك كقول القائل الآخر: جعلت إحساني إليك

إساءة منك إليّ ، بمعنى: جعلت: شكر إحساني ، أو ثواب إحساني إليك إساءة منك إليّ .انتهى وقال البغوي : قال جماعة من المفسرين: معناه وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ... أي: شكركم بما رزقتم ، يعني شكر رزقكم التكذيب ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. انتهى وقد ذكر جمعٌ من السلف منهم علي بن أبي طالب وابن عباسٍ وعائشة وأبي أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل والضحاك وعطاء الخراساني أن المراد بها الاستسقاء بالأنواء وكان كثير من الناس إذا مُطِرُوا قالوا مُطِرْنا بنوء كذا وكذا . فَكَذَبوا إذ نسبوا النعمة إلى غير المنعم بها وهو الله جل في علاه . وفي الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماءٍ كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال (هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال (قال الله : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكواكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب) .

وقال قتادة : أما الحسن فكان يقول: بئسما أخذ قوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب به. قال الحسن : خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب . فجعلا المراد بالرزق القران . أي بدل أن تشكروا الله على ما أنعم به عليكم من تنزيل القران تُكَذِّبُونَ بِهِ . وسياق الآيات يرجح ما ذكرا ، إلا أن الأخذ بكل ما تدل عليه الآية أولى من اطراح البعض ، والجمع ممكن بين القولين بأن المراد بالرزق الرزق كله الدنيوي والأخروي ، وأنهم يُكَذِّبُونَ بالوحي الذي فيه نجاتهم ورزقهم في الآخرة ، وَيَكْذِبُونَ في أمر الدنيا أيضاً إذ ينسبون أرزاقهم فيها إلى غير الله .

تنبيه : نسبة المطر إلى الأنواء وهي النجوم قد يكون كفراً أكبر إذا اعتقد أنها هي الجالبة للمطر ، وقد يكون كفراً أصغر إذا اعتقد أنها سبب وأن الفاعل هو الله جل في علاه ، وقد يكون مباحاً إذا اعتقد أنها مجرد وقت لنزول الأمطار كما يقول العامة : إذا طلع سهيل لا تأمن السيل . يعني جاء وقت نزول الأمطار ، ولا يعتقدون أنه هو الذي يجلب المطر ولا أنه سبب من أسباب جلب المطر وإنما هو وقت لنزول الأمطار ، وعليه يحمل الأثر الذي رواه بن جرير عن سعيد بن المسيب أنه قال : أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يستسقي ، فلما استسقى التفت إلى العباس فقال: يا عباس يا عم رسول الله ، كم بقي من نوء الثريا؟ فقال: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعًا. قال: فما مضت سابعة حتى مُطِروا .انتهى أي أن نوء الثريا هو وقت لنزول المطر لا أنه هو الجالب للمطر ولا سببٌ لجلبه وإنما مجرد توقيت .

﴿ فَلَوْلَآ ﴾ فهلا ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ أي الروح عند الاحتضار ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ للشخص وهو يحتضر لا تملكون له شيئاً ، وقيل معنى تنظرون أي تنتظرون خروج روحه . وقيل تنظرون إلى أمر الله وسلطانه وقدرته فيه .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ أي ملائكتنا أقرب إلى المحتضر ممن حضره ولكن الحضور لا يرون الملائكة . وقيل المراد ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ بعلمنا وقدرتنا ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ من البصيرة أي لا تعقلون

﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ فهلا إذا زعمتم أنكم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم وقيل معنى ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾

أي غير مملوكين ولا مقهورين ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ أي ارجعوا روح من يعز عليكم إلى الحياة إن كنتم صادقين أن الله لا يبعثكم ولا يحاسبكم على أعمالكم ، وأنكم غير مملوكين ولا مقهورين له ، وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أنكم مملوكين لله تحت قهره وتصرفه وأنه سيبعثكم ويحاسبكم فآمنوا به . قال بن الجوزي في زاد المسير : المعنى : إن جحدتم الإله الذي يحاسبكم ويجازيكم ، فهلاَّ تردُّون هذه النَّفْس؟! فإذا لم يمكنكم ذلك ، فاعلموا أن الأمر لغيركم .انتهى

تنبيه : قال الفراء ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ هي جواب ﴿ فَلَوْلَآ ﴾ في الآيتين ، أجيب عنهما بجوابٍ واحد . وذكر الرازي أن قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾ بمعنى لم لا يقولون ما يقولونه يعني من التكذيب والشرك عند الموت وانكشاف الغطاء ورؤية الملائكة لو كان حقاً . يعني وأنتم عندهم حاضرين تسمعون ما يقولون . ولا شك أن قول الفراء أرجح وبه قال المفسرون وأما قول الرازي فبعيد إذ لا يخاطبهم الله بما لا يعلمون ، فهم لا يعلمون ولا يقرون أن المحتضر ينكشف له الغطاء ويرى الملائكة ويقر بالتوحيد بل يعتقدون أنهم يموتون على دينهم .

ثم بين الله حال الإنسان عند خروج الروح فقال﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ وهم الصنف الأول الذين ذكرهم في بداية السورة وقال بن كثير :هم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات. انتهى ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي يكونون بعد الموت في روح أي رحمة وقيل راحة وقيل فرح وقيل فرج قال بن عباسٍ ومجاهد والحسن والضحاك ومقاتل بن سليمان : راحة . وعن الحسن وقتادة والضحاك : رحمة . وقال سعيد بن جبير ومجاهد والسدي : فرح وقال محمد بن كعب القرظي : فرج من الغم الذي كانوا فيه. والمؤدى واحد فإنه إذا حصلت لهم الرحمة حصل لهم الفرح والفرج والراحة . وقال البخاري : قال مجاهد ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ جنةٌ ورخاء . وفي الصحيحين عن أبي قتادة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرت جنازة فقال : مستريحٌ ومستراحٌ منه . فقلنا يا رسول الله : ما المستريح وما المستراح منه ؟ قال : العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله سبحانه وتعالى ، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)

﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ قيل هو الرزق من قولهم : خرجت أطلب ريحان الله أي رزقه . وهو قول بن عباسٍ وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك . وقال مقاتل بن سليمان: هو الرزق بلغة حمير . وعن بن عباسٍ والضحاك والقرظي : استراحة من الدنيا . وعن الحسن وقتادة : هو هذا الريحان المعروف . قال قتادة : يُتَلقى به عند الموت . وقال أبو الجوزاء: هذا عند قبض روحه يتلقى بضبائر الريحان. وقال الحسن : تخرج روح المؤمن من جسده في ريحانة . وقال أبو عمران الجوني : بلغني إن المؤمن إذا نزل به الموت تلقي بضبائر الريحان من الجنة فيجعل روحه فيها. وقال بكر بن عبد الله : إذا أُمِرَ ملك الموت بقبض روح المؤمن أُتيّ بريحانٍ من الجنة فقيل له : اقبض روحه فيه . وقال إبراهيم النخعي : بلغنا أن المؤمن يستقبل عند موته بطيب من طيب الجنة وريحان من ريحان الجنة فتقبض روحه فتجعل في حرير الجنة ثم ينضح بذلك الطيب ويلف في الريحان ثم ترتقي به ملائكة

الرحمة حتى يجعل في عليين. وقال أبو العالية : لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما .

قال القرطبي : قرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجحدري ورويس وزيد عن يعقوب (فرُوح) بضم الراء ، ورويت عن ابن عباس. انتهى وقال الألوسي في روح المعاني : أخرج الإمام أحمد والبخاري في تاريخه وأبو داود والنسائي والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وآخرون عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقرأ (فرُوح) بضم الراء ، وبه قرأ ابن عباس وقتادة ونوح القاري والضحاك والأشهب وشعيب وسليمان التيمي والربيع بن خيثم ومحمد بن علي وأبو عمران الجوني والكلبي وفياض وعبيد وعبد الوارث عن أبي عمرو ويعقوب بن حسان وزيد ورويس عنه والحسن وقال (الروح) الرحمة لأنها كالحياة للمرحوم ، أو سبب لحياته الدائمة فإطلاقه عليها من باب الاستعارة أو المجاز المرسل ، وروي هذا عن قتادة أيضاً. قال : وفسر بعضهم الروح بالفتح بالرحمة أيضاً كما في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ من (٨٧) سورة يوسف وقيل : هو بالضم البقاء .انتهى وقال الطبري : واختلف القرّاء في قراءة ذلك فقرأته عامة قرّاء الأمصار (فَرَوْحٌ) بفتح الراء بمعنى: فله برد. (وَرَيْحَانٌ) يقول: ورزق واسع في قول بعضهم ، وفي قول آخرين فله راحة وريحان . وقرأ ذلك الحسن البصريّ (فَرُوحٌ) بضم الراء بمعنى: أن روحه تخرج في ريحانة. وأولى القراءتين في ذلك بالصواب قراءة من قرأه بالفتح لإجماع الحجة من القرّاء عليه بمعنى: فله الرحمة والمغفرة ، والرزق الطيب الهنيّ ... قال : وأما الذين قرءوا ذلك بضم الراء فإنهم قالوا: الرُّوح: هي روح الإنسان ، والرَّيحان: هو الريحان المعروف: وقالوا: معنى ذلك: أن أرواح المقرّبين تخرج من أبدانهم عند الموت برَيحان تشمه ... قال : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي: قول من قال: عني بالرَّوْح: الفرح والرحمة والمغفرة ، وأصله من قولهم: وجدت روحاً : إذا وجد نسيماً يستروح إليه من كرب الحرّ. وأما الريحان ، فإنه عندي الريحان الذي يتلقى به عند الموت كما قال أبو العالية والحسن ومن قال في ذلك نحو قولهما ، لأن ذلك الأغلب والأظهر من معانيه .انتهى

﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ قال بن زيد : عُرِضت عليه . يعني عند الموت . وقال الربيع بن خيثم : تخبأ له عند البعث . وقال السمعاني : قال أهل التفسير : الروح والريحان في القبر ، وجنة نعيم يوم القيامة . ويقال : الروح عند الموت ، والريحان في القبر ، وجنة نعيم في القيامة عند البعث . انتهى وقال الألوسي : وعن بعض السلف ما يقتضي أن يكون الكل في الآخرة .انتهى والظاهر أن ذلك كله عند الموت إما بشارةً له عند الموت كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة فصلت وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا حضر المؤمن أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون : اخرجي راضيةً مرضياً عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان فتخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به أبواب السماء فيقولون : ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض ، فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه

فإنه كان في غم الدنيا . فيقول : قد مات أما أتاكم ؟ فيقولون : قد ذهب به إلى أمه الهاوية . وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون : اخرجي ساخطةً مسخوطاً عليك إلى عذاب الله عز وجل . فتخرج كأنتن ريح جيفةٍ حتى يأتون به باب الأرض فيقولون : ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار) رواه أحمد والنسائي وصححه الألباني في مشكاة المصابيح . قال السيوطي : أخرج أحمد وَابن المنذر وَابن مردويه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : حدثني فلان بن فلان سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) فأكب القوم يبكون . فقالوا : إنا نكره الموت . قال : ليس ذاك ولكنه إذا حضر ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ فإذا بشر بذلك أحب لقاء الله ، والله للقائه أحب ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ ﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله ، والله للقائه أكره .انتهى وإما يكون ذلك دخولاً للجنة مباشرةً بعد موته فقد وردت أحاديث تدل على أن أرواح المؤمنين في الجنة قال بن كثير : قال الإمام أحمد: حدثنا حسن حدثنا ابن لَهِيعَة حدثنا أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل: أنه سمع درّة بنت معاذ تحدث عن أم هانئ: أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضًا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (تكون النَسمُ طيرًا يعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها) .هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى (يعلق) : يأكل ويشهد له بالصحة أيضًا ما رواه الإمام أحمد عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن الإمام مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إنما نَسَمة المؤمن طائرٌ يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه). وهذا اسناد عظيم ومتن قويم. وفي الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش ..) الحديث .انتهى قال القاسمي : في (الإكليل) : استدل بالآيات هذه على أن الروح بعد مفارقة البدن منعَمة أو معذّبة ، وعلى أن مقر أرواح المؤمنين في الجنة ، وأرواح الكافرين في النار .انتهى

قال ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ ﴾ وهم الصنف الثاني من أهل الجنة ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ قيل المعنى أنه يُسَلَمُ عليهم . قال قتادة : سلامٌ من عند الله ، وسَلّمت عليه ملائكة الله . وقال عِكْرِمَة : تسلم عليه الملائكة وتخبره أنه من أصحاب اليمين. وقيل المعنى : فسلمت من عذاب الله ، ومما تكره ، لأنك من أصحاب اليمين . قال ابن زيد: سَلِمَ مما يكره . قال السعدي : أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له ، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب لأنك من أصحاب اليمين الذين سلموا من الذنوب الموبقات .انتهى وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي أنك سلمت من الغم عليهم لأنهم سلموا من عذاب الله . ورأيت فيهم ما تحب من السلامة. أو أنهم يسلمون عليك لأنك دللتهم على طريق السلامة . وقيل : هذه الجملة تفيد عظمة حالهم كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان ، إشارة إلى أنه ممدوح فوق الفضل .ذكره الرازي وجهاً في السلام . وقال الألوسي : وذكر بعض الأجلة أن هذه الجملة كلام يفيد عظمة حالهم كما يقال فلان ناهيك به وحسبك أنه فلان

إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد التفصيل ، وكأني بك تختار ذلك فإنه حسنٌ لطيف .انتهى ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ وهؤلاء الصنف الثالث وهم أصحاب الشمال المكذبين بالحق الضالين عن الصراط المستقيم ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ النزل الضيافة أي يُضَيَّفُون بالماء المغلي ويُصْلَون بالنار شديدة الاستعار . وهذا في الآخرة وقيل في البرزخ كقوله تعالى عن آل فرعون ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾سورة غافر يعني في البرزخ .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ إن هذا الذي ذكرنا من أحوال الناس عند الموت لهو حقٌ لا باطل فيه ويقينٌ لا شك فيه . قال قتادة : إن الله تعالى ليس تاركاً أحداً من خلقه حتى يوقفه على اليقين من هذا القران . فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة . وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه .

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ أي سبح ربك بذكر اسمه أي نزه عما لا يليق به فتقول : سبحان الله العظيم أو سبحان ربي العظيم . والعظيم صفة لربك . أي ربك صاحب العظمة والكمال المطلق المنزه عن النقائص والعيوب .قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اجعلوها في ركوعكم) فكانوا يقولون في الركوع : سبحان ربي العظيم . وقال عليه الصلاة والسلام (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) متفق عليه وقال عليه الصلاة والسلام (من قال: سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرِسَتْ له نخلة في الجنة) رواه الترمذي والنسائي .

وقيل المعنى فصلي لربك وهو منسوب إلى ابن عباس والتسبيح يأتي بمعنى الصلاة. قال بن عمر في صلاة النافلة في السفر : لو كنت مسبحاً لأتممت . يعني لو كنت مصلياً النافلة لأتممت الفريضة فهي أولى يعني فلما قصرت الفريضة سقطت النافلة . وقال الرازي : لما بين تعالى الحق وامتنع الكفار ، قال لنبيه صلى اللّه عليه وسلم هذا هو حق ، فإن امتنعوا فلا تتركهم ولا تعرض عنهم وسبح ربك في نفسك ، وما عليك من قومك سواء صدقوك أو كذبوك ، ويحتمل أن يكون المراد فسبح واذكر ربك باسمه الأعظم .انتهى

من دروس سورة الواقعة :

أولاً / أن الله تعالى يذكر القيامة وما يكون فيها والنار وأهوالها موعظةً وتخويفاً وزجراً عن الإشراك وكبائر الذنوب ليزدجر من كان له قلب ، فيرجع إلى ربه ، ويتوب من ذنوبه ، وهكذا يذكر الله الجنة ونعيمها حثاً وترغيباً على العمل والطاعة والمسارعة في تحصيلها .

ثانياً / أن أهل الجنة صنفان فمنهم المقربون السابقون ومنهم أصحاب اليمين والمقربون أعلى منزلة وأحسن نعيماً فينبغي على المؤمن أن يسعى ويجتهد أن يكون مع المقربين كما يجتهد أهل الدنيا في أن يكونوا في أعلى المنازل فيها فكذلك ينبغي على المؤمن أن يسعى للحصول على أعلى المراتب في الآخرة فيحافظ على الفرائض والنوافل ويجتنب المحرمات والمكروهات .

ثالثاً / في قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ تحذيراً من الترف وهو البذخ والإسراف في المآكل والمشارب والمساكن والمراكب ونحوها أو التنعم بالمحرمات بل إن كثرة التنعم بالمباحات قد ينسي العبد فقره وحاجته إلى الله ويجعله في غفلة وشغل بملاذه وشهواته وربما كسل عن فعل الطاعات ورغب في فعل المحرمات ، فينبغي الاقتصاد في التنعم وبذل الزائد من النعيم إلى المحتاجين تقرباً إلى الله وصرفاً عن الوصول إلى مرحلة الترف . وكان السلف يقتصدون في النعم ويبذلون ما زاد إلى الفقراء والمحتاجين وربما قصر بعضهم على نفسه رجاء ما عند ربه . وكان عمر يقول : اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم

رابعاً / في قوله تعالى ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾ تحذيرا من الإصرار على الذنوب وخاصةً الكبائر منها فقد قيل : الذنوب بريد الكفر . وحتى الإصرار على الصغائر يحيلها إلى كبائر ، وقد قيل : لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمت من عصيت .

خامساً / في قوله تعالى ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ وقوله ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ وقوله ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ ثلاث صور تدل على كمال قدرة الخالق فالأولى خلقٌ من العدم وهو خلق آدم والثانية إحياء بعد إماته فإنهم كانوا قبل ذلك موتى في أصلاب آبائهم وترائب أمهاتهم ثم أحياهم الله حين خلقهم من ماءٍ مهين وصورهم على أجمل الصور من ذلك الماء المهين والثالثة إماتة بعد إحياء ، فالقادر على هذه الصور الثلاث ألا يقدر على أن يخلقكم في الآخرة للبعث والجزاء .

تفسير سورة الحديد

مدنية وآياتها (٢٩)

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يصلي لله أو يذكر الله ويمجده أو ينزه الله عن النقائص كل ما في السماوات والأرض من المخلوقات باستثناء بعض الانس والجن ، وإن كان الانس والجن ليسوا داخلين في هذا فإن المراد المخلوقات سواهم التي ليست مكلفة كقوله تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾سورة الإسراء والخطاب للإنس والجن أي إذا كانت هذه المخلوقات تسبح لله وهي غير مكلفة ولا حساب ولا عقاب عليها فكيف بكم أيها المكلفون . قال مقاتل : سبح لله ما في السماوات يعني ذكر الله الملائكة وغيرهم والشمس والقمر والنجوم . وما في والأرض من الجبال والبحار والأنهار والأشجار والدواب والطير والنبات . وما بينهما يعني الرياح والسحاب وكل خلق فيهما .انتهى وقيل المراد التسبيح بلسان الحال لا بلسان المقال . أي أنهم ذليلون خاضعون تحت حكم الله وقدره فيهم . وعلى هذا المعنى فإنه يشمل حتى الكفار . قال القاسمي : أي : أذعن لله كل خلقه العلوي والسفلي ، وانقاد لتسخيره ، ودل على ألوهيته وربوبيته .انتهى ولكن ما ذكرنا أولاً في نظرنا هو الصحيح ، وقد أنكر الزجاج أن المراد تسبيح الدلالة. قال الشوكاني في فتح القدير : والمراد بالتسبيح المسند إلى ما في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم والحيوانات والجمادات هو ما يعم التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجنّ ، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم ، فإن كل موجودٍ يدل على الصانع . وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة فلم قال ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وإنما هو تسبيح مقال ، واستدل بقوله﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾من (٧٩) سورة الأنبياء فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة . وفعل التسبيح قد يتعدّى بنفسه تارةً كما في قوله ﴿ وَسَبِّحُوهُ ﴾من (٤٢) سورة الأحزاب وباللام أخرى كهذه الآية ، وأصله أن يكون متعدياً بنفسه ؛ لأن معنى سبحته : بعدته عن السوء ، فإذا استعمل باللام ، فهي إما مزيدة للتأكيد ، كما في شكرته ، وشكرت له ، أو هي للتعليل ، أي : افعل التسبيح لأجل الله سبحانه خالصاً له ، وجاء هذا الفعل في بعض الفواتح ماضياً كهذه الفاتحة ، وفي بعضها مضارعاً ، وفي بعضها أمراً ، للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة في كل الأوقات ، لا يختصّ تسبيحها بوقتٍ دون وقت ، بل هي مسبحة أبداً في الماضي ، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل .انتهى ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ العزيز في سلطانه الحكيم في أمره وفعله .

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ قال صلى الله عليه وسلم (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شيء فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شيء أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شيء وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شيء وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شيء وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شيء اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ) رواه مسلم فالأول هو الذي لم يتقدم عليه شيء ، وهو سبحانه أولٌ بلا ابتداء والآخر الباقي بعد خلقه بلا انتهاء ، والظاهر أي العالي علو عظمةٍ وعلو ذات فلا شيء فوقه ، والباطن فسره النبي صلى الله عليه وسلم بالقرب فهو جل وعلا مع علوه المطلق الذي لا يدانيه شيء إلا أنه أقرب إلى عباده ومخلوقاته من أنفسهم كما قال تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ من (١٦) سورة ق وقال تعالى ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ سورة الواقعة وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) متفق عليه والمراد قرب إحاطةٍ وعلمٍ وقدرة لا قرب ذات فإن ذاته في العلو.

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ لا يخفى عليه شيء .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ العرش سرير الملك وقد فصلنا في معنى الاستواء على العرش عند السلف والرد على المخالفين في كتابنا طريق الناجين فراجعه إن شئت . ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ من الولوج وهو الدخول يعني من المطر وغيره . ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من النبات ونحوه ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الأرزاق والملائكة ونحو ذلك ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي يصعد من الملائكة وغيرهم ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ بعلمه وإحاطته وقدرته ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ من البصر أي الرؤية أي يرى ما تعملون ، وكذا من البصيرة فيعلم نياتكم بذلك العمل .

﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ليس تكراراً وإنما كانت الأولى والعلم عند الله تعالى أي له ملك المخلوقات التي في السماوات والأرض لأنها ذكرت بعد ذكر تسبيح المخلوقات التي في السماوات والأرض ، وأما هاهنا فالمراد ملك السماوات والأرض نفسها لأنها وردت بعد ذكر خلق السماوات والأرض . وقيل تكرارٌ للتأكيد . قال القرطبي : هذا التكرير للتأكيد أي هو المعبود على الحقيقة .انتهى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ ﴾ أي تعود فهو الذي له الأمر المطلق والتصرف الكامل . قال القرطبي : قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخلف (تَرْجِعُ) بفتح التاء وكسر الجيم. الباقون ﴿ تُرْجَعُ ﴾ .انتهى

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ أي يدخل بعضهما في بعض . قال إبراهيم : قصر أيام الشتاء في طول ليله وقصر ليل الصيف في طول نهاره.. وقال عكرمة : قصر هذا في طول هذا ، وطول هذا في قصر هذا. ﴿ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٦ ﴾ أي بما تكنونه في ضمائركم .

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ أي في أموالكم التي استخلفكم الله عليها . أي جعلكم خلفاءه فيها لتنفقوها في سبيله . وقيل ﴿ مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾: أي يخلف بعضكم بعضاً فيها . والجمع ممكن فهي عارية من الله للعباد لتكون قواماً لهم في دينهم ودنياهم . فيأكلون منها ويؤدون حق الله فيها . وهي أيضاً خلفةً يخلف بعضهم بعضاً فيها فستذهب لورثتهم كما أتتهم من مورثهم ولا يبقى منها إلا ما ادخره العبد منها للآخرة فأنفقه في سبيل الله .

قال القاسمي : أي : آمنوا الإيمان اليقيني ليظهر أثره عليكم ، فيسهل عليكم الإنفاق من مال الله الذي موّلكم إياه ، وجعلكم مستخلفين فيه ، بتمكينكم وإقداركم على التصرف فيه بحكم الشرع ؛ إذ الأموال كلها لله ، واختصاص نسبة التصرف إنما هو بحكمه في شريعته ، أفاده القاشانيّ . وقال الشهاب : الخلافة إمّا عمّن له التصرف الحقيقيّ ، وهو الله تعالى ، وهو المناسب لقوله ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أو عمّن تصرّف فيها قبلهم ممن كانت في أيديهم فانتقلت لهم . وعلى كلٍّ ففيه حث على الإنفاق وتهوين له ، أما على الأول فظاهر ؛ لأنه أذن له في الإنفاق من ملك غيره ، ومثله يسهل إخراجه وتكثيره . وعلى الثاني أيضاً ، لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله ، علم أنه لا يدوم له أيضاً ، فيسهل عليه الإخراج .انتهى

وقال السعدي : يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به ، وبالنفقة في سبيله من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها ، لينظر كيف يعملون .انتهى

وقال البغوي ﴿ مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾: مملكين فيه . يعني: المال الذي كان بيد غيرهم فأهلكهم وأعطاه قريشًا فكانوا في ذلك المال خلفاء عمن مضوا .انتهى

وقال بن كثير : أي مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم . قال : وفيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفًا عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان .انتهى

وقال الطبري : وأنفقوا مما خوّلكم الله من المال الذي أورثكم عمن كان قبلكم فجعلكم خلفاءهم فيه في سبيل الله .انتهى

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧ ﴾ عند الله .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وما يمنعكم من الإيمان بالله ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ ورسول الله بينكم يدعوكم لأن تؤمنوا بربكم ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ قال مجاهد : في ظهر آدم . وقال مقاتل : يعني يوم أخرجكم من صلب آدم عليه السلام وأقروا له بالمعرفة والربوبية .انتهى قال الطبري : وقد أخذ منكم ربكم ميثاقكم في صُلب آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه .انتهى يريدون قوله تعالى﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾سورة الأعراف وعن ابن عباسٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ الحديث رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، وأعله بن كثير بالوقف على ابن عباس . قال الألباني : هو كما قال ولكن ذلك لا يعني أن الحديث لا يصح مرفوعاً وذلك لأن الموقوف في حكم المرفوع لسببين:الأول / أنه في تفسير القران وما كان كذلك فهو في حكم المرفوع . الآخر / أن له شواهد مرفوعة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جمعٍ من الصحابة وهم عمر ابن الخطاب وعبد الله بن عمرو وأبو هريرة وأبو أمامة وهشام بن حكيم أو عبد الرحمن بن قتادة السلمي على خلافٍ عنهما ومعاوية بن أبي سفيان وأبو الدرداء وأبو موسى وهي إن كان غالبها لا تخلو أسانيدها من مقال فإن بعضها يقوي بعضاً ، بل قال الشيخ صالح المقبلي في الأبحاث المسددة : ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الأحاديث والروايات في ذلك ولا سيما وقد تلقاها أو تلقي ما اتفقت عليه من إخراج الذرية من ظهر آدم وإشهادهم على أنفسهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين دون اختلافٍ بينهم منهم عبد الله بن عمرو وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وسلمان الفارسي ومحمد بن كعب والضحاك بن مزاحم والحسن البصري وقتادة وفاطمة بنت الحسين وأبو جعفر الباقر وغيرهم . انتهى

فإن قيل إننا لم نشعر بذلك الميثاق . فالجواب بأمرين : الأول / أن الله جل وعلا أخبرنا بذلك الميثاق في كتبه وعلى لسان أنبيائه ومن أصدق من الله قيلا ، فكان ينبغي على الناس تصديق ذلك والإيمان به والتزام مقتضاه . الثاني / أن الله قد جعل في فطر الناس جميعاً الإيمان بأن الله هو الرب ومن أنكر ذلك من الملاحدة ونحوهم فإنما ينكر بلسانه ما استقر في قلبه كما قال تعالى عن الفراعنة ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ من (١٤) سورة النمل وهذا يدل على أن الله جل وعلا حين أخذ العهد عليهم وأقروا بذلك استقر في نفوسهم فمن أنكره بعد فقد أخلف الميثاق .

وقيل: أخذ ميثاقكم بأن ركب فيكم العقول ، وأقام عليكم الدلائل والحجج التي تدعوكم إلى متابعة الرسول . ذكر ذلك القرطبي والبغوي والطبراني والشوكاني وقال القاسمي : ركّب فيكم العقول ، ونصب الأدلّة . ومكّنكم من النظر ، بل أودع في فطركم ما يضطركم لذلك إذا نُبهتم ، وقد حصل ذلك بتذكير الرسول ، فما عليكم إلا أن تأخذوا في سبيله .انتهى . قال العثيمين: يعني أخذ الله تعالى العهد أن تؤمنوا به وبرسوله ، فصار هناك سببان للإيمان ، الأول: دعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليه . والثاني: الميثاق الذي أخذه الله علينا ، وذلك بما أعطانا عز وجل من الفطرة والعقل والفهم الذي

ندرك به ما ينفعنا ويضرنا ، هذا هو الصحيح في معنى الميثاق ، وقيل: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهره ، إن صح الحديث الوارد في ذلك .انتهى

ويمكن الجمع بين القولين بأن العهد قد أُخِذَ عليهم ثم أقيمت لهم الدلائل العقلية والنقلية على صحة مقتضى ذلك العهد .

وقيل المراد بالميثاق البيعة التي بايعهم النبي صلى الله عليه وسلم عليها كما قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾سورة المائدة وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قَالَ : بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا وَعَلَى أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا لاَ نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ متفق عليه وقال عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ : كُنَّا نُبَايِعُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ . يقول لنا (فيما استطعت) متفق عليه قال بن كثير ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ يعني بذلك بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم. وزعم ابن جرير أن المراد بذلك الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم وهو مذهب مجاهد فالله أعلم .انتهى

قال الطبري : واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقراته عامة قرّاء الحجاز والعراق غير أبي عمرو﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ بفتح الألف من أخذ ونصب الميثاق بمعنى: وقد أخذ ربكم ميثاقكم. وقرأ ذلك أبو عمرو(وَقَدْ أُخِذَ مِيثاقُكُمْ) بضمّ الألف ورفع الميثاق، على وجه ما لم يسمّ فاعله . والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان متقاربتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب وإن كان فتح الألف من أخذ ونصب الميثاق أعجب القراءتين إليّ في ذلك لكثرة القراءة بذلك وقلة القراءة بالقراءة الأخرى .انتهى

الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ﴾ محمد ﴿ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ القران ﴿ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ من ظلمات الكفر والشرك والمعصية إلى نور الإيمان والتوحيد والطاعة﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ يرأف بكم ويرحمكم لذلك بعث إليكم رسولاً وأنزل عليكم قراناً يبين لكم الحق من الضلال والنور من الظلام لتسلكوا الصراط المستقيم فتنجوا من النار وتفوزوا بالجنة .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وما يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لأنه الباقي والخليقة كلهم يموتون . يعني اكسبوا الأحظ لأنفسكم فإن مصير أموالكم العودة إلى الله فإما أن تنفقوها في سبيل الله فتكسبوا الأجر وإن بخلتم فستموتوا وترجع أموالكم إلى الله بعد فناء الورثة ولا أجر لكم . ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ قال مجاهد : آمن فأنفق . وهذا معلوم لأن الكافر لا تقبل منه نفقة . قال زيد بن أسلم وقتادة : فتح مكة . وقال عامر الشعبي : فتح الحديبية . ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ﴾ لسبقهم ولأنهم كانوا في

حال خوفٍ وضعف ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ قال مجاهد وقتادة : الجنة. ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم .

قال السيوطي : أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه) وأخرج أحمد عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فقال خالد لعبد الرحمن بن عوف : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها . فبلغ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحدٍ أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم. وأخرج ابن جرير وَابن أبي حاتم وَابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية إذا كان بعسفان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم) قلنا : من هم يا رسول الله أقريش ؟ قال (لا ، ولكنهم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة ، وألين قلوبا) فقلنا : أهم خيرٌ منا يا رسول الله ؟ قال (لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه إلا أن هذا فصل ما بيننا وبين الناس﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : لا تسبوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره .انتهى

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ سمى الله الصدقة قرضاً له لأن القرض مردودٌ لصاحبه فكذلك الصدقة سيردها الله على صاحبها في الآخرة ويضاعفها له ويعطيه أجراً كريماً على بذله في سبيل الله فماله مخلوفٌ ومضاعف وفوق ذلك عطاء كريم من رب كريم فيا لفرحة المتصدقين عند لقاء رب العالمين . عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال أبو الدحداح : يا رسول الله ، إن الله يريد منا القرض ؟ قال (نعم يا أبا الدحداح) قال : أرني يدك ، فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي وفي حائطه ستمائة نخلة ، ثم جاء إلى الحائط فقال : يا أم الدحداح ، وهي في الحائط ، فقالت : لبيك . فقال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل . قال الألباني : صحيح أخرجه ابن جرير في تفسيره وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير من طريق خلف وهذا اسناد ضعيف ورواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات ورجال أبي يعلى رجال الصحيح وله شواهد أخرى .انتهى قال مقاتل﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ طيبةً بها نفسه محتسباً .انتهى

﴿ يَوْمَ ﴾ في ذلك اليوم وهو يوم القيامة ﴿ تَرَى ﴾ تشاهد والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو للناس عامة ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم ﴾ عندما يعم الظلام أرض المحشر قال بن مسعود والحسن : على الصراط . قال بن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم

نوراً من نوره على إلهامه يطفأ مرة ويقد أخرى .انتهى ويقال لهم ﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ الذي لا خسارة بعده .

﴿ يَوْمَ ﴾ في ذلك اليوم﴿ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا ﴾ أي انتظرونا ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ نأخذ قبساً من نوركم لأن الله قد أطفأ نورهم عقوبةً لهم . ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ ﴾ القائل الملائكة وقيل المؤمنون أي ارجعوا إلى الموضع الذي أُعْطِينا فيه النور ﴿ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ فاطلبوا نوراً هناك ، فرجعوا ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ حائط ﴿ لَّهُۥ بَابٌۢ ﴾ أي لذلك السور باب وقد وضع الباب فيه لحكمة الله يعلمها ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ من جهة المؤمنين﴿ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ يعني من جهة المنافقين والمنافقات . وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ لا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير. ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ هذه خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ من (١٤٢) سورة النساء فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ الآية . انتهى

﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي المنافقون ينادون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ في الدنيا نصلي ونقاتل﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فوقعتم في الفتنة ولم تجتنبوها قال مجاهد : بالشهوات واللذات . وعنه : بالنفاق . ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ وانتظرتم بنا السوء . قال قتادة : تربصتم بالحق وأهله . وقال مقاتل : يعني بمحمد الموت ، وقلتم يوشك محمد أن يموت فنستريح منه . وقال بن زيد : بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد ومحبوب الليثي وأبو سفيان: تربصتم بالتوبة . ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ وشككتم ولم يكن إيمانكم بالله ورسوله عن يقين . قال مجاهد: شككتم في الله . وقال مقاتل : شككتم في محمد أنه نبي . وقال قتادة: شككتم في توحيد الله ، وفي نبوّة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ وخدعتكم الأماني حتى جاءكم الموت. قال قتادة ﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ ﴾ كانوا على خدعةٍ من الشيطان . وقال محبوب الليثي : طول الأمل. وقال أبو سفيان : قالوا سيغفر لنا . وقال مقاتل : قلتم يوشك محمد أن يموت فيذهب الإسلام فنستريح . ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ قال مجاهد ومقاتل ومحبوب الليثي وأبو سفيان : الموت . قال القرطبي : يعني الموت. وقيل: نصرة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال قتادة: إلقاؤهم في النار .انتهى ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ أي الشيطان وهو قول مجاهد وقتادة ومقاتل ومحبوب الليثي وأبو سفيان . قال القرطبي : أي الشيطان ، قاله عكرمة. وقيل: الدنيا ، قاله الضحاك .انتهى

﴿ فَٱلْيَوْمَ ﴾ أيها المنافقون ﴿ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ كما كنتم في الدنيا تفتدون بالمال ونحوه وأما في الآخرة فلا تقبل منهم الفدية ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ كذلك لا تقبل منهم الفدية ﴿ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي مسكنكم الذي تأوون إليه . ﴿ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ﴾ قال الطبري : النار أولى بكم .انتهى قال القرطبي : أي أولى بكم ، والمولى من يتولى مصالح الإنسان ، ثم استعمل فيمن كان ملازماً للشيء. وقيل: أي النار تملك أمرهم ، بمعنى أن الله تبارك وتعالى يركب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظاً على الكفار .انتهى ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾ الذي صرتم إليه بعملكم .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ألم يحن للمؤمنين ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي تخضع وتلين قلوبهم عند ذكر الله وسماع القرآن فتنقاد وتطيع ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾ الغاية والنهاية . أي بَعُدَ عليهم الأجل يعني في نفوسهم لطول الأمل في الحياة . قال مجاهد : الأمد : الدهر . وقال مقاتل : يعني طول الأجل ، وخروج النبي صلى الله عليه وسلم. وقال في القاموس المحيط: الأَمَدُ : الغايَةُ والمُنْتَهى . وقال في تهذيب اللغة : قال شَمِر : الأَمَدُ منتهى الأجل. ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أصبحت قاسية لا تنفع فيها المواعظ ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ خارجون عن طاعة الله بارتكاب الكبائر والكفر . قال السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ الآية. وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن المنذر عن الأعمش قال : لم قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعدما كان بهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ الآية .انتهى

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فالقادر على إحياء الأرض بالمطر بعد موتها قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم . ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ قد وضحنا لكم الدلائل الدالة على قدرة الله جل وعلا لأجل أن تُحَكِّموا عقولكم وتعودوا إلى رشدكم وتؤمنوا بربكم .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾ أدغم التاء في الصاد اختصارا أو تنبيهاً على عظم منزلة الصدقة بتشديد الصاد ليدل على شدة فضل الصدقة ، وقرأت بتخفيف الصاد بمعنى المصدقين بالله ورسوله أي المؤمنين . قال الطبري : اخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ ، فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الأَمْصَارِ ، خَلاَ ابْنِ كَثِيرٍ وَعَاصِمٍ بِتَشْدِيدِ الصَّادِ وَالدَّالِ ، بِمَعْنَى أَنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ثُمَّ تُدْغِمُ التَّاءَ فِي الصَّادِ فَتَجْعَلُهَا صَادًا مُشَدَّدَةً كَمَا قِيلَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ يَعْنِي الْمُتَزَمِّلَ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَعَاصِمٌ (إِنَّ

الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ) بِتَخْفِيفِ الصَّادِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِّ ، بِمَعْنَى : إِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ عِنْدِي أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ صَحِيحٌ مَعْنَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا فَبِأَيَّتِهِمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ .انتهى

﴿ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ قد يراد بها الصدقة جعلها الله كالقرض المردود لأن الله يردها إلى صاحبها كما في الحديث (إن الله تعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد) رواه الترمذي وصححه الألباني وفي صحيح مسلم (مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ ، إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ) وقد يراد به القرض الذي لا ربا فيه ففي الحديث (ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقتها مرة) رواه بن ماجة وحسنه الألباني. قال القرطبي : قال الحسن: كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو التطوع. وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها . وقال ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾: قراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله. وقرا الأعمش (يضاعِفه) بكسر العين وزيادة هاء. وقرا ابن كثير وابن عامر ويعقوب (يضعَّف) بفتح العين وتشديدها .انتهى

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قال مجاهد : كل مؤمن صديق وشهيد وتلا هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ ﴾ ذكره السيوطي في الدر بهذا اللفظ عن مجاهد ونسبه لعبد الرزاق وعبد بن حميد والذي عند عبد الرزاق والطبري عن مجاهد : كل مؤمن شهيد . و لم اطلع على ما عند عبد بن حميد لكن ما ذكره السيوطي هو معنى كلام مجاهد كما يقول المفسرون فلا ضير . وقال عمرو بن ميمون : كل مؤمن صديق ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ قال : هذه مفصولة ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ والقول بالفصل هو قول بن عباس ومسروق والضحاك والكلبي وأبو الضحى وعمرو بن ميمون ومقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان ورجحه الطبري. والقول بعدم الفصل هو قول بن مسعود وأبو هريرة ومجاهد وزيد بن أسلم .

ثم اختلفوا في المراد بالشهداء في هذه الآية فقال بن عباسٍ ومسروق والكلبي: هم الأنبياء يشهدون على أممهم كما قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾سورة النساء وعن الكلبي أنهم المؤمنون يشهدون لأنبيائهم بتبليغ الرسالة . وقال مجاهد : هم المؤمنون يشهدون على أنفسهم بالإيمان بالله عز وجل . وعن ابن عباسٍ ومقاتل بن سليمان ورجحه الطبري : هم الذين قتلوا في سبيل الله .

ولا شك أن بين الصديقين والشهداء فرقٌ في المنزلة وأنهما ليسا في منزلةٍ واحدة ، بل وليس كل المؤمنين صديقين وشهداء بل بينهم فرق كما قال تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ

وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾سورة النساء قال بن كثير : أي من عمل بما أمره الله ورسوله ، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله ، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته ، ويجعله مرافقًا للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون ثم الشهداء ثم عموم المؤمنين وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم .انتهى وقال القشيري : الصديقون هم الذين يتلون الأنبياء ، والشهداء هم الذين يتلون الصديقين ، والصالحون يتلون الشهداء .انتهى ويدل لذلك أيضاً ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم . قالوا: يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال: بلى والذي نفسي بيده ، رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين) متفق عليه قال في المعجم الوسيط : الصِّدّيق : الدائم التصديق ، والمبالغ في الصدق ، والذي يُصَدِّقُ قوله بالعمل .انتهى قال القرطبي: والصديق فعيل ، المبالغ في الصدق أو في التصديق ، والصديق هو الذي يحقق بفعله ما يقول بلسانه. وقيل: هم فضلاء أتباع الأنبياء الذين يسبقونهم إلى التصديق كأبي بكر الصديق .انتهى وقال السعدي : هم الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوة إلى الله .انتهى فالصديقون هم الذين صدق ظاهرهم وباطنهم مع الله ، وأكملوا الفرائض واتبعوها بالنوافل ، واجتنبوا الذنوب صغيرها وكبيرها . وإن وقعوا في الصغائر عدوها من الكبائر وبادروا إلى التوبة فهؤلاء في منزلةٍ بعد النبيين لا يبلغها إلا الخلص من عباد الله . والشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله ، وكل من سماهم النبي صلى الله عليه وسلم شهداء قال جابر بن عتيك رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله : المطعون شهيد والغريق شهيد وصاحب ذات الجنب شهيد والمبطون شهيد وصاحب الحريق شهيد والذي يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع شهيدة) رواه مالك وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٣٧٣٩) وعن عبد الله بن بسر مرفوعاً (القتيل في سبيل الله شهيد والمبطون شهيد والمطعون شهيد والغريق شهيد والنفساء شهيدة .) رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٤٤١) وقوله تعالى﴿ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قد يراد به في الدار الآخرة ، أي ادخر الله لهم في الآخرة أجرهم ونورهم وقد يراد به في الدنيا ، أي عند ربهم الآن كما قال تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ سورة آل عمران عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ قَالَ : أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ (أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً فَقَالَ : هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ؟ قَالُوا : أَيِ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا : يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا) رواه مسلم

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾ أي هم أهل النار شديدة الاستعار . قال أبو مالك ومقاتل بن سليمان : الجحيم ما عظم من النار . وقال الطبري : ما اشتد من النار . وقال القرطبي : الجحيم النار الشديدة

الاتقاد. يقال: جحم فلان النار إذا شدد إيقادها . وقال بن كثير : هي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها. وقال الطبراني : الْجَحِيْمُ من أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ .

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ بين الله جل وعلا للناس حقيقة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل وضرب لها مثلاً بالغيث حين يترل على الأرض فتنبت حتى يعجب الكفار نباته ثم لا يلبث أن يتغير فيصفر ثم ييبس ويتفتت . فهو حال الناس في هذه الحياة ولادة ثم فتوة وشباب وقوة ثم شيخوخة ثم موت ثم الجزاء في الآخرة ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ للكفار ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ للمؤمنين ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ الخداع .

تنبيه : قد يراد بلفظ الكفار في هذه الآية : الكفار بالله ، لأن فرحهم بنعيم الحياة أكبر من فرح المؤمنين . وقد يراد به المزارعون ، فإن لفظ الكفار يطلق على المزارعين لأنهم يغطون البذور بالتربة والماء كما يغطي الكافر نعمة الله عليه بالنكران فلفظ الكفر في اللغة يراد به التغطية .

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ حث الله عباده على المسارعة والمنافسة لطلب المغفرة التي يكون بها النجاة من النار ، وطلب الجنة التي عرضها مثل عرض السماوات والأرض وطولها لا يعلمه إلا الله . ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ جُهِّزت للمؤمنين بالله ورسله ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ ولن يفعل الإنسان ذلك بذكاء منه وإنما هو فضلٌ تفضل الله به على من يشاء من عباده ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ والله هو صاحب العطاء العظيم .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ أخبر الله عباده أن المصائب التي تكون في الأرض من نقص المطر والنبات وهلاك الدواب والزلازل والبراكين ونحو ذلك وكذلك المصائب في الأنفس من الموت فما دونه من الأمراض وهلاك الأموال ونحو ذلك كله مكتوب في اللوح المحفوظ من قبل أن تخلق هذه المصائب أو من قبل أن تخلق الأنفس وأنها مقدرة لحكمة يعلمها الله جل وعلا ولا نعلمها . قال بن عباسٍ والحسن وقتادة ومقاتل والضحاك وابن زيد : نبرأها : نخلقها . قال الحسن : كل مصيبةٍ بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن تبرأ النسمة. وقال الضحاك: من قبل أن نبرأ الأنفس. وقال بن زيد : قبل أن يبرأ النفوس ويخلقها. ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ تقديرها وكتابتها وخلقها . قال الطبري : إن خلق النفوس ، وإحصاء ما هي لاقية من المصائب على الله سهل يسير. انتهى

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ وإنما بين لكم أنها مكتوبة لأجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم من الأنفس والأموال . ﴿ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ولا تفرحوا فرح البطر الذي يفضي بصاحبه إلى إنكار فضل الله عليه . قال بن عباسٍ :

ليس أحد إلا يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ، ومن أصابه خير فجعله شكرا .انتهى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ المختال : من الخيلاء وهو الإعجاب بالنفس والتبختر والاستكبار . والفخور : الذي يفخر بماله وولده وحسبه استكباراً على الناس وإنكاراً لفضل الله عليه . قال مقاتل : يعني متكبر عن عبادة الله عز وجل فخور في نعم الله تعالى لا يشكر .انتهى وقال الطبري : والله لا يحبّ كلّ متكبر بما أوتي من الدنيا ، فخور به على الناس .انتهى

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ ﴾ بما آتاهم الله لأنهم لا يرون أنه فضلٌ تفضل الله به عليهم بل يرون أنهم اكتسبوه بقدراتهم العقلية والجسدية ومن اعتقد منهم أنه رزقٌ من عند الله فيرى أنه مستحقٌ لأن يعطيه الله لمكانته الاجتماعية أو لعمله أو لغير ذلك من الأسباب ولأجل ذلك يرى أن المال ماله ولا أحد غيره يستحق أن يُعْطَى منه ﴿ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾ و لم يكتف بمجرد البخل بل صار يحث الناس على البخل والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ﴾ لا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه بل هم المحتاجون إليه فمن أنفق فلنفسه ومن منع فقد منع عن نفسه. ﴿ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾ الذي يستحق الحمد لأنه المتفضل على عباده .

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ بالدلائل الواضحات ﴿ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ اسم جنس أي الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل والزبور والقران ﴿ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ أي وأنزلنا مع الرسل الميزان . قال قتادة ومقاتل : العدل . ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ بينا للرسل ميزان كل شيءٍ ليبينوه للناس لأجل أن يقوم الناس بالعدل في أمورهم كلها دون إفراطٍ أو تفريط ﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ ﴾ وهذا يدل على أن الحديد منزل من السماء وليس مخلوقاً في الأرض ﴿ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ ﴾ لأنه يصنع منه السلاح والدروع ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ينتفعون به في البناء ونحو ذلك ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾ وإنما فعلنا ذلك لأجل أن نعلم من ينصر الله ورسله بمعتقده وحكمه وسلاحه فالإيمان بالله ورسله وكتبه نصرةً لله ورسله في المعتقد ، والحكم في الناس بالعدل بحسب الميزان الذي أنزله الله نصرةً لله ورسله في الحكم ، والجهاد في سبيل الله بالسيف والرمح والسهم والدرع ونحوها من مصنوعات الحديد الذي أنزله نصرةً لله ورسله بالسلاح . وقوله ﴿ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾ أي أنه آمن بالله ورسله ونصر دينه وهو لم يره ، أو أن المراد أنه ليس بمرائي ولا منافق وسواءً كان في مجمعٍ من الناس أو غاب عنهم فلا يتغير معتقده . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ لا يحتاج لنصرة أحد ، ولكنه أمر بذلك ابتلاءً واختباراً للناس ليعلم الصادق في إيمانه من الكاذب.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ ﴾ قال بن كثير : يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحًا عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبيًّا إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن لم ينزل من السماء كتابًا

ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته .انتهى وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ سورة الأنعام فقوله ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ تستطيع أن تقول : يعود على إبراهيم لأن أغلب المذكورين من ذريته ، وتستطيع أن تقول : يعود إلى نوح لأن كل المذكورين من ذريته كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ سورة الصافات وأما قول بعض المؤرخين أن إدريس عليه السلام كان قبل نوح عليه السلام فلا شك أنه قولٌ باطل لا يلتفت إليه قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من (١٦٣) سورة النساء وقال صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويل (فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ) متفق عليه وقوله ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي من ذريتهم .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ أي جعلناهم يقتفون أي يتبعون ءاثارهم أي طريقتهم ومنهاجهم أو جئنا بهم من بعدهم .قال الدكتور عبد الرحمن الخطيب : قفّينا : أي أتبعنا وعقّبنا والتقفيه للشيء إتباعه لغيره ومجيئه على أثر ما قبله ، كأنه يقفوه ويتبع أثره. والأنبياء والرسل هم على هذا الأسلوب اللاحق منهم يقفو أثر السابق ويسير على طريقه إذ كانوا جميعاً على طريق اللّه يحملون مشعل الهدى فيتسلمه اللاحق من السابق .انتهى قال الرازي : معنى قفاه أتبعه بعد أن مضى ، والمراد أنه تعالى أرسل بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى عليه السلام فأرسله اللّه تعالى بعدهم وآتاه الإنجيل . انتهى وقال الألوسي والجزائري : أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى الإرسال إلى عيسى عليه السلام .انتهى ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ أي ما كتبنا عليهم الرهبنة ولكنهم ابتدعوها يبتغون بابتداعها مرضاة الله وهذا من ضلالهم فإن رضوان الله يكون بالاتباع لا بالابتداع . قال قتادة : ذكر لنا أنهم رفضوا النساء واتخذوا الصوامع .

﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ ومع أنهم ابتدعوها إلا أنهم لم يراعوا حقها ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ خارجون عن طاعة الله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ ﴾ اسم جنس أي رسله ، وإن كان الخطاب لأهل الكتاب فهو حثٌ لهم على الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم . قال بن عباسٍ والضحاك : يعني الذين آمنوا من أهل الكتاب .ذكره الطبري . ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ الكفل يطلق على الضعف والحظ والنصيب أي يعطيكم ضعفين أو نصيبين أو حظين من رحمته وذلك لأنكم آمنتم بنبيكم ثم آمنت بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم .قال بن عباس وأبي موسى ومجاهد ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ﴾ ضعفين . وعن ابن عباسٍ والضحاك : أجرين . وقال قتادة : حظين .﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ يوم القيامة كما في بداية السورة ، أو المراد بالنور العلم الذي يضيء طريقكم مع الله . قال بن عباسٍ وسعيد بن جبير : القران . وقال مجاهد : الهدى . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ فيغفر ويرحم لمن تاب إليه .

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني بعثنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم عربياً لأجل أن يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على رد فضل الله عن غيرهم واقتصار النبوة عليهم﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وأن النبوة والدين بيد الله يعطيها من يشاء من عباده ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ على عباده جميعاً .قال السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾من (٥٤) سورة القصص فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النَّبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولكم أجر فاشتد ذلك على الصحابة فأنزل الله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب وسوى بينهم في الأجر. وأخرج عبد الرزاق وعَبد بن حُمَيد وَابن جَرِير وَابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال : لما نزلت﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ الآية حسدهم أهل الكتاب عليها فأنزل الله﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ الآية. وأخرج عَبد بن حُمَيد وَابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قال : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل فلما خرج من العرب كفروا فأنزل الله﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ الآية. يعني بالفضل النبوة .انتهى

من دروس سورة الحديد :

أولاً / بينت السورة أن كل المخلوقات سوى الثقلين تسبح الله وتعبده وتعظمه فليس محتاجاً إلى الثقلين وإنما كتب العمل عليهم امتحاناً لهم فمن أقام العبودية لله أفلح ونجا ومن استكبر هلك وغوى فكان عبادهم لمصلحتهم هم لا لحاجة الله إليهم.

ثانياً / حثت السورة على الإنفاق في سبيل وبينت فضل الصدقة وجزاء المتصدقين وبينت ما يضاد ذلك من البخل وعقوبته فينبغي على المؤمن أن يكثر من الصدقات والإنفاق في سبيل الله ولا يبخل بمال الله الذي آتاه وليعلم أنه إن بخل بالمال فقد بخل على نفسه بالأجر و لم تكن الصدقة منقصة للمال كما في الحديث (ما نقصت صدقة من مال) .

ثالثاً / أنه لما عاش المنافقون في ظلمات الغي والضلال و لم يقبلوا نور الله الذي أنزله ، عاقبهم الله في الآخرة فأطفأ نورهم في أرض المحشر وجعلهم يتخبطون في الظلام ثم جعل بينهم وبين المؤمنين سوراً فاصلاً وأنزل بالمنافقين العذاب .

رابعاً / دلّ قوله تعالى ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ على أن طول الأمل يقسي القلب ويرغب في الشهوات وعلى عكسه الإكثار من ذكر الموت يلين القلب ويحجز عن الشهوات ولذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على زيارة المقابر وتذكر الموت فقال (اكثروا من ذكر هادم اللذات) يعني الموت .

خامساً / دلّ قوله تعالى ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ على حقارة الدنيا ، وأنها متعٌ زائلة ، وأن الجزاء في الآخرة إما عذاب وإما مغفرة فعلى العاقل أن يجعل هذه الدنيا مطيته إلى الآخرة ، تقربه من ربه ، وتكسبه رضوانه ، ولا يجعلها همه فيغضب ربه من أجلها فيخسر دنياه وآخرته .

سادساً / في قوله تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ دليل على أن المصائب والابتلاءات كلها مكتوبة ومقدرة قد كتبها الله على عباده فينبغي للعبد أن يرضى بما كتبه الله عليه فيكسب خيري الدنيا والآخرة رضاً وراحةً وسكينةً في الدنيا وفوزاً في الآخرة ولا يسخط ويتجزع فيخسر دنياه وآخرته فأما في دنياه فلن يرد تسخطه وجزعه المصيبة وإنما يزداد بذلك كرباً وهما وضيقا وأما في الآخرة فيخسر الأجر ويكسب الاثم .

تم الفراغ من تفسير جزء الذاريات يوم الخميس الموافق (٢٦ / ٦ / ١٤٤٤هـ) والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .